

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر



كليوباترة

سيرتها وحكم التاريخ عليها

تأليف
زكي عسلي



كليبو بايرة

سيرتها وحكم التاريخ عليها

تأليف
زكي عيسى

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

ملقمة الطبع والنشر
لجنة البيان العربي
٢٣ شارع أمين ماضي بالمدينة

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٧ شارع مسامكة بالمدينة
ت ٢٧٠٧٩



كليب باترة السابعة

محتويات الكتاب

صفحة	
(ز)	مقدمة المؤلف

الفصل الأول

٩ - ١	نشأة كليوباترة
١	تمهيد
٢	والد كليوباترة
٥	كليوباترة تزوج على عرش مصر

الفصل الثاني

٢٥ - ١٠	كليوباترة ويوليوس قيصر
١٠	كليوباترة تلتقي بيوليوس قيصر
١٢	حرب الاسكندرية بين قيصر والشعب الاسكندري
١٠	مقام كليوباترة في روما

الفصل الثالث

٦١ - ٢٦	كليوباترة وأنطونيوس
٢٦	كليوباترة وأنطونيوس
٣٠	ماركوس أنطونيوس وحكومة الشرق
٣٩	أنطونيوس والمسألة المصرية ثم لقاءه بكليوباترة
٥٢	حملة أنطونيوس على بلاد الفرس ودور كليوباترة

(و)

الفصل الرابع

الاسكندرية تشهد الاحتفال بالنصر على أرمينيا وتوزيع

- هبات إقليمية على أبناء كليوباترة . ٦٢ - ٧٦
 حملة أنطونيوس على أرمينيا ٦٢
 الإسكندرية تشهد موكب النصر ٦٦
 توزيع الهبات الإقليمية على أبناء كليوباترة . . ٦٧

الفصل الخامس

الدور الحاسم في علاقة

- أنطونيوس بكليوباترة ٧٧ - ٩٧
 علاقة أنطونيوس بكليوباترة تدخل في دور حاسم . ٧٧
 كليوباترة وقيصرون في وصية أنطونيوس . . ٨٩

الفصل السادس

- النزاع الأخير . . ٩٨ - ١٤٦
 الشرق والغرب وجهاً لوجه ٩٨
 الإعداد لموقعة أكتيوم ٩٩
 فرار أنطونيوس وكليوباترة ١٠٦
 عودة كليوباترة إلى الاسكندرية ١١١
 كليوباترة تضع خططاً حربية ١١٥
 إتحار أنطونيوس ١٢٦
 إتحار كليوباترة ١٣٤

الخاتمة

- ١٤٧ - ١٥٧
 كليوباترة في الميزان ١٤٧
 أغسطس وتصويره لموضوع ضم مصر . . ١٥٣
 فهرس الاسماء والأعلام ١٥٩ - ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَدِمَةٌ

إنه ليسعدني أن أقدم للقارىء العربى ، فى طيات هذا الكتاب ، لمحات عاجلة من حياة شخصية قذة ، هى كليوباترة السابعة التى تولت مقادير هذا الشعب المصرى فى مراحل حاسمة من تاريخه . فتناولتُ عرض بعض المواقف الهامة من تاريخ حياتها ، وسردتُ بعض أعمالها ، وعرجتُ على سياستها لإزاء نفر من عظماء العالم الرومانى فى ذلك الحين بقدر ما يسمح به المجال ، رغبة فى التفسير والتوضيح لما غمض من أسرار حياتها ، وخفى من تصرفاتها فى شئون السياسة والحرب . ولست أدعى أنى قد وفيت الموضوع حقه ، فالمقام هنا لم يكن ليُسمح بذلك ، والمجال الذى أتبع لى فى هذه الصفحات كان فى أضيق نطاق . ومع ذلك فإنى آمل أن أكون قد قدّمتُ هنا صورة حيّة لحياة هذه الملكة ، يطالعها القارىء العام فى يسر وسهولة ، فيكشف النقاب عما غمض عليه من حياة هذه الملكة التى يتردد اسمها على ألسنة الناس فى حياتنا اليومية دون أن يعرفوا حقيقتها ، ويتبينوا كنهها ومقاصدها ، وقد عاشت وجه التاريخ بين مادح يثنى عليها ، وقادح يذمها . وقد سلكتُ هنا سبيل التدليل العابر لا الاستقراء المستنفذ ، إذ أن دون ذلك جهوداً ومشقات قد لا يتسع لها وقت القارىء غير المتخصص .

وإنى لأرجو أن أكون قد أثّرتُ فى نفس القارىء الرغبة فى التعرف على مزيد من تفاصيل حياتها الحافلة بالأعمال ، ووفقت فى تشويقه إلى الاهتمام بها وإصدار حكم عادل عليها . ولى عودة إلى هذا الموضوع فى شئ كثير من التوسع والإفاضة فى القريب إن شاء الله .

الفصل الأول

نشأة كليوباترة

تمهيد :

خلدت هذه الملكة اسمها في سجل التاريخ ، وطبق صيتها آفاق المشرق والمغرب في العالمين القديم والحديث ، وانبرى المؤرخون والمصنفون في كل العصور لهذه الملكة بالذات ، يتناولون القصص المحيطة بسيرتها بالسرد والتفنيد ، ويعرضون لأعمالها وأحوالها في شيء كثير من الإسهاب والتفصيل . وقد انحاز البعض منهم ضدها جرياً على سياسة تقليدية ، استنهالهم ساسة الرومان وكتابهم في العصر الأغسطي ، فأنحوا باللائمة على هذه الملكة ، ورموها بأفحش القول والتبذل ، وأسخطوها بالتجريح ، ونسبوا إليها شيئاً كثيراً من الشرور والآثام . وقد سرد المؤرخ بلوتارخوس جانباً من حياتها ، لعله من أبهج الصفحات التي انبهر لها العالم ، وجاء وصفه لذلك الجانب ضمن حديثه عن حياة بطل روماني وقائد كبير هو ماركوس أنطونيوس . ثم جرى الكتاب وراء بلوتارخوس ، وأخذوا يرددون مارواه من قصص ونوادير ساقها عن حياة هذه الملكة ، فكان الشاعر الإنجليزي شكسبير من السبّاقين إلى ترديد لمحات من حياتها مع يوليوس قيصر ، فلم يخرج في الصورة التي أبدعها من ثنايا حياة هذه الملكة ، عن التقليد المرعي في تصوير هذه الملكة بالفاتنة ، وتجريحها بأنها سخّرت جسدها في تحقيق مآربها ، وأفرطت في انتهاج هذا السبيل ، ثم جاء الكاتب الروائي « برنارد شو » في روايته التي أخرجها عن قيصر وكليوباترة ، فأنكر أن كليوباترة أوتيت قسطاً عالياً من التعليم ، وتصورها في صورة المرأة اللعوب ، قرية الشبه بالقُطيطة . وإنه ليحق بالطبع لأمثال هؤلاء الكتاب الروائيين من طراز « برنارد شو » وهم الذين عرفوا

بأسلوبهم التكمي اللاذع أن يصوروا شخصياتهم على النحو الذي يروق لهم، وأن يسبقوا على هذه الشخصيات التاريخية أو الخيالية ما يرونه من الصفات . ولكن الأمر الذي لاشك فيه أن الصورة التي ابتدعها برنارد شو، ليخرج فيها كليبواترة جاءت غير مطابقة للحقيقة ، وليس لها سند من الواقع ، بل إن الأمر على عكس ذلك، فالظروف التي أحاطت بهذه الشخصية الملكية وضعتها منذ نعومة أظفارها في مهب الريح ، وكان عليها أن تواجه تجارب قاسية ، إذ فتحت عنها عقب سن الرضاع مباشرة على فكرة مشوبة بشيء كثير من الغموض ، عن قسوة قلوب الرومان، وغلظة أكبادهم ووحشيتهم. وإن ما أنته هذه الملكة في شتى مراحل حياتها من ضروب الشجاعة والبسالة في ميادين السياسة والقتال لينهض دليلاً على نقض الرأي المتواتر في كتابات أولئك القصاصين والروائيين ، الذين تركوا العنان لخيالهم يسبح ، وركبوا في ذلك متن الشطط .

والد كليبواترة

وفي صدر حياة هذه الملكة ، كان والدها بطليموس الثاني عشر وكنيته أو ليتيس أى الزمار يمثل صورة هزيلة من ملوك البطالمة الضعاف ، يلاحق قواد الرومان وساستهم بمطالبه ، ويرتضى على أعتابهم كسباً للتأييد والاعتراف به ، وطلباً لتثبيتته على عرش مصر ، وكانت الأحداث الجسام تجري وتزاحم وقائعها في محيط العالم الرومانى ؛ فالجيوش لأثر الجيوش يسيرها قواد الرومان بعضهم ضد البعض ، تارة لإشباع أغراض ومآرب شخصية ، وتارة أخرى بدعوى أنهم انبروا لنصرة الجمهورية الرومانية وهى على شفا جرف هار وفي دور الاحتضار ، فكانت هذه الجيوش تجتاح بلاد الشرق أو الغرب . وكانت روما تعمل جاهدة منذ أمد بعيد على التدخل في شئون مصر ، وتنصب الشباك لختلف دول الشرق عامة ، وتربص بها الدوائر ، وتقف لمصر بصفة خاصة بالمرصاد . ومن أجل هذا توالى الوفود والبعثات الرومانية على وادى النيل ، وكان الملك مصر بدوره

مندوبون ، يسعون لدى روما لكسب ودها وعطفها وانقاء شرها ، بل إن والد كايوباترة تغالى فى هذا السبيل فأراق ماء وجهه ، وبقي نحو عشرين سنة واقفاً على الاعتاب ، يسعى لأن تعترف به روما ملكاً على مصر ، ويسبغ عليه مجلس شيوخها العتيد لقباً ثانياً كان محل زهوه واعتزازه ، فأصبح بذلك الصديق والحليف للشعب الرومانى ، وكان فى تحقيق هذه الامنية القضاء على نفر من المدعين لعرش مصر . ويرجع الفضل فى نيله أمنيته هذه إلى يوليوس قيصر الذى تقدم باقتراحه هذا سنة ٥٩ ق.م عند ما كان متولياً القنصلية ، بعد أن قبض رشوة باهظة من الملك تبلغ ستة آلاف من التالنتات (والتالنتوم الواحد كان يساوى نحو ٢٤٠ جنياً) .

وما كانت حياة هذا الملك فى مصر بمستقرة ، بل إن شعب الإسكندرية طرده من البلاد أكثر من مرة ، لأنه كان يضيق بتصرفاته وتهتك بوصفه الإله ديونيسوس الجديد ، وبما كان يفرضه على كاهل الناس من أعباء مالية ، اشغل فى جمعها . ونظراً لتقصيره فى مساندة أخيه الذى كان حاكماً على قبرص عندما طمعت روما فى ضم هذه الجزيرة ، ونظراً لما ألحقه بمصر من مهانة لسيره فى ركب الرومان واعتماده على زعمائهم فى الخطوة بالتأييد ، أعلن عليه شعب الإسكندرية العصيان العام ، وطرده سنة ٥٨ ق.م ، ففر إلى روما حيث نزل فى ضيافة بيمى أحد الشخصيات الكبرى فى روما إذ ذاك . وقد استدان كثيراً ، وأسرف فى تقديم الرشاوى من قبيل السعى إلى كسب التأييد ، وردّه إلى عرشه وتبارى القواد الثلاثة: بيمى وقيصر وكراسوس فى التسابق على أن يكون لأحدهم الفضل ، إما بالذات أو بالواسطة فى إعادة هذا الملك ، وردّه إلى عرشه المسلوب ، ولكن مجلس الشيوخ الرومانى كان متردداً ، فامتنع عن الموافقة على استخدام القوة فى تحقيق ذلك ، متذرعاً بأسباب دينية من الكتب السبيلية ، ويق الوضع على حاله حتى كانت سنة ٥٥ ق.م ، عندما أوحى بيمى إلى أحد صناعته وهو أولوس جابينيوس (Aulus Gabinius) حاكم الشام ببنى هذا المشروع ، ووعد بطليبوس أوليقيس بدفع مبلغ باهظ قدره عشرة آلاف تالنتوم لجابينيوس فى نظير هذه المهمة

المحفوفة بالمخاطر . وعلى الرغم مما كان يحظى به هذا الوالى الرومانى من تأييد
يحمي له فإنه تقاعس وسوءف خوفاً من الزج بنفسه فى مغامرة عسكرية فى
الطريق الصحراوى إلى مصر ، وخشية أن تواجهه بعض الصعاب أمام الفرما ،
ولكن قائد الفرسان لدى جاينوس وهو شاب فى مقتبل العمر اسمه ماركوس
أنطونيوس انبرى للإقدام على كشف الطريق ، وتبعه الجيش ، واستسلمت
الفرما ، ودخل جاينوس الإسكندرية وفى صحبته الملك بطليموس أو ليتيس وبدا
رد الملك إلى عرشه ، وترك حامية رومانية لنصرته ، ومضى الملك فى إشباع شهوة
الانتقام من خصومه والتنكيل بهم . وكانت ابنته برنيقة فى مقدمة الضحايا
نظراً لأنها قبلت من السكندريين أن تنصّب على عرش مصر فى غيبة أبيها ،
ولقيت برنيقة هذا المصير الأليم أمام أعين أختها كليوباترة البالغة من العمر
إذ ذاك الرابعة عشرة . وبذلك أفسحت برنيقة السبيل لكليوباترة التى ضمنت
أن يكون مآل العرش إليها . وقيل فيما بعد إنه فى هذه المرحلة وقع بصر
ماركوس أنطونيوس وهو فى الإسكندرية على تلك الأميرة الشابة ، وأنها
بهرتة واستهوته وهى لا تزال فى مطلع شبابها .

ولا بد أن الذعر تملكها ، واستولت عليها المخاوف فى السنين القلائل
الآخيرة من حياة أبيها ، وهى تشهد رجال المال من الرومان وقد ضيقوا
عليه الحناق لاسترداد جميع ما اقترضه منهم فى سنى محنته ، فعمد إلى تعيين
أكبر دائنيه وهو رومانى يسمى رايريوس (Rabirius) فى وظيفة رفيعة
هى وزير مالية البلاد المصرية أوديويكتيس (Dioecetes) . واستطاع هذا
الرومانى أن ينهب البلاد حتى ضاق الناس به ذرعاً ، وقامت حركات عصيانية ،
واختل الأمن وأخذ الفلاحون يهددون بعدم الوفاء بما عليهم من التزامات
قَبْل الدولة ، وخشية أن يفتك الغوغاء بوزير المالية الرومانى زج به الملك
فى السجن ، ثم ما لبث أن دبر أمر إنقاذه وتهريبه إلى روما . وكانت خاتمة أعمال
هذا الملك أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل ضمان العرش لكبرى بناته وهى
كليوباترة ، وكانت تبلغ إذ ذاك من العمر نحو الثامنة عشرة ، على أن تشترك

مع أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر وله من العمر نحو عشر سنوات . فكتب وصية بهذا المعنى احتفظ بصورة منها في الإسكندرية ، وبعث بأخرى إلى روما ، وفيها أشهد الشعب الروماني وقادته على أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة الملكية ، فلما توفي في ربيع ٥١ ق . م كان عرشه الذي تركه لابنيه غير مستقر ، وبقي على هذين الورثين أن يثبتا للعالم كيف يستطيعان الاحتفاظ بهذا الملك الذي أصبح في مهب الريح ، تعصف به الأهواء من ناحية ، وتطمع فيه روما ، ويسيل له لعاب قادة الرومان من ناحية أخرى .

كليوباترة تبرع على عرسه مهر

إن تاريخ حكم هذه الملكة المليء بالأحداث الجسام ، بعضها من طابع محلي بحث ، وأغلبها مرتبط بتاريخ العالم الروماني وما كان يجري بين قواده من كفاح من أجل الغلبة والسيطرة . وفي طيات تاريخ هذه الملكة يتجلى ما كان يبدو عليها من أحاسيس وانفعالات ، وما كان يُسلط عليها من أضواء ساطعة بين حين وآخر ، فتارة تظهر في ألفرما ثم في الإسكندرية وتارة أخرى في تارسوس بآسيا الصغرى ثم في بلاد الشام ، وفي آخر المطاف في ليبيروس ببلاد اليونان عند ساحل أكتيوم ؛ وهي في كل ذلك قد اتخذت من الإسكندرية مقرها الدائم ، تدبر فيه من أمرها ما وسعها التدبير ، وتنولى بنفسها مشئون الحكم ، وتنظم خططها وتستقبل السفراء من الرومان وغيرهم وتبعث بأخصائها والمقرئين إليها إلى روما وبلاد الشرق لترقب ما يجري من أحداث جسام على مسرحها . وعلى ذلك تعددت ميادين نشاطها السياسي بقدر اتساع أفقها ومآربها السياسية . وإن عرضاً وافياً لسجل كل هذه الأحداث ليتطلب أن نفرده أسفاراً عديدة ، حتى يمكن أن نلقى بعض الأضواء الساطعة على كل ما كان يساق من أقوال ، تبارى الكتاب والأدباء القدامى في سردها ، ونحنا نحوم بعض الكتاب المحدثين ؛ ومن هؤلاء من تجنى على مسلك هذه

المللكة من قبيل المبالغة ، وتشويه السمعة ، والإيعان في إرضاء الإمبراطور الرومانى الأول ، اكتافىوس أغسطس ، خصم كليوباترة اللدود .

وقد صمدت المللكة لما كان يحاك ضدها من دسائس فى مخطط البلاط السكندرى فى أول عهد حكمها ، وعقب وفاة والدها مباشرة ، فجمعت إذ ذاك جيشاً على الحدود الشرقية من مصر ، واجهت به قوات أخوها وشريكها فى المللك . على أنها وقفت موقفاً أقسى وأشد من هذا عندما أعلن عليها اكتافىوس الحرب ، وتكفل وراءه العالم الغربى باعتباره بطله الذى يريد الانتقام من تلك المللكة الشرقية ؛ ولكنها فى كل هذه المواقف الحاسمة والأحداث الجسام لم تلن لها قناة ، ولم يتسرب إلى قلبها الخوف أو الوجع ، وإنما كانت تظهر من المواهب والقدرات ما كان فى خلاصها ، وإنقاذها من شتّى المآزق ، وقد بهر الكتاب والمؤرخين ما أوتيته من فطنة وذكاء ، كانا يجنبها الكثير من مواطن الزلل ، ويجعلانها تكسب إلى جانبها فى براعة منقطعة النظير تأييد أكثر من قائد رومانى ، فكان الدكتاتور الرومانى العظيم يوليوس قيصر أول هؤلاء ، اتخذت منه أداة لتحقيق مآربها ، وتثبيت أركان عرشها بقوات الجيش الرومانى ومعدته ، فأبقى بعض الفرق الرومانية بالإسكندرية لتكون حامية ومؤيدة للمللك ، ترصد كيد الأعداء عنها فى الداخل ، ثم كان ما هو أدهى وأمر بأن أوحى إليه بكثير من الأفكار الملكية الهيلينستية وطرأها المطبق فى مصر ، والمنطوى على حكومة يبروقراطية — مركزية — تسير فى يسر وسهولة . ثم جاء من بعده خلفه ماركوس أنطونىوس ، فارتقى فى أحضانها ومضى فى نصرتها وتأيدها بعد أن كان قد بعث فى طلبها لتمثل بين يديه فى تارسوس بآسيا الصغرى ، وتجب عن تهمة التقصير فى المساهمة فى الحرب التى شنها هو واكتافىوس ضد قتلة قيصر من الجمهوريين ، لتأديبهم على فعلتهم الشنعاء . وهكذا نهج أنطونىوس نهجاً فريداً ، فكان فى حبه عنيفاً ، وفى إخلاصه متفانياً حتى أصبح مضرب الأمثال للناس فى التفانى والمغالاة فى الحب والتضحية بالنفس من أجل حيييته كليوباترة .

من هذا العرض السريع يتبين مبلغ الصعوبة في تفهم تاريخ حياة هذه الملكة على حقيقته ، لما فيه من تداخل وازدواج ، فجانب منه من صميم التاريخ المصري في إحدى حقبة الحاشمة ، ولكن الجانب الأكبر منه متغلغل في آفاق أكثر اتساعاً ويمثل مرحلة هامة من تاريخ الجمهورية الرومانية نفسها ؛ وبالطبع كان لكل جانب منهما ظروفه وملابساته ، وما أكثر التداخل بين الجانبين وما أشد تشابك المصالح بين الطرفين ، فالسياسة المصرية في ذلك الحين كانت تدور في الفئلك الروماني الذي كانت له دخائله ومصالحه البعيدة المرمي ، فقواد الرومان وأساطين ساستهم لم يتركوا مصر وشأنها ، بل أدخلوها في حسابهم وعولوا على كنوزها وخيراتنا في برامجهم السياسية ؛ والملكة بدورها ورثت عن أبيها تقليداً مريعاً ، كان يقضى بالانحياز إلى الرومان والاعتماد على جانبهم في التأييد الداخلي والخارجي ؛ ثم إن أباهما كان قد كشف لها وهي لاتزال في مطلع حياتها عن كنه هذه السياسة ، وأطلعها على مضمونها ، فهل كان في وسعها أن تتبع سياسة استقلالية ، وأن تحافظ على هذا الاستقلال بمواردها الخاصة ؟ أم أن ظروف الحال كانت تقضى عليها بأن ترتبط أشد ارتباط بزمرة من القواد الرومان اللامعين ؟ إنها رأيت رأي العيان أن مقاليد العالم في أيديهم وأنه لا مناص لمصر من أن تصانهم وتسير في ركبهم ولو إلى حين ؛ وعلى هذا النحو تغلغل أطوار حياتها في خضم تلك السياسة العالمية ، وطاصرت حقبة من التاريخ الروماني كانت حاشمة في تقرير مصير الجمهورية الرومانية (Res Publica) وهي التي تعب الرومان نحو خمسة قرون في تكوينها ، وإرساء قواعدها ونظمها الفريدة والمحافظة على كيانها ، وتوسيع رقعة أملاكها في حوض البحر المتوسط حتى أصبحت تضم كل بلاد العالم المنحضر إذ ذاك ، والمطة على حوض هذا البحر ، ثم كانت فعالة بالتالي في تقرير مصير مصر ، وإنهاء صفحة مجيدة من تاريخها على نحو فريد أخذ بالآليات وشغاف القلوب . وكليوباترة منذ توليها العرش سنة (٥١ ق . م إلى أن انتحرت بطريقة روائية سنة ٣٠ في قصر اعتصمت به في الإسكندرية ،

كانت تجلس على عرش متأرجح في خضم أحداث جسام طوال هذه العشرين عاماً التي قضتها ، مؤيدة بجند الرومان ، وما كان في مكنتها بوصفها امرأة ، لها قصورها الطيعي ، أن تسلك سبيلاً غير الذي فعلته ، وأن تؤثّر اتباع سياسة إستقلالية بدلاً من الاعتماد على عظماء الرومان وقادتهم في تأييد حكمها وتثبيت عرشها .

وعقب وفاة بطليموس أوليتيس عام ٥١ ق.م تربعت كليوباترة بالاشتراك مع أخيها الصغير على عرش مصر ، فكان حكماً ثنائياً غير متكافئ ، اكتشفته الظروف والصعاب على نحو غير مألوف فأخوها بطليموس شاب في العاشرة من عمره وأخته تكبره ، إذ تبلغ إذ ذاك ثمانية عشر عاماً . وما كانت العلاقات بين هذين الأخوين ليسودها الوثام والود ، والبلاط المحيط بهما فاسدٌ ، تغشاه شخصيات متباينة متآمرة ، فمن رخصيان إلى قواد على قوات من الجند المرتزقة ، إلى كهنة ووزراء ، وكلٌ يعمل لحسابه الخاص . والملك باعتباره قاصر آكان يحيط به ثالث من الأوصياء ، يتألف من الخصى بوثنوس الذي موكل إليه أمر الإدارة العامة وبخاصة الشؤون المالية ، ومن أخيلاس المتولى قيادة القوات المسلحة ، ثم من ثيودوتس وهو من أهل ساموس وكان رائد الملك ، والمشرف على تربيته وثقيفه . وسوف نرى ما تمتنخض عنه ظروف هذا الحال ، وهل كان في وسع الملكة الشابة أن تقبل الخضوع لحكم هذا الثالث وبغضه ؟ أم تتبع سياسة إستقلالية ؟ تتخذها منهاجاً لنفسها . وفي خلال السنين الثلاث التالية أصبح لامناص من الإجابة على هذا السؤال بطريقة لا تقبل الشك ، فطردت كليوباترة من البلاد في السنة الرابعة من حكمها ، مثلها مثل أبيها من قبل ، ولكنها لم تستسلم ، بل جمعت جيشاً مرتزقاً بما كان لدهان أموال ، ووقفت في سنة ٤٨ ق.م بالقرب من القرما على رأس هذا الجيش على حدود مصر وسوريا ، على أهبة واستعداد للدفاع عن حقوقها وتسوية الحساب مع أخيها وبطانته في ميدان القتال . إن إرادتها التي لم تكن تفل ، وشكيمتها التي لا تنثنى ، ورغبتها في أن

تثبت وجودها - كل ذلك كان قد بدا ظاهراً للعيان منذ أول الأمر على نحو جعل هذا التالوث من رجال البلاط ، يخشى بأسها ، ويعمل على التخلص منها فَوُجَّهَتْ إلى الملكة تهمة العمل على تدمير أمر الخلاص من أخيها وشريكها في الملك ، وكان جزاؤها الطرد ، ولكنها حرصت على أن تبقى ملكة (basilissa) على مصر وعملت على الاحتفاظ بملكها وأهنته مهما كلفها ذلك . وكان أخوها الملك الشاب على رأس جيش عظيم جمعه ليحارب به أخته كليوباترة ، التي كان معسكرها على مسافة قصيرة من معسكره .

وصادف في ذلك الحين أن كان پمبي يحارب يوليوس قيصر والتقى القائدان في موقعة فرساليا ييلاد اليونان سنة ٤٨ حيث لحقت الهزيمة بالاول وولى وجهه شطر مصر آملاً أن يجد فيها الملاذ ، وساعياً وراء الحصول على مساعدة تكون بمثابة رد للجميل الذي كان قد أسداه للملك بطليموس أوليتيس من قبل ، عندما ساهم في رده إلى عرشه ؛ ولكن خاب ظن پمبي . وفي هذا الصدد يسرد لنا المؤرخ اللاتيني ليفي والكاتب اليوناني بلوتارخوس بأسلوبه القصصى وبطريقة مؤثرة تلك الفاجعة الآلية التي سحلت پمبي عندما رسا على شاطئ الفرما في قارب صغير فقتلته يد أئيمة يابعاذ من رجال الحاشية المسيطرين على الملك ، طمعاً في كسب رضاء قيصر الذي كان يتعقب أثر غريمه پمبي حتى ساقتهما المقادير إلى مصر . وبحسب ما جاء في بلوتارخوس لم يسع قيصر عندما شاهد خاتم پمبي ، وتعرف على نقش الأسد المحفور على هذا الخاتم ؛ إلا أن يذرف دمعاً هتوناً على غريمه الذي خسر في ميدان الخديعة والخيانة . وبعد ذلك واجه قيصر الوضع الراهن في مصر بشجاعة ، وقبض على ناصية الأمور فيها ، وبذل مجل اهتمامه في تصريف شئون البلاد^(١) .

الفصل الثاني

كليوباترة ويوليوس قيصر

في هذه المرحلة الدقيقة من حياة كليوباترة ، اعتملت في رأسها شتى المشاعر ، فهي امرأة في مستقبل العمر ، أوتيت قسطاً لا بأس به من الجمال ، على الرغم من أنفها الطويل المحدودب وفمها الكبير ، وفوق ذلك فإنها كانت على قدر كبير من الذكاء والجاذبية والمعرفة بحسن استغلال الظروف السانحة . إنها كانت تعرف الشيء الكثير عن قيصر الذي كان يبلغ من العمر إذ ذاك اثنين وخمسين سنة ؛ ولا ريب أنها سمعت عن غرامياته ومغامراته ، وميله إلى النساء ، كما سمعت عما أظهره من مقدرة فائقة في أعمال السياسة وشئون القتال ، وما كسبه من انتصارات باهرة . ومع أن هذا القائد الروماني كانت تتوج هامته كل هذه الانتصارات ، وغزواته لقلوب كثير من النساء ربما أثارت عجب امرأة شابة مثل كليوباترة ، فإنه قبل كل شيء روماني بالنسبة لها ، بينما هي سليلة بيت مقدوني مجيد ، ويجري في عروقها دم ملكي إلهي .

جالت بخاطرها مثل تلك الأفكار ، وأخذت تداعب خيالها آمال كبار ، ولكنها لم تنس أبداً في تصرفاتها معه الاحتفاظ بهيبتها وسمو مركزها ، وهما هي الأقدار وحدها قد ساقا هذا البطل الروماني العظيم إلى مصر ، وألقت به في طريق كليوباترة وهي إذ ذاك في محنة قاسية ، تقود جيشاً وهي امرأة ، لا حول لها ولا طول ضد أخيها وشريكها في الملك وبطانة السوء المحيطة به . فإذا يضيرها أن تجدد الخلاص من أزمته التي ألمت بها على يد قيصر ؟ إنها دبرت أمرها ، وأحكمت خططها ، وأغنانا بلوتارخوس وديوكاسيوس بأن رويانا قصة فرارها على نحو روائي من المعسكر الخاص بها في الفرما إلى الإسكندرية ، فركبت قارباً صغيراً في ظلام الليل الدامس متسللة دون أن يلحظها أحد من حرس خصومها ، وفي صحبتها رجل صقلي كان عمل ثقتها وهو أبولودوروس ،



يوليوس قيصر

ورست في ميناء الإسكندرية الكبير، وحملت إلى القصر الملكي في طيات.
بساط أحكم رفيقها لغاته ونشرت هذه الطيات أمام قيصر، فخرجت منها
الملكة التي كانت تبلغ من العمر إذ ذاك الواحد بعد العشرين، ومثلت أمام
قيصر المشدود فهرته في الحال، وامتهوته بجراتها وجسارتها.

وكان المعاصرون لكليوباترة يعرفون جيداً أن قوة جاذبيتها هي في
مواهبها العقلية، وطباعها ودعامة خلقها. وفي حين أن أحداً من أسلافها من
ملوك البطالمة وملكاتهم لم يستطع أن يقنع نفسه بضرورة تعلم اللغة المصرية،
بل إن البعض منهم أهمل كذلك اللهجة المقدونية نفسها، فإن كليوباترة أوتيت
مَلَكَكة وموهبة مرموقة في هذا الشأن فتعلت الكثير من اللغات الأجنبية؛
وبالإضافة إلى اللغة المصرية، واللهجة المقدونية، واللغة اليونانية، كانت تعرف
لغة الآثيوبيين والعرب والتروجليديتين، فضلاً عن لغات شعوب آسيا الغربية.
بما في ذلك السريانية والميدية والآرامية، واستطاعت بفضل هذه المقدرة
اللغوية أن تستغنى عن المترجمين، وأن تجري أحاديثها ومُسل تخاطبها في
يسر وسهولة، فكانت تنتقل من لغة لأخرى في براعة تستهوي الأبصار
والأسماع وتستحق الإعجاب، وفوق ذلك فإن نبرات صوتها كانت أشبه
بصوت القيثارة، له رنين مختلف النغمت. وقيصر الذي عرف بتألقه البالغ
في الأسلوب الكتابي (elegantia summa scribendi) وبتعمقه في المعرفة
والعلم بأصول الفنون والعلوم، على قدر معرفته بالسياسة وشئون القتال،
لا بد أنه أنس في حديثها والاجتماع بها لذة وإغراء، فهي امرأة حاضرة
الذهن، تألق في شخصها ما بقي لتاج البطالمة من روعة، وانتهجت لنفسها
سياسة خاصة، فكان هذا مدعاة لأن تستهوي قيصر بما عُرف عنه من حب
المغامرة والمقامرة.

كان وصول كليوباترة إلى الإسكندرية على هذا النحو المفاجئ، ومحاولتها
أن تكسب تأييد سلطان الرومان في شخص قيصر، سبباً في غضب
السكندريين وسخطهم الشديد. ولما استدعى قيصر في اليوم التالي بطليموس

لإصلاح ذات البين ، وإعادة الأمور إلى مجاريها بين الأخ وأخته ، مجن جنون هذا الأخ عندما وقع بصره على أخته وخرج ثائراً وسط الجماهير المحتشدة أمام القصر الملكي ، وألقى بالتاج من فوق رأسه ، وهو يصيح بأنها خيانة ، فتار الجمع ، وهدد الغوغاء بمحاصرة القصر ، وخرج إليهم قيصر ليعمل على تهدئة خواطرم ، ووعدهم بتنفيذ رغباتهم . وفي جمع الإسكندر بين حضرة قيصر بوصفه ممثلاً للشعب الروماني ، وقرأ عليهم وصية الملك الراحل ، وقضى بأن يتزوج الملك من أخته كليوباترة ، وأن يشترك الاثنان في الحكم بمصر تحت حماية الرومان ووصايتهم ؛ واقترح كذلك بحسب ما جاء في «ديو» ، أن يسمح لبطلبيوس الأصغر وأخته الصغرى أرسينوى أن يقوموا بالحكم في قبرص ، وهي إذ ذاك في حوزة الرومان بعد أن كانت قد سلخت من أملاك مصر منذ عشر سنين مضت ، وبذلك ردت الجزيرة إلى الملك البطلمي على يد ذلك الغازي الروماني الذي كان قد لقب منذ قليل بالدكتاتور ، وأصبح المتصرف وحده في شئون الرومان وأملاكهم . وقد تم الاحتفال بزواج الملك الشاب وكليوباترة في حفل بهيج ، وبذا تحقق لكليوباترة أول نصر لها ، فالإمبراطورية البطلمية توقف تدهورها وانهارها ، وبقي أن نرى هل تستطيع كليوباترة أن تحقق رسالتها في إعادة المجد الغابر والعظمة التي كانت لهذه الدولة على أيام بطلبيوس فيلادلفوس ويورجتيس الأول في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

عرب الاسكندرية بين قبحر والشعب السكندري

على أن موقف هذا الحامي الروماني لعرش كليوباترة ما لبث أن أصبح محفوفاً بالمخاطر ، ففي أثناء مقامه في القصر الملكي ، خطأً بسلالة بطليموس أوليتيس وهم أربعة ، اتخذ من كبراهم محظية له . وعندئذ عمدت الأخت الصغرى ، أرسينوى ، إما بدافع الغيرة من سلطان أختها كليوباترة ، وإما بتحريض من پوثينوس ، مربى الملك ورائده ، إلى الفرار مع خصيها المسمى جانيميديس ،

ولحقته بالجيش المراتب في الفرما حيث نودي بها ملكة على البلاد المصرية^(١). وعلى الرغم من أنها كانت تبلغ إذ ذاك سبعة عشر عاماً ، فإنها أصرت على الاشتراك في تولى قيادة الجيش مع أخيلاس ، ثم ما لبثت أن عذرت به ودبرت قتله ، وانفردت بتولى القيادة ، ونصبت خصيها على رأس القوات المحاربة ، فضاغف من أعطيات الجند وهباتهم ، أملاً في كسب رضاهم ، ولكن قسوته جرت عليه كراهيتهم ، وسرعان ما ضاق الجند ذرعاً بما كان يبدو على ملكتهم الشابة من تقلب الأهواء ، وفي العبارة اللاتينية التالية إشارة صريحة إلى ما كان يساور جموع الجند من ضيق بتلك الملكة الشابة (multitudinem confectam taedio puellae) فبعثوا إلى قيصر يطلبون إليه إعادة ملكهم . وكان قيصر قد احتفظ به في القصر ليكون تحت تصرفه وقد استجاب قيصر لمطلبهم ، وسمح للملك الشاب بأن يلحق بهم بعد أن زوده بالنصح والإرشاد . وسواء أكان قيصر قد اتخذ هذا الإجراء بدافع الطيبة (bonitas) وحب الخير ، أم أن هناك دوافع أخرى فإن تصرف قيصر ينم عن حصافة وبعده نظر ، وينطوى على حركة بارعة ، إذ كان يأمل أن يشتد التنافس بينه وبين أخته الصغرى أرسينى . وبذلك تخف حدة القوة الضاربة لدى العدو . وقد أشار إلى هذه الواقعة مؤلف كتاب حرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) المنسوب إلى هرتيوس (فصل ٢٤) ، فقال إن بطليموس بعد أن ذرف دموع التماسيح ملحاً في الرجاء بأن يسمح له بالبقاء في صحبة قيصر ، وثب لتوه بعد إطلاق صراحه متنكراً لتلك الدموع ، ومضى يشن حرباً شعواء ضد الرومان بعد أن أقصى أخته أرسينوى وخصيها جانيميديس عن قيادة الجيش . فأخذ يُشدّد الحصار على الإسكندرية ، وقاسى قيصر الشيء الكثير من جراء هذا الحصار وتعرض لأشد الأخطار ، فسدت القناة الرئيسية التي تمتد الإسكندرية بمياه الشرب من النيل ، وحولت المياه الملحة إلى الأفرع التي تأخذ من هذه القناة وتمتد السكان بالمياه ، ولكن

(1) Cassius Dio. XLII, 39; Caesar, Bellum Civile III, 112.

قيصر كان أوسع حيلة فلم يتسرب اليأس إلى قلبه ، وأمر على الفور بأن تحفر آبار بجوار شاطئ البحر ، علماً منه بأن القاعدة العلوية تقضى بأن مياه عذبة لا بد متفجرة من هذه الآبار المخفورة بالقرب من الشاطئ ، وقضى رجال قيصر الليل كله في حفر هذه الآبار التي انبثقت منها على الفور مياه عذبة (١) . ثم أخذ يقيم المتاريس في شوارع الإسكندرية الضيقة ، وعمد إلى اتخاذ موقف دفاعي إلى أن تصله الإمدادات الأولى من آسيا عبر الشام ، وقوامها عند من ناقلات الجند والفرقة السابعة بعد الثلاثين ، وعندئذ اتخذ موقفاً هجومياً . وقد أظهر قيصر ضروباً كثيرة من سعة الحيلة وإحكام الخطة والمهبة العسكرية ، فغامر ذات مرة بحياته ، غير آبه بها وعام البحر مسافة تبلغ مائتي ياردة ، وكان العدو يفتني أثره ، ووقعت عباءته العسكرية في أيدي خصومه . وقد أنقذ موقف الرومان وصول إمدادات أخرى بمقادير كافية في ربيع سنة ٤٧ ق . م ، وكانت هذه تتألف من أهالي آسيا الصغرى وسوريا بالاشتراك مع ثلاثة آلاف من اليهود يقودهم ميثريدايس البرغامي . واستولى هذا الجمع على القرما عنة ، وتقدم صوب ممفيس دون أي عائق ثم سار بحذاء الفرع الغربي للدلتا ميمماً شطر الإسكندرية ، فكان وصول هذه القوات إلى مشارف المدينة إيذاناً بتغير موقف الجانبين المتقاتلين وقلب خططهما رأساً على عقب . وقد عوّل بطليموس وهو على رأس جيشه على الإسراع للملاقاة هذا الجيش الزاحف والإلتحام به قبل أن يتصل بقيصر ، ولكن هذا التدبير أفسده قيصر بأن رسا ليلاً على الشاطئ غربي الإسكندرية ، وتابع مسيره وزحفه إلى أن التقى بميثريدايس في الوقت المناسب ، وانقض الجانبان على المعسكر المصري ، ففر

(١) حرب الإسكندرية ، الفصلان ٦ ، ٨ ؛ يقدم لنا هذا النص اللاتيني بيئة من طراز فريد فيصور لنا حالة الإسكندرية ومبانيها وشوارعها ومساقبها وأن المدينة كانت بمأمن من أخطار الحريق لاستخدام الملاط والأحجار والمقود المسقوفة وتجنب الأخشاب . والوصف على روعته وجديته وما يتصف به من أصالة ، يمتاز بأنه يحكي لنا حالة المدينة وما كان يمتاز به أهلها من ذكاء وجبوية وقدرة فائقة على الانتكار ، ومع كل هذا فقد لازمها الحظ المائر في حربها ضد يوليوس قيصر الذي هزمها رغم ضعف موارده الحربية وقلة اللواذ الغذائية وقطع موارد المياه العذبة من النيل عنه ، وبذلك وطد مركز كابوبائرة وأمن جانبها .

المصريون إلى سفنهم الراسية في النيل يحتمون فيها ، واكتظت أعدادهم ، واختل توازنهم ، وغرق الكثيرون منهم ، وقد أبلى بطليموس بلاءاً حسناً ، ولكنه غرق في النيل ، وانتشلت جثته وجرى عرض درعه الذهبي على شعب الإسكندرية ليكون شاهداً حسيّاً على وفاة الملك . وعندئذ أسبغ قيصر مُلك البلاد على الأخ الأصغر ، وله من العمر إذ ذاك أحد عشر عاماً ، بالاشتراك مع كليوباترة فحكما بوصفهما الإلهين المحبين لأبيهما^(١) . وقد حافظت كليوباترة في هذه المرحلة الدقيقة من الحرب على ولائها لقيصر وبقيت في رعايته ، أما أرسينوى فقد بعث بها قيصر إلى روما باعتبارها أسيرة لعرضها في موكب نصره ، كما أن في إبعادها إزالة سبب من أسباب قيام الإضطرابات من أجل توليها العرش ، وتأمين ظهر كليوباترة ، وضمان سواد السلم والطمأنينة في هذه البلاد التي أصبحت بالنسبة له أئمن من أن يسمح بتعرضها للأخطار مرة أخرى ، وأبقى ثلاث فرق رومانية تحت إمرة جندي قدير هوروفينوس (Rufinus) لتحمي عرش كليوباترة . وما كانت هذه لتخشى شيئاً بعد أن تخلصت من الثالوث المؤلف من پوثينوس وثيودوتس وآخيلاس بالقتل ومن بطليموس بفرقه ومن أختها أرسينوى بإبعادها إلى روما لتلقى حتفها هناك إثر عرضها في موكب نصر قيصر ، وهي مكبلة في السلاسل والأغلال . وطالما كانت كليوباترة تحظى بتأييد أعظم الرومان شأناً في عصره فلا خوف عليها . وكانت كليوباترة إذ ذاك (يناير سنة ٤٧) تحمل جنيناً من قيصر ، وركبت في صحنه سفينة فخمة (ذهبية) إلى أعلى النيل بقصد الزهرة والترويح عن النفس بعدما ألمّ بها من جهد وعناء . وقد بالغت في الاحتفاء بقيصر وتكريمه ، وإظهار معالم العظمة والفخامة التي اشتهر بها البلاط السكندري ، فكانت هذه « الذهبية » مثلاً رائعاً على حب البطالمة في إقامة المنشآت الضخمة [فطولها ثلثمائة قدم وعرضها خمسة وأربعون قدماً وارتفاعها ستون قدماً] . وقد أتبح لقيصر أن يجوب البلاد في هذا الفلك المشحون ، وأن يشاهد معالمها ويتفقد

(١) حرب الإسكندرية ، الفصلان ٣١ و ٣٣ .

أحوالها، ويتعرف على معالم الجهاز الإدارى البيروقراطى السائد فيها، وقد نسق على الطراز الهيلينستى منذ عصر فيلادلفوس فأصبح مضرب الأمثال فى الإبداع والاتقان . وإنه لما استرعى النظر أن الكتاب القدماء كفوا عن تزويدنا بالتفاصيل عن مبلغ ما لقيه قيصر من حفاوة فى أثناء تبحر والة فى أرجاء مصر عقب انتهاء حرب الإسكندرية ، مع أنه لما جاء ذكر حَفَلات المرح التى أسهم فيها ماركوس أنطونيوس مع كليوباترة فيما بعد ، بالغوا وأسهبوا فى وصفهم دون أن يقفوا عند حد . ولعل مرجع هذا التباين الغريب فى الحالين من حيث التصور فى الناحية الأولى ، والإفاضة إلى حد الإغراق فى الناحية الثانية ، هو إيماء من اكتافيوس ، باعتباره وريث قيصر وريثه ، فكان يرى أن فى العلاقة بين أبيه بالتبني وبين كليوباترة التى أصبحت خصماً للدوداء له ، ما يشينه ويسىء إليه إذ أن ابنها من قيصر يعتبر وصمة عار فى جبينه ، ولذلك كان حريصاً كل الحرص على أن يحو من أذهان معاصريه بقدر المستطاع ذكرى هذه العلاقة المشينة ، حتى ينساها الناس أو يتناسوها فتبقى فى خلفية الصورة الماثلة فى الأذهان .

وإن رحيل قيصر من مصر ، ومراحل خطواته التالية لم يكن تأريخها فى شيء كثير من الدقة ، فاتخذ سبيله عن طريق الشام إلى آسيا الصغرى حيث التحم فى زيلابينتوش فى ربيع ٤٧ ق . م بالملك فارناكيس وأنزل به هزيمة منكرة فى أقل من أربع ساعات ، وقد بعث إلى روما نبأ هذا النصر الباهر فى عبارة لاتينية مشهورة هذا نصها (Veni, vidi, vici) وترجمتها « حضرت فرأيت فانتصرت ، وقد جرت مثلاً بين الناس على مبلغ الإعتداد بالنفس . وكان هذا النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات التى أنزلها بأنصار يمي وأذناؤه فى أفريقيا وإسبانيا ، وسوف نرى فى رخصم هذه الأحداث هل يصبح لقائهم بكليوباترة فى الإسكندرية مجرد حلقة براقعة عابرة فى سلسلة انتصارات هذا القائد العظيم ؟ أم أنه سيمضى فى طريقه معها إلى النهاية

لا يرعوى ولا يأبه بالتأنيح، فيخص الملكة بمنزلة رفيعة في برناجه، ويضفي عليها من مراتب التكريم أعلى منزلة.

ومرة أخرى كان القدر كريماً مع كليوباترة فوثق العلاقة بينها وبين قيصر بأن ولدت له ابناً في صيف عام ٤٧ ق.م، وقيل إن هذا الابن كان شديد الشبه بأبيه من حيث الخلقة وإنه كان يمشى مشيته عندما شب وكبر^(١). ومن البين من العبارة الواردة في الفصل التاسع بعد الأربعين من حياة قيصر لبلوتارخوس أن قيصر كان قد رحل إلى سوريا قبل أن تضع كليوباترة هذا الطفل الذي أسماه السكندريون قيصرين، أو قيصر الصغير (Caesarion)، تيمناً باسم أبيه. وقد اكتشفت حياة هذا الابن الكثير من الصعاب نظراً لأن المستقبل الذي كان يُعد له، كان مخالفاً لغيره من أمراء أسرة البطالمة. إنه كان يُربى على أنه وريث قيصر الذي أصبح بعد موت ابنته «يوليا» من غير عقب. ونظراً لما كان يؤهل له هذا القيصر الصغير من دور خطير، ولما كان ينتظر أن يقوم به في المسرحية السياسية المرتقبة، وما حل به من مصير أليم لقيه في مستقبل حياته بقتله، فإنه لا عجب أنه حتى في العالم القديم انبرى بعض الأطراف المعنيون بهذا الأمر، ومنهم أكتافيوس وريث قيصر بالتبني، وأخذوا يشككون الناس في مبنوة قيصرين، ويشيرون الغبار حول صحة مولده، ويتساءلون هل كان قيصر والده حقاً؟ واستناداً إلى بعض العبارات المشوبة بكثير من الغموض مما ورد في خطابات شيشرون لصديقه أتيكوس بشأن الملكة كليوباترة ومقامها في روما نحو سنتين من صيف ٤٦ ق.م إلى ربيع ٤٤ ق.م وما كانت تظهره من كبرياء وخطاسة، فإن العالم الفرنسي كاركوينو (Carcopino) انبرى لتناول علاقة قيصر بكليوباترة، فقسا عليها في مقاله الذي نشره بإحدى المجلات العلمية^(٢) فأرّخ بالفعل مولد قيصرين في أبريل

(1) Suetonius, Caesar 52; Plutarch, Caesar XLIX.

(2) Carcopino, César et Cléopâtre, Études d'Archéologie Romaine, 1937, pp. 37—78.

من عام ٤٤٠ على أبكر الفروض ، أى عقب موت قيصر ، ثم أضنى نفسه في التخريج والاستنباط للبرهنة على استحالة أن يكون قيصر هو والد هذا الطفل على أساس حساب تقريبي عن وجود قيصر في روما ، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن قيصرون ولد في حياة قيصر ؛ وشاهدنا على ذلك أن أنطونيوس قرر فيما بعد في مجلس الشيوخ الروماني أن قيصر اعترف ببنة هذا الطفل . وهذا التصريح من جانب أنطونيوس يدل ، على أقل تقدير ، على أن الطفل ولد في حياة قيصر . هذا فضلا عن أن إقامة الملكة في قصر قيصر على ضفاف التiber وفي ضيافته بالذات ، وسماحه بإقامة تمثال لها من الذهب في معبد ثينوس جينثريكس ، جدة العشيرة اليوليوية ، ينفي هذه التهمة المخرضة . وفي تصرفات قيصر إزاء الملكة ، وما رددته شيشرون من شائعات بأن الملكة حامل من قيصر مرة أخرى ، ثم ما اتخذته كليوباترة من مراسم دينية ونقوش رسمية على المعابد ، كل هذا ينهض دليلا على صحة نسب قيصرون ، ثم إن ابتهاج الملكة وإعلانها على الملأ هذا النبأ السعيد له دلالة ، فصوّرت ابنها في هيئة حورس إلى جوار أمه إيزيس وهما يُعبدان ، ثم ظهرت عملة ، سكّت في قبرص ، وقد نقشّت عليها صورة كليوباترة وهي مرتدية شارات أفروديتي - إيزيس وتقوم بإرضاع ابنها قيصرون ، وبذلك أسبغت على مولد هذا الطفل طابعاً رسمياً له شأنه . على أن الكُنية أو اللقب القيصري الذي اختارته له أمه له مغزاه . وما لم يكن قيصر هو والده حقاً فإن هذه التسمية تصبح غير مستساغة ، وغير مفهومة على الإطلاق ، ولا يعقل أن يسمح قيصر بأن يُنسب إليه ابن شخص آخر غير معروف ، ولا يتسق هذا مع ما نعرفه من دعوة قيصر للملكة في صيف عام ٤٦ ق. م بأن تحضر إلى روما وفي صحبتها ابنها بالطبع .

مقام كليوباترة في روما

(من صيف ٤٦ ق م — أبريل سنة ٤٤ ق م . ١)

بناءً على دعوة من قيصر لحقت كليوباترة به في روما في صيف عام ٤٦ ،
وفي صحبتها ابنها الرضيع قيصر ، وأخوها الصغير وزوجها الملك بطليموس
الرابع عشر . ومن المحتمل أن مولد ابن كليوباترة هو الذي قرر مصير هذا
الملك الصغير الذي مات أو لقي حتفه مسموماً ، إما في روما أو بالاسكندرية
عقب عودة الملكة بقليل بعد مقتل قيصر . وقد اتخذت الملكة مقامها في قصر
القيصر محاط بالجدائق الغناء على ضفاف التير وحرصت على الاحتفاظ
ببلاط وحاشية فيه ، ووفدت عليها أهم الشخصيات وأخذت تتردد على
قصرها ، وشاركت هي في رسم الخطط العالمية الجارية ، وأتيحت لها فرصة
الاطلاع على ما كان يجري من أحداث في روما وفي خارجها ، بل إن دورها
في توجيه السياسة الرومانية العالمية كان ملحوظاً ، ويدها كانت المحركة من
وراء ستار لدقة الشئون . ذلك كله يمكن استنباطه من مجرى الحوادث ،
وإن لم تقم عليه أدلة قاطعة . وعلى ذلك انبرى بعض المؤرخين والكتاب ،
وتناولوا تلك الحقبة القصيرة وهي فترة مقامها في روما بالتحليل والتفصيل ،
وأخذوا ينقبون عن البواعث الكمينية والمشاعر الدفينة التي كانت وراء هذه
الزيارة في نفس كل من قيصر وكليوباترة ، بل عن سر هذا المقام الطويل بين
الظرفي الرومان الذين أخذوا يتساملون عما إذا كانت السياسة هي الدافع
الأول له ، أم أن دواعي الحب ولواعج الغرام وغصة الفراق هي التي دفعت
قيصر لتوجيه هذه الدعوة لكليوباترة ، غير عابئين بمشاعر الرومان ومتحدياً
لهم بإسكانها في قصره .

ونظراً لما لهذه الفترة من أهمية وما صاحبها من تطورات ألية ، انتهت
بفاجعة اغتيال قيصر نفسه في منتصف مارس سنة ٤٤ ق م ، فإنه يرُوق
المؤرخ أن يتلبس الأسباب ويناقش الشواهد والأدلة التي قامت في حقبة

تستحق منا بعض التحليل . وما لا ريب فيه أن الملكة شعرت بحرج شديد عقب اغتيال قيصر فعجلت بالرحيل من روما للتخلص من هذا الحرج ، وعملت على تأمين وصولها إلى مصر خشية أن تتطور الأمور إلى أسوأ في جو مشحون بالتكهنات في روما ، وقد رد السكاتب والخطيب شيشرون بعض الأصدقاء من هذا الجو فيما كان يبعث به من رسائل إلى صديقه أتيكوس ، يدت فيها مشاعره ، ويعبر عن آرائه ، وينفث دعاية مسمومة ضد الملكة في غير حرج . وإنما الحقبة حاسمة من حياة كل من يوليوس قيصر وكليوباترة مع أنها لا تعدو السنتين (من سبتمبر «يولييه» سنة ٤٦ - أبريل سنة ٤٤) . وعلى نحو ما قيل كانت الملكة فيها لا تكف عن إسداء النصائح والتحذير لقيصر بما كان يدبر له في الخفاء ، وما كان يحاك ضده من دسائس ومؤامرات ، واستطاعت في خلال هذه الفترة أن تشهد عياناً وعن كثب الأحداث الجارية ، واتصلت بالأشخاص المقربين لهذا الرجل العظيم في السنتين الأخيرتين من حياته ، وشهدت حفل النصر الذي أقامه هذا القائد المظفر ، والموكب العظيم الذي سارت فيه أختها الصغرى أرسينوى وملوك آخرون وهم مكبلون في السلاسل والأغلال وأعلن به قيصر على الملأ أنه أنهى حرباً أهلية أضنت روما وكادت تزلزل كيائها . وفوق ذلك فإن مقامها أتاح لها الوقوف على أسرار الخطة الطموحة التي كان هذا السياسي يبغي أن يستبدل بها النظام التقليدي لحكومة الجمهورية الرومانية ، وإحلال نظام آخر محله ، يكون من صنع يده هو ومن تديره . ولربما كان هذا الذي يفكر فيه قد اقتبسه بما شاهده أو سمعه عن الملكية المصرية الهيلينستية ذات الطابع البيروقراطي ، على اعتبار أن هذا النظام مجرب في مصر ، وأثبتت التجربة صلاحيته في وادي النيل . وفي آخر المطاف شهدت الملكة في روما الحدث الأليم المفجع الذي حل بهذا البطل في ١٥ مارس سنة ٤٤ ق.م في أحد أهبام مجلس الشيوخ الروماني عندما مزقت أحشاه ، وهو في عنفوان قوته ، خناجر المتآمرين ، وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس ، ونجم عن ذلك إشاعة الفوضى في العالم الروماني من جديد ، وتزعزع مركز كليوباترة مرة أخرى .

وهنا قد يتساءل المرء عما يمكن أن يكون هناك من علاقة بين كل هذه الأحداث ، وبين مقام كليوباترة في روما ، وهل كان لذلك المقام أثر مباشر على تتابع الحوادث والتعجيل بوقوعها ، وما هو الدور الذي كان قيصر يزمع تخصيصه للملكة في برنامج ومشروعه نحو عالم جديد ، وهل كان الحب الخالص أم السياسة ودواعيها هي الحافز على دعوة الملكة للحضور إلى روما على هذه الصورة الغريبة ؟ - تلك وأشباهها أسئلة عميقة لا سبيل إلى سبب غورها ، والتعرف على كنهها . وقد اختلف المؤرخون في معالجتها ، فمنهم من نحأحوأ فيه تطرف ومغالاة ، فأنكر تماماً وجود أى أثر للشاعر الشخصية لدى قيصر ، مؤكداً أنه لم يقيم أى وزن إلا للعوامل السياسية البحتة ، فكان من رأيهم أن دعوة قيصر لكليوباترة لتقيم في روما ، كان رائدها أن تكون تحت سمعه وبصره في روما ، بل تحت رقابته وأنه كان يريد أن يؤمن ظهره عندما يحين حين ذهابه إلى الشرق لتحقيق مشروع طالما دأب حله وهو إخضاع الفرس . وهؤلاء يبررون ظنهم هذا بأن كليوباترة باعتبارها امرأة لم تعد بالنسبة له ذات أهمية خاصة ، لما عرف عن قيصر بعد ذلك من أنه كانت له صلات ومغامرات مع نساء أخريات ، فمن زوجة « بوجود » ملك ماوريتانيا (مراکش) في أثناء حملة قيصر الأسبانية سنة ٤٦ / سنة ٤٦ ق.م ثم يعضون في التدليل على وجهة نظرهم ، بأن مهام كثيرة للدولة وأعباءها كانت تقع على كاهل قيصر باعتباره قائداً وسياسياً وهذه كانت تستلزم في أحيان كثيرة تغيبه عن روما ، وبالتالي بعده عن كليوباترة مدى فترات طويلة ، ففي نوفمبر سنة ٤٦ ق.م كان في طريقه إلى أسبانيا ولم يعد إلى روما إلا في سبتمبر سنة ٤٦ ق.م وعلى ذلك فإن زيارة كليوباترة إلى روما « لو صح » أن الهدف منها كان لتحقيق أغراض ومآرب شخصية بحثة لدى قيصر ، فإن الوقت الذي اختير لها لم يكن موقفاً ولا سعيداً .

على أن مثل هذه الاعتبارات وأشباهها من الأقاويل التي ليست بذات أهمية ، لا يجب أن تصرفنا عن أخذ بعض الحقائق في الاعتبار عند تقدير ما كان لمقام كليوباترة في روما من أهمية ، والنظر إليه في ضوءه الصحيح . وإذا

قَصَرنا البحث في هذه الزيارة على وجهة النظر الخاصة بالتعرف على مدى صواب هذا العمل ، وعما إذا كانت دواعي الحكمة السياسية هي التي أملت به . فإن هذه الزيارة ، بما أثارته من نقدٍ شديد ضد قيصر ، لم يكن أمرها مفهوماً ولا مستساغاً ؛ ولكننا عندما نتصور قيصر على أنه أصبح سيد العالم أجمع ، وقد اختمرت في ذهنه في سنى حياته الأخيرة صورة جديدة لنظام الحكم ، وساورته أفكار عن الملكية الهيلينستية الإلهية ، فعندئذ فقط ندرك مدى التداخل والتشابك الغريب بين لواجع الحب وعوامل السياسة وأن هذه كلها حفزت به كما يتخذ هذه الخطوة الجريئة .

وإن منظر كليوباترة وفي صحبتها زوجها الصغير ثم إنها قيصرون وقد أحاط بهم رهطٌ ضخمٌ من الأغوات والأتباع وبطانته من رجال السياسة والقلم ، قد أثار الرومان ، وأخذوا يتساءلون على مضى الزمان عن مغزى كل ذلك . وبما زاد في شكوك الناس أن الملكة قد اختارت أن تعيش في روما عيشة الملكات الحقة ، مما كان له أثر قوى في نفوس الرومان الذين ألفوا مشاهدة الملوك الأجانب ، وأمراء الشرق وهم يقيمون بين ظهرانيهم لفترات ، وكان بطليموس أوليتيس نفسه والد كليوباترة ، أحد هؤلاء ولكن زيارة كليوباترة كانت ذات طابع فريد ، وحظيَّتْ باهتمام خاص . وعندما احتفى قيصر في سبتمبر (يولييه) سنة ٤٦ على نحو باهر بما كسبه من فتوح في بلاد الغال ومصر ، وما حققه من انتصارات على فارناكيس وجوبا ، ملك ماوريتانيا ، تجدد بذلك الاهتمام الذي كان قد أثير في نفوس الناس ، بقيام حرب الإسكندرية ، وما صاحبها من مغامرات . وإن عرض تمثال إله النيل ، وصورة الفنان المقام في فاروس ، ومنظر الأميرة أرسينوى المنكودة الحظ وهي تسير في موكب النصر ، وما أثارته في نفوس النظارة من أسى — كل ذلك بعث الهواجس في قلوب الرومان . وأخذ الجند يبلِّحون في أغانيهم الفجعة إلى أن الملكة قد أوقعت قائدهم في شباك غرامها ، وأصبح اسمها وحديثها تلوكة الألسن وتندر الناس . بما كانت تعيش فيه من بذخ غريب ، وساعدهم قيصر في تثبيت ظنونهم هذه .

حتى لم يترك مجالاً لاي شك فيما يتعلق بمنزلة كليوباترة من نفسه ، وما تعنيه بالنسبة له ، بما أسبغه عليها من ألقاب ، فأصبحت صديقة الشعب الروماني وحليفته ، وبذلك تم إقرار تصرفاته في الاسكندرية ، وما اتخذته من قرارات بشأن مستقبلها ، وأسدل الستار ياسباغ صفة دستورية على مركز الملكة التي أصبحت تتمتع بحقوقها كاملة ، وتشغل المركز والمنصب الذي تعب والدها في شرائه بالأموال ، وباراقة الكثير من ماء الوجه . ومن الأمور التي كان لها مغزى خاص أن قيصر أولاهها تكريماً وتشريفاً لذاتها عند احتفائه بالنصر الذي كسبه ، وتكريسه سوقاً عرفت باسمه (Forum Julium) أقام في وسط ساحتها معبداً لفينوس جنيتريكس ، ربة الأسرة اليوليوية ، وعلى مقربة من تمثال هذه الالهة أقام تمثالا ذهبياً لكليوباترة . وقد تضمن هذا مغزى أبعد من مجرد تحية شخصية أراد أن يسديها لامرأة تتعلق بها ، وإنما كان عملاً أملت فيه حكمة سياسية ودينية ، وهو من نوع الأعمال المألوفة في مصر والممالك الهيلينستية بوجه عام ، حيث كان الحكام والملوك يؤهلون . ولكن في نظر الرومان كان السماح بإقامة تمثال للملكة أجنبية (regina) في معبد فينوس بالذات أمراً بغيضاً ، وفيه تحدي لشعورهم ، ونذير بوقوع الكثير من مخاوفهم ووساوسهم .

وليس هناك من سبيل إلى التكهن بما كان يطمع فيه قيصر ويهدف إلى تحقيقه وهل كان يروم تحقيق المأسكئية ، ولكن الشكوك كانت تحوم حوله في هذا النطاق ، ولساندرى على سبيل اليقين مبلغ تأثير كليوباترة عليه في هذا الصدد . ولكن الأمر الذي لا ريب فيه أنها باعتبارها رمزاً يمثل الملكية الهيلينستية كانت في أغلب الظن عوناً له على السير في هذا السبيل ، بدلا من أن تكون عائقاً له عن التردى في هذه الهاوية . وإنه لمن العسير علينا التكهن بنوايا شخص من طراز قيصر ، مع ما عرف عنه من سعة الخيلة ، ورغبة الصدر واتساع الأفق ، والجزم على سبيل اليقين بما يمكن أن توقظه فترة إقامته في مصر من مشاعر ، وبخاصة أننا نعرف أن الثقافة الهيلينستية كانت قد غزت

على أى حال — منذ أهدٍ طويل — المجتمع الرومانى وأصبحت مهيمنة على عقول الطبقات الحاكمة والعناصر المستنيرة فى روما . ونظراً لأن قيصر كان ضليعاً فى علوم الفلك والرياضة ، فإنه عُنى فى أثناء مقامه فى الإسكندرية بموضوع التقويم وحسابه متأثراً فى ذلك بعالم سكندرى يسمى سوسيجينيس ، كان يشتغل بالرياضيات . وكان من ثمار ذلك التقويم اليوليوس المشهور الذى ابتدعه قيصر فى أول يناير سنة ٤٥ ق.م ، ولهذا الإصلاح التقويمى مصادره وأصوله المصرية ، كما أن ألقاب التكريم التى أُسبغت على هذا الدكتاتور يمكن بوجه عام تتبع أصولها فى العرف الهيلينستى والتقليد الذى جرى عليه .

وتمادى الناس فى غلواتهم وأخذت الشائعات تنسب إليه أعمالاً وأقوالاً تلمس الناس فيها نوايا ومآرب أخرى ، فقبل فيما بعد إنه كان من المنفق عليه عقب رحيل قيصر ليلحق بجيشه أن يتقدم أحد نقيباء العامة وترابنتهم (Tribuni) واسمه هلفيوس سينّا (Helvius Cinna) بلائحة خطيرة للعرض على مجلس العامة الرومانى ، يسمح بمقتضاها لقيصر عقد زيجات أخرى شرعية من أجل ضمان نسل وذرية له ، وذلك نظراً لأن زواجه من كالپورنيا لم يُسفر عن عقب له ، وبالطبع كان هذا التشريع المرتقب لصالح كليوباترة ، إذ يُتيح لها الفرصة كما تصحح وضعها مع قيصر بعقد الزواج عليه حتى يصبح لابنه منها منزلة شرعية ويكون وريثاً له ، أو قد تنجب له الملكة ابناً آخر . وهناك شائعة أخرى قالت بأن قيصر كان ينوى نقل مقره من روما إلى الإسكندرية أو إلى تروادة .

وفى مستهل عام ٤٤ تأزم الموقف السياسى بدرجته ملحوظة على أثر العثور فى الكتب السبيلينية المقدسة على نبوءة تتفق مع مآرب قيصر ، وتلائم مطامعه الخاصة وتقول بأن الحرب ضد الفرس والبارثيين (Parthians) يمكن أن تكمل بالنجاح إذا كان على رأس الجيش الرومانى الذى يخوضها ملك . وفى ضوء هذه النبوءة صيغ اقتراح يخول لقيصر أن يلقب نفسه ملكاً فى أى وقت بشرط أن يكون هذا فى خارج إيطاليا ، وكان مقرراً أن يعرض هذا الاقتراح على السناتو الرومانى فى ١٥ مارس ، ولكن خناجر الجمهوريين

خلّصت العالم الروماني من أطماعه في نفس هذا اليوم فخر صريعاً ، وبذلك خلق للسلطة مركزاً حرجاً ودقيقاً للغاية وجعل مقامها في روما محفوفاً بالمخاطر فعجلت بالرحيل والفرار (fuga reginae) على حد قول شيشرون في إحدى رسائله ، وعادت إلى مصر سالمة ، ترقب بعين الحذر ما تتمخض عنه الأحداث في روما وفي خارجها . وبذلك طويت على هذا النحو الفجائي صفحة من حياتها كانت حافلة وملينة بالآمال العريضة .

الفصل الثالث

كليوباترة وأنطونيوس

يرتبط الشق الأخير من حياة كليوباترة ارتباطاً وثيقاً بحياة بطل روماني آخر هو ماركوس أنطونيوس ، ولطول مدته والطابع العالمي في أحداثه طغى هذا الشق على سابقه ، وحظى بنصيب أكبر من الدراسة والتفصيل . وتعددت مواقف التلاقي والتوافق بين مصلحة هذين البطلين حتى بات من العسير أن نعرض لأحدهما دون الآخر . وإن من يتصدى لتأريخ هذه الحقبة من حياة كل منهما وتبويب صفحاتها الخالدة ليلقى بعض العناء والمشقة في تبين كنه الحقيقة سافرة ، نظراً لما شاب تلك الحياة من تدخل بين العوامل السياسية والعسكرية والعاطفية . فالجانب العاطفي في حياة أنطونيوس أصبح بارزاً بصورة كانت مضرب الأمثال في روعتها وبهائها حتى أصبح هذا الجانب من حياته وعلاقته بكليوباترة يحظى بشهرة أعظم من الجانبين السياسي والعسكري وإن كان أقلها أهمية . ولعل السبب في ذلك أن أضواء ساطعة سلطت على مدى أجيال طويلة على هذه الناحية فضخمت الأخطاء ، وبالغت في الأعمال والآهواء التي كانت تصدر عن هذا البطل ونفخ في بوق دعاية سيئة مغرضة ، قصد بها تشويه سمعته في نظر الرومان ، حتى تعذر أو كاد يصبح من المتعذر أن تتجلى الحقيقة مجردة عن الغرض أو الهوى وغالية من التهويل والمبالغة . أما بالنسبة للملكة كليوباترة فإنه أصبح من المتعذر كذلك أن نفرق بين الجانب السياسي والجانب العاطفي في حياتها ، فتداخلت شخصيتها كملكة قابضة على ناصية الحكم مُحِبَّة للسيطرة ، في حياتها بوصفها امرأة بجياشة النفس بالعواطف ، وسطّست هذه في بعض الأحيان على الجانب السياسي وتغلبت عليه حتى ضاعت معالمه ، وأصبحت علاقاتها مع أنطونيوس بارزة وتحتل مركز الصدارة في مقدمة الصورة الباقية في سجل التاريخ .



ماركوس أنطونيوس

تفيض بوصف ما كان يجرى من صخب في الحفلات والموائد والندوات. وما كان ينظم من استقبالات ومهرجانات ، فضاعت معالم الأشياء وسط كل ذلك وتعذر استخلاص الحقيقة ، لأن الكثيرين من الأوربيين جروا على منهاج تقليدى ، توخوا فيه المبالغة في إبراز الجانب العاطفى ، وحرص نفر منهم على إشباع غيظه ونفث سمومه وحقده على كليوباترة ، باعتبارها امرأة شرقة تطلعت إلى السيطرة على روما ، وعملت على إذلال أبناء تلك الدولة. ومن واجب الإنصاف ألا تنساق وراء هذا النفر في غلوئه هذا ، وإنما نقند المعلومات والإشارات الواردة على ألسنة الشعراء والأدباء والكتاب قبل موقعتى أكتيوم ونيكوبولس أى قبل انتحارها ، ثم ما قيل عنها بعد ذلك في العصر الأغسطى وما تلاه من عصور ، فنرفض قبول كل ما ورد على ألسنة هؤلاء ، وما كانوا فيه متأثرين بالهوى وتوجيه رجال السياسة والقائمين على الحكم في صدر عصر الإمبراطورية الرومانية ، فأغلب هذا صادر عن بغض وهوى ورغبة المنتصر في تسوية سمعة المهزوم ، وإخفاء معالم الحقيقة في طيات الدعاية المغرضة. والأمر الذى لا ريب فيه أن حياة كليوباترة ، والمراحل الأولى من علاقتها بأنطونيوس ، وموقفها منه كبطل روماني ، ثم تطور هذه العلاقة إلى زواج رسمى ، ووقوفها معاً جبهة واحدة على رأس بلاد الشرق ضد روما وقوتها المتكثلة في الغرب — ليست كلها مليئة بالهوى والحب الصارخ ، يتمثل فيه اندفاع المحبين الذين يتردون في الهاوية ، ويعميهم جهنم عن رؤية الحقيقة مجردة ، ويسوقهم إلى تنكب السبيل القويم.

على أنه توجد في حياة أنطونيوس وكليوباترة مادة دسمة من المعلومات والتصرفات ، فهذه الحياة المشتركة وحدها تمثل في مجموعها ملحة قائمة بذاتها ، وتصور تراجيدية رائعة انتهت بمأساة خالدة. وبقي علينا الآن أن نستخلص بعض جوانب هذه الحياة ، ونقند عناصر هذه المأساة ، محاولين أن نميز بين الغث والسمين فيها ، وخاصة أنها كما قلنا متداخلة الأحداث.

والمشاعر ، بعضها في بعض إلى درجة التعقيد الشديد ، وأصبحت بعض جوانب هذه الحياة في سيرة كل منهما مكسوة بأغلفة سميكة ، ومحاطة بالأسرار ، في حين أن البعض الآخر قد افترض أمره . وهناك أكثر من سر دفين في هذه الملحمة المزدوجة ، حمّله كل من البطلين معه إلى قبره ، ومن ذلك سر فرارهما من ساحة القتال في أكتيوم على رأس الأسطول المصري وعودتهما إلى الإسكندرية ، وسر الوصية التي قيل إن أنطونيوس كتبها موصياً بأن يدفن في الإسكندرية ، وافترض هذا السر على يد أكتافوس ، وضاع صوت أنطونيوس في سبيل الدفاع عن نفسه وسط الضجة التي أقامها أكتافوس في العالم الغربي ، وهناك سر انتحار كليوباترة بعد أن خابت آمالها ونواياها في أن تجنب نفسها عار السير في موكب أكتافوس في شوارع روما على نحو ما فعلت أختها أرسينوى من قبل في موكب يوليوس قيصر ، وفي أن تكون الإسكندرية عاصمة العالم الجديد - كل هذا وغيره من الأسرار الدفينة التي حيرت العالم ، قد حملها البطلان إلى قبريهما . وإن كل الشواهد لتدل على أن مصرية كليوباترة وشعبيتها كانت قوية ، وأن روحها القومية كانت عالية أنزلتها من نفسها فوق كل اعتبار وأن هذه الملكة كانت تلقى تأييداً شاملاً من العناصر المصرية التي وقفت إلى جانبها ، وأيدتها في السراء والضراء ، فثارت لثورتها ، وعضدتها في محنتها^(١) . وليس هنا مجال الدفاع عن مسلكها والتصدى لتبرير كل ما فعلته أو الاعتذار عنه (apologia) وإنما يفرض علينا واجب الإنصاف ألا نقسو في الحكم عليها كما لا نبالغ في حرق بخور المدح لها ، وإنما نقف موقفاً يتسم بالحكمة والروية والإنصاف .

وفي حياة كليوباترة إزاء أنطونيوس مواقف حاسمة ، استبقت بمركز دقيق أوقعها فيه اغتيال يوليوس قيصر وموته على هذا النحو المفجأ وكان

(١) ومن الشواهد على ذلك ما ذكره العالم ول. وستمان في مقال عنوانه « البطالة وجهودهم في العمل على تحسين أحوال رعاياهم » وهو منشور سنة ١٩٣٨ بالانجليزية في مجلة أعمال مؤتمر البردي الخامس الذي عقد في أكسفورد سنة ١٩٣٧ . وأيد هذا الرأي العالم سير مدرس بل في كتابه عن « الهيلينية في مصر » آخر الفصل الثاني ترجمه ركن على .

ذلك يستلزم منها أن تشد أزر كل من أنطونيوس وأكتافيوس ، وهما اللذان حملا وحدهما لواء الحرب ، وعقب الانتقام لقيصر من قتلته فقادا الجيوش ضد الجمهوريين ، وانتصرا عليهم في سنة ٤٣ في معركة فيليبياى ييلاد اليونان. وعقب الانتصار في هذه المعركة تشتت قوى بروتس وكاسيوس ، واتفق أكتافيوس وأنطونيوس على أن يختص أولهما بحكم الغرب ، ويترك لثانيهما التصرف في شئون الشرق. واهتمت كليوباترة بالنكوص على أعقابها والتردد والتقاعد عن تقديم العون والمساعدة في هذه المعركة الإنتقامية ، مما استوجب دعوتها للشول أمام أنطونيوس وهو في إفسوس بآسيا الصغرى لتجيب عما يوجه إليها من اتهام . وكان لقاءهما في تارسوس (طرسوس) بآسيا الصغرى على صورة مسرحية رائعة. ففتح هذا المجال على مصراعية للروائيين والمؤرخين على السواء ، لما في ذلك اللقاء الذى بدأت به فترة العشق والغرام من مادة روائية تصدى لمعالجتها الكتاب الروائيون . على أن هناك مادة تاريخية وعوامل إنسانية يجد فيها مؤرخو هذا العصر الدوافع البشرية وهى تتصارع .

واستمرت هذه الفترة من ٤٢ حتى ٣٦ ق . م ، تخللتها أوقات كان يقع فيها فتر في العلاقات ، بل فراق وإعراض كان يمتد إلى سنوات وتنقطع أسباب المودة والاتصال ويشغل فيها أنطونيوس بحملات كان يشنها على الفرس وأرمينيا ، مؤملا تحقيق البرنامج العسكرى الذى تركه قيصر ، واضطلع به من بعده باعتباره الخليفة الطبيعى له وسيد فرسانه (Magister Equitum) ولكن التوفيق لم يكتب له في مآربه هذه . وفي صدر هذه الفترة قضى أنطونيوس بعض الوقت في الاسكندرية مع كليوباترة في فصل الشتاء بقصد الاستجمام ، ولربما أعدا خلافا خطة مستقبلهما ، كما تلقن فيها من كليوباترة دروساً عملية في السياسة إلى جانب العشق والغرام ، فالتقت مصالحهما ، واتفقت مآربهما ، فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن أن بمصر معيناً منها لا ينضب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها ، وتحقيق أغراضها ومطامعها السياسية . ولربما لم يجعل

بخطاها في ذلك الحين مد سلطانها وسيطرتها إلى روما ، والعمل على إذلالها . وقد تأثرت حياتها بما كان يظهره أنطونيوس من مواقف البطولة وما كان يلقاه من هزائم . وعلى ذلك كان للجانب العسكري في حياة هذا البطل صدهاء وانعكاساته على كليوباترة ؛ فما لبث هذا القائد العظيم بعد أن ذهب إلى الشرق الذي آل إليه حكمه واعتبر منطقة نفوذ له ، وأخذ يجمع الأموال ، ويشتط في فرضها على سكان آسيا الصغرى ، ويعد العدة للحملة المرتقبة على فارس — وكان الرومان قد علقوا الآمال الكبار على قيادته وبطولته — أن توالى عليه الهزائم في الشرق ، وفشل أكثر من مرة في كسب النصر . فضاعت منزلته ، في أعين الرومان ، وأخذ ينحاز نحو الشرق أكثر من ذي قبل ، وأفسحت له كليوباترة الطريق وأمدته بما كان يلزمه من أموال ومؤون ومضت شوطاً بعيداً في نصرته . وإن زواجه من كليوباترة وإعلانه ذلك في سنة ٣٦ أو ما بعد ذلك بقليل (سنة ٣٣ — ٣٢ ق.م) وتحديه زميله وشريكه في حكم العالم الروماني بطلاناً لا كتابياً ، أخت هذا الزميل ليمثل نقطة تحول ظاهر وخطير في حياة هذا الرجل ، بل وفي حياة كليوباترة نفسها ، فتوثقت الصلات بينهما وارتبطت مصالحهما ووحدت الزوجية بين مآربهما ، وأصبحت مصلحة مصر لها المقام الأول في تفكيرهما .

وبقي أن نعرض لتفاصيل هذه الأحداث في شيء من الإسهاب لتبين مراحل تطور العلاقات ونفند ما يساق من أقوال ، ظاهر فيها التلوين والتوجيه .

ماركوس أنطونيوس وحكومة الشرق :

وفي دراسة حياة كليوباترة وماركوس أنطونيوس ، وعلاقة الأخير بالشرق عامة ، وبسوريا ومصر خاصة ، لابد لنا من التعرض لحكم الوالي الروماني المسمى جابينيوس (Gabinius) على سوريا عام ٥٧ ق.م وذلك لأن مدة ولاية هذا الحاكم تعتبر على جانب عظيم من الأهمية في تاريخ حياة أنطونيوس ، وبالتالي في تاريخ حياة كليوباترة ، فقد كان الأخير قائداً للقوة الفرسان

عندما زار سوريا وواجهته مشاكلاً التي قدّر أن يتصل تاريخها بالجزء الأخير من حياته أشد اتصالاً ، وأن تلعب دوراً هاماً يقرر مصيره النهائي .

ولما عُيِّن جايينوس حاكماً على ولاية سوريا مُنح السلطة في أن يجمع الجيوش ، ويجند الجند لكي يكون على استعداد لخوض غمار الحرب إذا لزم الأمر ، وشاءت المقادير أن تسوق له - وهو في طريقه إلى البلاد التي عُيِّن عليها - ماركوس أنطونيوس الذي كان في ذلك الوقت في بلاد الإغريق يتمرن على الألعاب الحربية ، ويتدرب على أساليب الخطابة ليكون بعيداً عن روما والمشاكل التي كان يخلقها له أعداؤه وخصومه فيها ، فالتحق بخدمة جايينوس ، وصحبه إلى الشام . ولقد هيأت له هذه الفرصة التي أتت له في الشام من الظروف ما يمكنه من أن يدرس بنفسه ، وعن كثب ، تلك المشاكل الكبرى التي استعصى حلها على كبار المفكرين من الرومان ، وكانت الشغل الشاغل أمام روما في الشرق ، ومن أهمها المسألة المصرية ، كما أنه تعلم على يد جايينوس ما كان يجب على الحاكم الروماني في الشرق تعلمه ، وعرف منه كيف تعالج مثل هذه المشاكل . وزيادة على ذلك ، فقد رأى بعيني رأسه العمل الإنشائي الذي يقوم به حكام الولايات الرومانية ، فاستفاد من كل هذه التجارب والمعلومات التي جمعها في الشرق أثناء حكم جايينوس أيما استفادة ، حتى إنه عندما آل إليه حكم الشرق ، بعد مقتل يوليوس قيصر بقليل ، وتعلق به مستقبل مصر وملكها ، كان على معرفة تامة بشئون الشرق وبلاده ، فاستطاع أن يجول في ذلك الميدان ويصول .

كانت المسألة المصرية من أعظم المسائل السياسية أهمية في روما إذ ذاك وكانت تتخذها الأحزاب السياسية بروما ضمن برنامجها ، وتعبيرها من الاعتبار ما تستحقه ، واستمرت هذه المسألة تستهوي الأحزاب السياسية وتجد لها أعواناً كثيرين في روما مدة من الزمان إلى أن سوّيت نهائياً على يد أكتافيوس سنة ٣٠ ق.م ، بضم مصر إلى حظيرة الدولة الرومانية فأصبحت جزءاً مهماً بل وحيوياً في كيان هذه الإمبراطورية الرومانية

المترامية الأطراف (Imperium Romanum) والتي كان أغسطس أول
إمبراطور عليها.

ارتبط أنطونيوس بالشرق ، وحرص على أن يكون من نصيبه في
الاتفاق الذى أبرمه مع زميله أكتافىوس وليدوس عقب الانتصار الذى
تم لهم في موقعة فيليبى في شهر أكتوبر عام ٤٣ ق.م. على قسطة قيصر، والحزب
الجمهورى، وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس، وكانوا قد جمعوا قواتهم في
مقدونيا، فكانت فيليبى هذه آخر معقل لقسطة قيصر، ولكن سوء الحظ
لازمهم فهزموا هزيمة منكرة، ودفعوا حياتهم ثمناً غالياً لجرمتهم الشنعاء.
وهكذا تغلب الحكم الثلاثة على أكبر خطر جسيم، كان يهددهم في حياتهم،
وذلك بهزيمة أعدائهم، ولكنهم ما نقضوا أيديهم من الحرب حتى واجهتهم
مشكلة تحفها المخاطر من جميع الجوانب، وتكتنفها الأزمات، من كل ناحية.
فقد كان العالم كله بعد أن وقع في فوضى واضطراب رديحاً من الزمن عقب مصرع
قيصر يتطلب السلام العاجل، والانصراف للإصلاح والتنظيم، وكان الحكم
الثلاثة صغر الأيدي، وخزائنتهم خاوية من الأموال والجندي يطالبون بمؤخرات
رواتبهم، وهذا خلق مشكلتين منفصلتين تماماً كان لا بد لهم من حلها حلاً
مرضياً، فكان عليهم تهدئة الحالة في الغرب، وإعطاء الجند شيئاً من
مؤخرات رواتبهم. أما الشرق فكان لابد من إعادة تنظيمه، والانصراف
لمعالجة مشاكه على وجه السرعة، أما المشكلة الثانية فهي حاجة الحكم
الثلاثة الشديدة، لمكافأة جنودهم وفي هذا بقاء لكيانهم وحفظ لقوانينهم.
وكان أنطونيوس في التقسيم الذى تم بعد موقعة فيليبى، الشريك القوى الذى
تمكن من أن يُملى إرادته على شريكه في تقسيم المسئولية بينهما، فاحتفظ.
وهو الظاهر في فيليبى بنصيب الأسد من الغنيمة، وبالجزم الذى ينتظر أن
يدر عليه خيراً كثيراً، ويسكفل له مستقبلاً أعظم من مستقبل زميله،
وبينما كان الشرق أغنى أجزاء الدولة الرومانية، وكانت مهمة تسوية مشاكه
أمراً يجلب ربحاً كبيراً يملأ خزائن حكاه الدولة الخالية، إذا بمطالب الجند

من الجانب الآخر وإفلاس الثلاثة مصدر خطر جعل مهمة تسوية مشاكل الغرب أمراً محفوفاً بالمخاطر لما يتطلبه هذا الموقف ، من مصادرة أملاك الرومان في إيطاليا لإشباع نهم الجند ، وإجابتهم إلى طلبهم . ولا بد أن كان لهذه الاعتبارات - كلها أو بعضها - قيمتها في اختيار أنطونيوس للشرق ميداناً له للعمل ، وتركه المشا كل الخطيرة بالغرب لزميله أكتافيوس الذي كان أضعف منه صحة ، وأقل منه خبرة وحسكة .

ويجب هنا ألا نسلم بما ادعاه بعض المؤرخين الحديثين ، الذين غلوا كل المغالاة فبعدوا عن الحقيقة بعداً كبيراً ، جعلهم ينسبون إلى أنطونيوس دوافع نافهة كانت العامل الأكبر في اختياره الشرق ، فاتهموه بأنه كان يريد أن يشبع شهواته ، وأن يجري وراء لذاته التي بالغوا كل المبالغة في وصفها . ويظهر أنه لا بد أن كانت هناك اعتبارات أخرى جدية كانت العامل المرجح في تصرفه ، وتفضيله الشرق عن الغرب . ولقد كان الرومان في ذلك العصر يعتبرون الشرق آمناً درة في أملاك الدولة الرومانية ، وبه من المدن والحواضر ما لا يدخل تحت حصر ، ولو أن هذه كلها لم تكن في الحقيقة مدناً بالمعنى الذي نفهمه ، بل قرى متواضعة ذات مجالس خاصة بها ؛ ولو قرأنا ما كتبه شيشرون عن غنى وثروة آسيا الصغرى لظهر لنا جلياً أن الشرق كان يمد روما بأكثر وأضخم دخل تعتمد عليه في أعز شيء لديها ، وتدين له بحياتها ، ثم أشار مؤرخ إيطالي يدعى فريرو (Ferrero) إلى هذا البؤس الشاسع بين حال القسمين بقوله « كانت أملاك الدولة الرومانية بأوروبا فقيرة حقاً ، ويقل السكان بها ولم تكن على جانب كبير من المدنية والرقى إذا قورنت بالشرق العظيم الشاسع الزاخر بالثروة والذي تقدمت به المدنية لدرجة عظيمة ، فقامت به مدن صناعية كثيرة ، وأسواق تجارية نافعة وطرق عظيمة ومراكز عليية شهيرة ، وأراض زراعية خصبة . » وفضلاً عن ذلك فلم يقتصر الأمر على أن الشرق إذ ذاك كان أغنى من الغرب ، وأكثر سكاناً منه ، ولكنه كان أقدم وأعرق منه في المدنية . ولقد أخذ

بنصيب وافر من مدنية اليونان بعد غزو الإسكندر، واصطليح بصيغة هيلينية، وشاع بين أرجائه استخدام لغة الكويني، وهي اللهجة اليونانية المتداولة في آسيا الصغرى والشام ومصر والجزر. وهذا كله جعله جذاباً بدرجة كبيرة، فأخذ بلب الروماني الذي تعود أن يعيش عيشة خشنة في بلاده. وعلى ذلك يجب ألا يغيب عن أذهانتنا أن الشرق كان حقاً مطمح أنظار ذلك الجيل الروماني، ومحط خياله وهيامه، ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن أنطونيوس كان يعتبر نفسه خليفة قيصر، ويرى أنه كان لازماً عليه أن يقوم بتنفيذ مشروع الحملة الفارسية العظيمة، فلا بد أن يكون قد جال بخاطره إخراج ذلك المشروع إلى حيز التنفيذ بعد تنظيم أمور الشرق، ومعالجة مشاكله - كل هذه الاعتبارات كان لها قيمتها بلاريب في تفكير أنطونيوس عند اقتسامه العالم الروماني مع شريكه، وعند تفضيله الشرق على الغرب.

وبعد اتفاقية فيليباي ذهب أنطونيوس ميمماً نحو الشرق فوصل إلى بلاد اليونان، وكان يحضر الألعاب ويشترك في المناقشات والمحاورات الأدبية بين العلماء والفلاسفة واشترك كذلك في بعض الحفلات الدينية وكان يسره أن يُشار إليه بأنه «محب لليونان»، و«نصير وصديق للآثينيين»، وقد علّل المؤرخ بلوتارخوس هذا المسلك من جانب أنطونيوس بأنه كان ينطوي على حبه للهو واللعب ولكننا نحجب ألا نسلم بصحة ذلك الدافع، إذ لا بد أن يكون هناك سبب أقوى من ذلك، حدّاه إلى الاندفاع في ذلك السبيل، وهو أن أنطونيوس رأى مقدار أهمية مثل هذه الخطوات في التأثير في الرأي العام في المدن اليونانية بآسيا الصغرى، التي لم تكن تنظر بعين ملؤها السرور والإرتياح إلى أي حكومة تتدخل في شئونها الداخلية، وتعبث بحرياتها المكفولة؛ وهذا الإمتعاض من جانب المدن اليونانية في آسيا الصغرى يخلق مشاكلاً خطيرة لأي حكومة أوحا كم يسلك هذا المسلك. وفي ضوء هذا يجب أن نفهم السر في إقامة أنطونيوس في بلاد اليونان، واشترأك في حفلاتهم الدينية البهجة، وأن نفسر ذلك لالحبه للهو والسرور

ولأنما هي السياسة الحكيمة ، والحكمة القوية ، وتلك الحكمة هي اعتراف العالم اليوناني خاصة والشرق عامة به محباً غيوراً على مصالح اليونان ، وبذا يتأثر الرأي العام في أرجاء الشرق ، وينتصر له ، وهذا مكسب عظيم قدر أن يكون له فائدته الجُلى بالنسبة له ولكليوباترة عند تطور الحوادث فيها بعد ذلك بقليل .

وفي أوائل فصل الربيع عبر أنطونيوس البحر ميمماً نحو آسيا . وإنه لمن المحتمل أن يكون أنطونيوس قد رسا على مدينة إفسوس التي كانت العاصمة والمقر الرسمي للحاكم الروماني في آسيا الصغرى ، وكانت كل السواقي تشير إلى دخول الحكم إلى آسيا عن طريق ميناء إفسوس . وبعد أن قدم أنطونيوس القرابين والذبائح الكثيرة لإلهة المدينة المسماة أرتميس ، وعفا عن معظم الذين لجئوا إلى معبدها ، أمر بدعوة جميع اليونانيين وملوك آسيا الصغرى التابعين لروما للإجتماع به في إفسوس ، فهرولوا كلهم مسرعين ، وخرجوا بين قدميه ساجدين ، ورفعوه إلى مرتبة آلهتهم ، وخرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم فرحين مستبشرين ، كل قد اتخذ شعاره الذي يلبسه عند تقدمه لإلهته ، فالنساء مرتديات ملابس أتباع الإله « باكوس » ومثلهم الرجال والأولاد . في زى أشخاص خرافيين للقاء أنطونيوس العظيم ، فكان الناظر يرى الرماح بارزة في أنحاء المدينة قاصيها ودانيها ، وقد غطيت أطرافها بشجرة اللبلاب ، ويسمع الأهليين في الطرقات يوقعون على الحُود والمزامير والقيثارة إجلالاً لأنطونيوس الذي كان لديهم بمثابة الإله باكوس . إله الفرح والسرور وإله الرقة والإحساس الجميل . وفي هذه الجوع الزاخرة خطب أنطونيوس خطبة عامة سياسية ، تناول فيها أموراً شتى ، وكشف عن حاجته وحاجة زميليه : أكتافيوس وليپيدوس ، الماسة إلى المال لمكافأة الجنود الذين اشتبكوا في موقعة فيليبيا ، وأكد لهم أنه لن يطلب منهم أكثر مما ابتزوه منهم بروتس وكاسيوس ، أعنى ضريبة عشر سنين ، تجبي في ستة واحدة ، ولكن لما توسل إليه السامعون ، وطلبوا إليه الرأفة بهم ، وخاصة أن قتلة

قيصر قد أوصاؤهم إلى درجة من الفاقة والفقر قد بلغت حد المسغبة ، آثاروا رحمة وعطفه بعد جهد جاهد فقيل أن يُنْقِصَ الإتاوة إلى ضريبة تسع سنين ، وأمهلهم في دفعها سنتين . وهنا تنور في الإنسان عوامل الاستغراب والدهشة ، إذ كيف استطاع أولئك الذين نصب مَعِينَهُمْ لِمَا ابْتَزَهُ مِنْهُمْ بروتس وكاسيوس ، ولم يتركاهم إلا وهم على شفا جُرف هار ، يكاد يفترسهم الفقير وتودى بهم الفاقة ، أن يحييوا طلبات ذلك الطاغية المتعسف الغليظ القلب ، الذي لم تعرف الرحمة إلى قلبه طريقاً ، ولم تنفذ إليه توسلات القوم وتضرعاتهم ، فأصر على طلباته ، ولم ينزل إلا عن قليل منها لاسمن ولا يفتي من جوع — ولقد تقدم أنطونيوس في آسيا الصغرى يلقاه الملوك والمماليك ، مقدمين له العطايا والهبات ، راجين أن تشفع لهم هذه عنده . وكان يحيط به جمع من المَغْنِينِ واللاعِبِينَ فكانت حاشيته أشبه بحفل من أتباع الإله باكوس ، إله الخمر والطرب والسرور ، منها بحاشية حاكم روماني . ولقد أشار المؤرخ بلوتارخوس إلى ذلك بقوله « إن الحال بلغت درجة لا يحتمل معها الصبر ، ولا يستطيع الإنسان السكوت عليها ، إذ كانت تبعثر الأموال والثروات في أتفه الأمور مع ما كان عليه الأهلون من فقر مدقع ، وكانت كل آسيا الصغرى أشبه بشيء بالمدينة التي وصفها الشاعر سوفوكليس في شعره ، « قد ملأ البخور السماء ، وتردد في الجو صدح الغناء ، وكان بجواره نوحُ البكاء »^(١) . وإن المؤرخين الحديثين يبنون على مأساقه بلوتارخوس عن أنطونيوس في استقباله في إفسوس ، حكمهم بأنه كان رجل شهوات ، لاهمه إلا الإنغماس في الملاذ ، والاجترار من مناهلها . ولكن نظرة فاحصة إلى ماجاء في بلوتارخوس نفسه على ألسنة المطربين والغواني والطهارة الذين كانوا في حاشيته تكشف لنا من وراء تلك الأغشية اللاهية عن صورة واضحة لحطة سياسية وإدارية كان يسعى جهد نفسه في سبيل تنفيذها . وإن ذلك الاستقبال العظيم ، الذي تجلى فيه خضوع الاسيويين

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٤ .

ظائعين مختارين ، تودداً لأنطونيوس إذ صار لهم الخاكم العتيد ، كان أمراً طبعياً ، خصوصاً في بلاد الشرق حيث تنعّود الناس ، في كثير من العصور ، أن يصل بهم الاحترام لسيد البلاد إلى درجة تقرب من العبادة ، ولذا كان الخاكم دائماً موضع إجلالهم واحترامهم ، يسبغون عليه من عبارات التجلية والتقدّيس ما يصل في كثير من الأحوال إلى حد التأليه .

وبمجرد انتهائهم أنطونيوس من عمله في إفسوس بدأ يطوف في الأقاليم التي كانت تحت حكمه ، ولقد دوّن لنا المؤرخ أيان^(١) بياناً دقيقاً عن الأماكن التي اشتملت عليها رحلته ، فذكر فريجيا وميسيا وجالاشيا وكبادوشيا وسيليشيا وسوريا الحالية أو فلسطين وأضاف المؤرخ اليهودي يوسفوس إلى هذه البلاد كيتشينا بآسيا الصغرى . ولقد كان أنطونيوس في هذه الرحلة يأمر بإصلاح المباني العامة ، وبيضاء الطرق والحصون ، وفض الخلافات الحزبية بين المتنافسين على العروش . وتوجد بالآصول والآسانيد التاريخية إشارات قليلة إلى أعمال أنطونيوس القضائية في الشرق ، ويشير بلوتارخوس^(٢) إلى أن هذه القرارات القضائية كانت عادلة وحكيمة . وبما ذكره بلوتارخوس في هذا المقام أنه عند وصول كليوباترة إلى طرسوس بآسيا الصغرى ، كان أنطونيوس جالساً على منصة بسوق المدينة يقضى بين الناس ، ويوزع العدل بين المتقاضين . وفي مكان آخر من بلوتارخوس يقول إنه بينما كان يوزع العدل بين الناس ، الذين أنوا يحتكمون إليه ، جاءه كتاب من كليوباترة قد كتب على عقب .

ولسنا هنا بمحاولين الدفاع عن مسلك أنطونيوس الشخصي ، عن قصد وتعمت من أنفسنا ، راغبين في تبييض صحيفته الشخصية أو متعمدين أن نحرق له بخور المدح والثناء ، فنحيد عن جادة الصواب . بل إننا نجد من الإنصاف له أن ننظر إليه بمنظار غير ذلك المنظار الأسود القاتم الذي نظر به إليه من سبقونا

(١) أيان ، ٥ ، ٧ .

(٢) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٣ .

من مؤرخيه، متأثرين بالدعاية السيئة التي شنها عليه أكتافوس أغسطس فيما بعد، ويكفي أن تلقى نظرة عاجلة على سياسته العامة في الشرق إلى وقت قيامه بحملته على الفرس، وقبل أن يتورط في علاقته بكليوباترة، وتتخذ أداة لتنفيذ مآزها، وتحقيق برنامجها، لنجد أن سياسته كانت تطابق لدرجة كبيرة سياسة أغلب الحكام الرومان الذين سبقوه؛ وكانت هذه السياسة تدور حول تأسيس حكومة قوية تشد أزره، وتكون متكأة قوية له في زحفه شرقاً على الفرس. وكانت مصر وعلى رأسها كليوباترة ضمن برنامج هذا كسند له في الاعتماد على مواردها ودعائم الحكم في وادي النيل. وعلى هذا النحو كانت فرص النجاح أمامه قوية، وأمله أدنى إلى التحقيق لو أنه تأتى وصبر ولم يتورط في استباق حوادث الزمان. إن أنطونيوس كان يعوزه الصبر اللازم للقيام بعمل دقيق وصعب، كذلك الذي بدأه ولم يوفق لإتمامه على أكمل وجه. فبينما نجده مغرماً بالمشروعات الخيالية، التي تسترعى أنظار الناس، وتستهوئ أفئدتهم، وتثير الدهشة في نفوسهم، نجده تنقصه العزيمة والجد الدائم والصبر الطويل، الذي يحتاج إليه تنفيذ هذه المشروعات، قد استهوته الخطوات الأولى من برنامج قيصر في الشرق، وأقدم على تنظيم عظيم لأملاك روما في الشرق ووضع إدارتها على أساس متين، كما تكون مركزاً قوى للدعائم ثابت الأركان يعتمد عليه في إمداده بالخيرة والمال في أثناء قيامه بحملته على الفرس، ولذا بدأ أنطونيوس أعمال التنظيم وتوزيع الممالك على الأمراء الموالين له، وكان يقضى الساعات الطوال يستمع إلى ما يحمله رسلهم. ومضى في سبيله لا يقف في طريقه شيء ولا تكأده عقبة، ففرض الضرائب واشتط في جبايتها، وسوى الخلاف بين الأمراء والملوك في الشرق، وكان عمله يبشر بنجاح عظيم ويرجى منه الخير الكبير لو صمد له وثابر عليه. ولكنه كان يعوزه - كما قلنا آنفاً - الصبر والمقدرة على متابعة عمله هذا، ووضع الأساس المتين لبناء شائع شاهق كان يطمح في تشييده. وزاد الطين بلة أن كليوباترة عندما اعترضت طريقه، غلب على أمره إذعوان عليها وعلى مصر

ومواردها، فكان لها في حسابه وخططه المقام الأول، وعتّلت مصر بدورها عليه في تحقيق آمالها ، ووجدت فيه الملكة أداة طيعة لتنفيذ أطامعها، ولكنه أثبت أنه مُخيب لكل هذه الآمال العريضة .

أنطونيوس والسأتة المصرية ولفاؤه بكليوباترة :

ولم تكن مصر ممثلة بين الملوك التابعين لروما الذين سارعوا بالحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة لأنطونيوس في إفسوس . وليس من اليسير علينا الآن تعرف الأسباب التي من أجلها تغيّبت كليوباترة، ولقد تمّيز أنطونيوس غيظاً لتغيّبها . وصم على أن يدعوها للشول بين يديه لتجيب عما يوجه إليها من تهم ، وهى: تقديمها المساعدة للبوتمرين بقيصر وقاتليه ، وعدم إرسال مساعدة للذين اقتصوا من هؤلاء القتلة ، مع أنها تدين لقيصر بعرشها على مصر وأنجبت منه ابناً هو قيصر ورون الذى كان يحط آمالها . وقد وكل أنطونيوس إلى ديلوس القيام بمهمة إحضارها ، وإنه لمن الممكن أن نصدق الرواية التى يسوقها بلوتارخوس وهى أن ديلوس هذا أكد لها تحسن نيات سيده ، وأسرها إليها أن تذهب إلى سيليشيا على الطريقة الهومرية «فى أحسن زى لها»^(١). وكانت كليوباترة على جانب عظيم من الفتنة والجاذبية الشخصية . ولقد صممت آخر الأمر على تلبية نداءه فأعدت الهبات والزينات ، وجمعت من الأموال ما يليق بمملكة غنية كمصر ، وكانت تعرف من قبل ميله الغرامى إليها، ولا بد أن تكون قد عرفت الشيء الكثير عن أخلاقه من قيصر ، وعرفت فيه الآن حاكما مطلقاً فى الشرق ، وكان أعظم شخصية فى الدولة الرومانية ، يتسابق فى خطب وده الملوك والأمراء ، لأنهم يرون فيه الحاكم فى المستقبل على جميع الدولة الرومانية. وفوق ذلك كان معروفاً بقوة البنية ، واعتدال القامة، ولذلك صممت كليوباترة على أن تكسبه نفسها، وبنت تحقيق مطامعها، وأمانى أسرتها، وإخراجها إلى حيز الوجود على مساعدته ؛ ولكنها مع تصميمها على

(١) أن تلبس أحسن حلة لديها كما فعلت هيرا فى ملحمة الإلياذة وهى ذاهبة لقاء زيوس

على جبل « ليدا » .

الذهاب إليه ، ورغبتها في كسبه إليها ، أظهرت إهمال دعوته التي وجهها إليها وتجاهلت الكتب التي وصلتها من أصدقائه تستعجل مقدها ، وفي آخر الأمر حملت في جبعها لأنطونيوس من الهدايا والكنوز ما يتناسب وسمعة البلاد المصرية من الغنى ، وسافرت إلى طرسوس من أعمال سيليشيا أوقيانية بآسيا الصغرى . وهنا تقتطف من بلوتارخوس وصف رحلة كليوباترة فقد قال ^(١) .

وركبت الفلك المشحون بهداياها ، فأخذ يبحر بها عباب الماء ، يلح في الجو مؤخره الذهبي ، وقد ارتفعت شراعه إلى أعنان السماء ، وبجاذيفه الفضية تهتز في صفحة الماء وفقاً لأصوات الأراغيل والمزامير والقيثارات ، والمللحة متكئة على وسائدها ، قد ضربت عليها قبة منسوجة من خيوط ذهبية ، تحاكي في زيتها وروائها إلهة الجمال فينوس ، يطوف بها ولدان بهيو الطلعة ، بهيجو المنظر ، يشبهون رسل إلهة الجمال ويروحون عليها أحياناً بمراوح حريرية قد تماسكت أجزاءها بخيوط من ذهب . والجوارى من حولها غاديات رائحات ، يحكين في منظرهن عرائس البحار ، بعضهن يمسكن بسكّاتهن ، والآخرات يتجاذبن أرسانهن ، وأريج العطر يفعم الأنوف ، ونشره قد ملأ الجو ، فانبعث ذلك إلى الشاطئين ، فجاءت الجموع الذائخة تهرع إليه ، فوجدت فوق ذلك متعة السمع والبصر ، وقد اختلب ذلك المنظر قلوب بعضهم فساير السفينة في مجراها ، بينما البعض الآخر جاء مسرعاً ليقبس بنظرة قبسة من ذلك الجمال الذي احتوته جارية في اليم . حتى لقد ترك الناس سوق المدينة قاعاً صفصفاً وانفضوا من حول أنطونيوس ، وكان قد جلس لإقامة العدل بينهم ، ليشبعوا نظرهم من فينوس ، إلهة الجمال التي هبطت إليهم من السماء في صورة كليوباترة الحسنة ، التي استضافها باكوس إله الفرح والسرور — كل ذلك من أجل خير آسيا العام .

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٦ .

ولقد نجحت حيلة كليوباترة ، إذ أن أنطونيوس بدلاً من أن يطلبها للشول بين يديه ، لتجيب عما يوجه إليها من تهم ، اضطر أن يرسل إليها لتناول معه طعام العشاء . وكان جوابها على ذلك أن دعتة إلى مائدتها ، مينة له أن الأجدر برجولته أن يجيب هو دعوتها ، وهنا ترك الكلام للشاعر الانجليزي شكسبير الذي لخص الموقف . أحسن تلخيص فقال على لسان أهينو باربوس (Enobarbus) « إن أنطونيوس الذي عرف بالمحافظة على اللياقة والمجاملة ، ولم يجر على لسانه أن قال لامرأه « لا ، زين نفسك وأحكم هندامه ، وخرج إلى الوليمة بزينة فرأى ما بهر نظره ، وأصاب شفاف قلبه ، ثم جلس إلى مائدتها ، وقد أسلم إليها أعز ما يملك الإنسان ، وقد خلد لنا سقراط الرودى وصف هذه الوليمة التي أقامتها كليوباترة في كتابه الثالث من الحرب الأهلية ، ونقلها عنه آثينا يوس في كتابه الرابع من موائد الحكماء^(١) فقال : إن جميع أدوات الوليمة الملكية التي أقيمت تكريماً لأنطونيوس كانت من الذهب الخالص ، والآنية مرصعة بالجواهر أقتنىها أيدي صناع مهرة ، وكانت الجدران مغطاة بستائر من الدمقس والحرير المزركش ، وقد علقت عليها قطع مصنوعة من الأرجوان والخيوط الذهبية ، لتكون بهجة للناظرين . ولقد دعت كليوباترة أنطونيوس وصحبه المخلصين لهذه الوليمة ، فبهروا كلهم بجمال وغنى هذه المعروضات ، ولما انتهت هذه الحفلة ألحت عليه هو وحاشيته أن يعودوا للعشاء معها في اليوم التالي ، وكانت الوليمة الثانية أنغر من الأولى ، حتى إن الآنية التي استعملت في الوليمة الأولى ضوّلت بجوار مثيلاتها التي استعملت في المرة الثانية . وعند انتهاء الحفلة أهدت إليهم وإلى غيرهم من حضروا ، الأسيرة والتارقي التي جلسوا عليها ، والآنية التي وضعت أمامهم . أما كبار المدعوين فلقد قدمت إليهم الخيل المطهمة ، وأرسلت أمامهم العبيد والأحباش يحملون المشاعل . وفي اليوم التالي احتفل أنطونيوس باستقبالها ، وبذل جهداً جاهداً كبد فيه مدينة طرسوس من النفقات ما لم تقو عليه ، رغبة منه في أن تولم وليمة تسامى ، في

الآية والعظمة، الوليتين السابقتين اللتين أقامتهما كليوباترة له، ولكن اليون الشاسع بين المحاولتين كان ظاهراً للعيان، فوليمته تعد مشربة بالخشونة والسذاجة إذا قرنت بسابقتها؛ ولم يتأخر هو نفسه عن أن يكون أول من يعترف بقصوره وعجزه، ويسخر من محاولته.

إلى هنا ينتهى حديثنا عن المقابلات الأولى، ومنها نرى أنها لم تكن سوى مجاملات يتبادل الدعوة إلى الطعام والمباهاة بتعدد ألوانه، وأن تكون أدواته مظهراً للترف والفنى والبذخ، ولنتنقل بعد ذلك إلى الحديث عن معاملة كليوباترة لأنطونيوس التي كانت تختلف عن معاملتها لقيصر، لاختلاف الرجلين فى النشأة والمشرّب، فكانت ملاحظات أنطونيوس وسخريته ونوع تهكمه من نوع ما يصدر عن الجند، وليست بما هو خليق بالندماء وجلساء الملوك والملكات الذين تشف أحاديثهم ونوادهم عن براعة وصقولة فى اللفظ لاتدانيها براعة، ولقد أدركت كليوباترة بمهارة فائقة مدى الفارق، وتنزلت إلى المستوى الذى كان عليه أنطونيوس، فأكسبتها هذه المقدرة شهرة طبقت الآفاق، واستحقت بجدارة اللقب الذى أسبغها عليها مؤرخو الإفرنج «محظية الملوك»، لأنها بذت جميع النساء فى المهارة فى معاملة الرجال. ولقد نجحت كليوباترة فى خطتها، وتبدلت الحال إذ «صار أنطونيوس» كما يقول المؤرخ ديوكاسيوس «نصيرها والمدافع عنها، يذب عنها التهم، مع أنه كان يريد أن يوقفها موقف الاتهام، ويقف منها موقف الحكم»، ولكن المؤرخ أبيان^(١) يخالفه فى ذلك، ويؤكد أن أنطونيوس لامها فى الواقع على عدم اشتراكها فى الانتقام لقيصر من قتلته، وأتسبها على عدم اعتذارها، ولكنها دافعت عن نفسها بقولها إنه كان فى عزمها أن تقدم المساعدة، وأنها بالفعل أرسلت أربعة فرق بقيادة دولابلا (Dolabella) وأنها هى شخصياً لم تعر كلام كاسيوس — وهو أحد القتلة — أدنى اهتمام، ولم تلب طلبه، وأنها بدأت وأبحرت على رأس أسطولها، الذى عصفت به العواصف.

وحطمته الزوج ، فاضطرت إلى العودة إلى الإسكندرية حيث أصابها المرض ، ولازمها حتى عقد لواء النصر النهائي لهم على قتلة قيصر ^(١) .

ويظن بعض المؤرخين أن أنطونيوس عفا عنها انتظاراً لمساعدتها ، التي منته بها في حربه المستقبلية مع الفرس ، ولكن المؤرخ أبيان اتفق مع جميع المؤرخين الأقدمين في قوله إن أنطونيوس شده لذكائها الفذ ، وجمالها الفتان فأصبح أسيرها الذي أخذ على نفسه أن يقوم بكل ما تأمره به ملكته ، بدون اعتبار لجميع القوانين ، سواء أكانت وضعية أم سماوية ، فأمر بأختها المسماة أرسينوى (Arsinoe) التي كانت تعتبر حياتها خطراً على عرش كليوباترة في مصر أن تقتل مع أنها كانت معتصمة بمعبد الإلهة أرتميس (Artemis) في إفسوس ، كما أمر بقتل مدّعى عرش مصر يسمى بطليموس الرابع عشر ، كان قد ظهر في فينيقيا — ولقد تخلصت كليوباترة من هذين من غير ما جلبة . وإن قتل أرسينوى قد سود صحيفة كليوباترة أبد الدهر ودنس شهرتها ، ويميل المؤرخون إلى أن يتخذوا من قتلها لأختها تكأة للطعن في أخلاقها ، فيسوقونه مثلاً حياً لقسوتها وحبها للانتقام ، ولكن لا يصح أن ننظر إلى الملكة بهذا المنظار القاتم ، ونصب عليها جام غضبنا ، ويكفى للتخفيف من شناعة ذلك الجرم أن نذكر في حكمتنا عليها ، أنه كانت العادة عند البطالة رجالاً ونساءً على السواء — ألا يجعلوا للرحمة أى سبيل في معاملة ذوى قرباهم ، خصوصاً من كان يُعد من هؤلاء خطراً دائماً وسلاحاً مشهوراً يهدد عروشهم ، ولقد شاع قتل الملوك ذوى قرباهم ، بل أبناءهم عند اللزوم ، حتى لقد سرى عليهم المثل المشهور « الملوك عقيم » .

ولم تطل زيارة كليوباترة لمدينة طرسوس أكثر من أسابيع قليلة عادت .

(١) قيل في وقت من الأوقات إنها آثرت أن تقف موقف الحياد بالنسبة للطرفين ، وإنها آثرت الانتظار حتى ترى الجانب الراجح فتؤيده وتنصره — أنظر بيقان في كتابه عن مصر على عهد أسرة البطالة من ٣٧٣ — ٣٧٤ ، وفي هذا الرأي تناقض واضح لما جاءت به الأدلة التاريخية الواردة في « ديو » و « أبيان » . ويفسر بيقان دفاع كليوباترة وتذرعها بهبوب العواصف بأنه غير جدى ، ولا يمكن تصديقه ويعتبره من قبيل المهارات النسائية .

بعدها إلى الإسكندرية ، بعد أن نجحت في الحصول من أنطونيوس على وعد بأن يلحقها إلى الإسكندرية ، ليقضى فصل الشتاء معها (٤١ - ٤٠ ق.م). وترك أنطونيوس ساكسا (Saxa) الأسباني ، الذي كان في خدمة الدكتاتور قيصر رئيساً على القوات المراقبة بسوريا ، وأسرع في اللحاق بالملكة بالإسكندرية في أوائل فصل الشتاء من عام ٤١ ق.م ، حيث استقبل استقبالاً فخماً في القصر الجليل المعروف بقصر « لوخياس » ، في الحى الملكى (بمنطقة السلسلة بالشاطي) وهناك أمضى فصل الشتاء ، كفرد عادى مجرد عن أبهة الملك ، وصنولة الحكم ، فخلع أوسمة القائد الرومانى ، وزى بلاده الاصلى ، واستعاض عنه بالزى اليونانى والحذاء الاثنى الأبيض ، وكان يقضى مع كليوباترة معظم وقته ، ماعدا زيارات فى حين وآخر ، كان يقوم بها لرؤية المعابد والمدارس ، ويحضر مناقشات العلماء والفلاسفة ، ويقول بلوتارخوس بصدد هذه الزيارة : إن أنطونيوس أمضى وقته فى الإسكندرية فى راحة ، وبذا أفنى أئمن الأشياء القيمة كلها ، وهو الوقت فألف نادياً عرف بنادى « الزملاء الذين لا يحاكون » (amimetobioi) وكان أعضاؤه يحتفون بزملائهم ويسطون أيديهم كل البسط ، وينفقون عن سعة ، ولقد كشف المنقبون فى مصر عن مخطوطتين يونانيتين ، إحداهما بالإسكندرية ، على قاعدة تمثال لأنطونيوس ، كتب عليه « أنطونيوس ذو اليد البيضاء الذى لا يجارى » ؛ أما الثانية فهى قربان « لأنطونيوس العظيم ذى الباع الطويل ، والبسطة العظيمة فى الرزق » . وكانت الإسكندرية تموج بمثل هذه النوادى ، التى كانت مكونة على نسق مثيلاتها فى المدن الحرة ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . ولكن بكل أسف لم توجد بمؤلفات بلوتارخوس وآثيناىوس وديوفم الذهب سوى إشارات قليلة جداً إلى هذه النوادى السياسية والاجتماعية ، وكان أحد أجداد كليوباترة الأولين ، وهو بطليموس الرابع الملقب « فيلوپاتور » ، يحرص على قضاء معظم وقته مع أعضاء مثل هذه النوادى من الرجال والنساء ، الذين عرفوا

باستهتارهم ومجونهم^(١) . ولقد كوّن أنطونيوس وكليوباترة ناديهما على نسق . جد الملكة الأكبر «فيلوباتور» هذا ، وسبب تسمية هذا النادى بهذا الاسم أن الملكة كانت تريد ألا يتسرب للذهن أحدهما تكن ثروته، أنه في مقدوره أن ينافس آخر ملكات أسرة البطالمة ، وأن يحاول مجاراتها في بذل المال للاحتفاء بأصدقائها بترف وإسراف يتناسبان مع ما تستطيع مصر واليونان والقرس وروما تقديمه . وإذا ساغ لنا أن نحكم على ما كانت تحتويه هذه الموائد ، نعلمه عن مثيلاتها التي نسقت على نظامها في عهد الإمبراطورية الرومانية ، ووصفها لنا پترونيوس (Petronius) صديق الإمبراطور نيرون - استطعنا أن نتصور مقدار العظمة والفخامة التي كانت عليها هذه الولائم ، حيث كان الضيوف يجلسون على كراسى من الفضة في بهو عظيم أعد للاستقبال ، وإقامة الولائم في القصر الملكي . ولا حاجة بنا إذاً إلى أن نعيد سرد القصص التي قصها پلوتارخوس عن طهارة القصر الملكي ، وإسرافهم إلى حد يفوق التصور . وفي أثناء سرد پلوتارخوس لأخبار هذه الولائم، لم يفته أن يذكر أن كليوباترة كانت تفكر على الدوام في إبتداع وسائل جديدة تُقَرّ بهاعين أنطونيوس ، وتدخل عليه المسرة ، حتى لا يتطرق السأم إلى قلبه؛ فكانت تصحبه في كل مكان، وكانت عندما تشعر منه أنه لا يجد ميلاً لسماع محاضرات العلماء أو لرؤية التمرينات والاستعراضات العسكرية ، ترتدي ملابس العبيد ويحذو هوحذوها ، ويصحبها متسكرين في شوارع الإسكندرية يبحثان عن مخاطر ومغامرات جديدة . ولم يكن تنكرهما لتعرف أحوال الرعية ، بل على النقيض من ذلك كان أنطونيوس يقوم بحيل غير مألوفة ، وألعاب صيبانية يتبدلان بها ، فكان يترتب عليها في بعض الأحيان أن كانا يعودان إلى القصر وقد أوسعهما الأهالي سباً ، بل وفي بعض الأحيان

(١) كتب المؤرخ يوليوس وصف الحياة البلاط في عصر فيلوباتور هذا وما كان يقوم به طغمة من بطانة الملك ووزيره الأكبر سوسبيوس من المؤامرات والدسائس مستعيناً بثلاث مؤلف من أجاثوكليس وأخته الجميلة أجاثوكليا وأمهما أوبانتى . وفي هذا الوصف صورة من ألوان الفساد الذي أخذ يتفشى في بلاط البطالمة (يوليوس ، الكتاب الرابع عشر والخامس عشر).

لكما وضرباً ،^(١) وفي صدد هذه الفكاهات يعتذر بلوتارخوس للقارىء بقوله « إنه من العبث أن نحصى ألاعيب أنطونيوس وحيله الجنوبية التي لا تدخل تحت حصر وعدٍ ، ولكنتنا لا يصح أن نغفل حادثة منها وهي حادثة صيده ، التي نذكر هنا تفاصيلها الشائقة ، وهي تبين كيف استفادت كليوباترة من سعة صدر أنطونيوس ، وقبوله للنادرة ، ولو كانت تساق مساق السخريّة به . ففي ذات يوم خرج أنطونيوس للصيد ومعه جمع كبير من الناس ، ولما اصطاد سمكة لا تعيش إلا في مياه البحر الأسود ، ضحك كل من حوله وسخروا منه ، ولكن كليوباترة التفتت إلى الصيد الحزين الكشيب قائلة له « دع أيها القائد شبكة الصيد لنا معشر ملوك فاروس وكانوب الفقراء ، فإن صيدك وقصصك يكونان في الاستيلاء على عروش الملوك وفتح الأمصار ، وتدوين المداين ،^(٢) ولم يكن منظر أنطونيوس وهو منغمس في ملاذته وشهواته مثيراً لشعور أهل الإسكندرية الذين احتملوه ، وغضوا الطرف عن ألاعيبه ؛ ولقد أثار حبه للهو واللعب شفتهم عليه ، وكانوا كثيراً ما يلاحظون عليه أن كان يكسر عن أنيابه للرومان فيظهر عبوساً قمطيراً في وجوههم ، حين يطفح وجهه بالسرور والبشر في الإسكندرية وبين أهلها .

وكانت كليوباترة كجداتها وبنات لحمتها اللاتي كن يتسمين باسمها أوبأرسينوى أو بيرنيقة يكوّن سلسلة من النساء الشهيرات — شهد هن التاريخ بالنشاط وطول الباع في السياسة ، ذوات أطماع شخصية يحملن جهد استطاعتهن لتحقيقها ، ولم تكن ملكات أسرة البطالمة ، كما هو معروف عن أصلهن المقدوني ، يتورعن عن أن يتآمرن وينصبن شباك المسكايد لذوى قرباهن ، وكانت الملكات تشتركن في السياسة ، وتتدخلن في شئون الملك كغيرهن من الرجال ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك وأولها أرسينوى الثانية أخت وزوجة بطليموس الثاني (فيلادلفوس) ، ثم برنيقة ~~التي~~ زوجة

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٩ .

(٢) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٨ .

بطليموس الثالث يورجيتيس وكلاهما كان له باع طويل في التآمر ، ونصب الشباك لتحقيق المطامع والأغراض الشخصية ، وكان آخر مثل على ذلك كليوباترة السابعة ، وقد أفاضت ما كردي (Macurdy) في كتابها عن الملكات الهيلينستيات (Hellenistic Queens) في الكلام عن سلسلة من هؤلاء . ابتداءً من أولمبياس والدة الإسكندر الأكبر إلى كليوباترة آخرتهن^(١) ، وكان الدافع الحقيقي لارتكاب جرائمهن والانغماس في شهواتهن أطماعهن السياسية ، وليست شهواتهن الحسية ؛ ولذلك لا يجوز أن يتسرب إلينا شيء من العجب عند قراءة تراثنا تاريخ آخر ملكات هذه الأسرة ، التي كانت على الدوام ، على أتم استعداد لاستخدام وسائل شيطانية ، في سبيل تحقيق أطماعها ، لا تتورع عن أن تلوث الجرائم يديها لتبلغ أمانها ، فكان من الهين عليها أن تتآمر وتسد الدسائس مع قيصر لتوطيد عرشها في الماضي ، وصمت في هذه المرة على ألا تترك مصر تسقط في يد الدولة الرومانية بمثل السهولة التي سقطت بها ممالك الشرق الأخرى . وإن مظاهر العظمة والثروة التي تجلت في رحلتها إلى سيليشيا ، لم تكن صادرة عن رغبة في إشباع غرام أجوف ، ويجرد هيام امرأة خالٍ من المرام والغايات ، بل إنها أحكمت تدبير كل الدقائق والتفاصيل التي كانت نتيجة تفكير سابق ، وتدبير قديم ، كي تقيم البرهان الحسي لأنطونيوس ، قائدها وزوجها ونصيرها المستقبل على عظم ثروة مصر ، فتبهر أنظاره بثروة هذه البلاد ، وصادف أن كان ذلك وقت ، أن كان أنطونيوس في حاجة ماسة إلى المال . وكانت كليوباترة هي الأخرى في حاجة إلى أنطونيوس لتستعين به في التغلب على أعدائها من بين الطبقات الراقية في مصر ؛ وزيادة على ذلك فلقد كان ملوك البطالمة كغيرهم من ملوك الشرق الهيلينستي في ذلك الوقت ، يتقربون من الدولة الرومانية ويخطبون

(١) و هذا المؤلف العلمي تناولت الكاتبة الأمريكية دراسة حياة عدد من هؤلاء الكليوباترات والارسينوات والدرنقات الشهيرات وقارنتهن بنظيرتهن وبينت أوجه الشبه في سلوكهن ورمت بضمنهن بأنهن كن نرات ، محبات للسلطان ولا يتورعن عن ارتكاب موقفات بل وركوب متن السطط فيقتلن أقرب الناس إليهن في سبيل تحقيق أهدافهن .

ودها وبخشون غضبها وبأسها . أما أنطونيوس فلم يجد آسيا مصدراً لتلك الثروة التي كان يحلم بها — لقد أنهكها توالى الضرائب والغرامات حتى أصبحت في حالة فقر مدقع . أما مصر فكانت الدولة الوحيدة التي احتفظت حتى ذلك التاريخ باستقلالها الإسمي ، وكانت ذات شهرة عالمية بغناها وكثرة كنوزها ، وكان ملوك أسرة البطلمة الآخرين يعتمدون على نفوذ الدولة الرومانية . فلما أعتلت كليوباترة عرش آبائها المزعزع الأركان كان لامرئتها ظل من ذلك النفوذ القديم ، وكانت تلك الملكة المليئة بالطموح تطمح في إعادة ذلك المجد التليد ، الذي كان لأجدادها من قبل ، ثم عفا ولم تبق سوى آثاره فتعيد تاريخ أجدادها الأول ، وتجعل من سخرية الملوك المازيف حقيقة تعلمن لها نفعها . ولم يكن تحقيق ذلك الحلم بالأمر المستحيل عليها ، إذ كان لديها من المال ما يضمن تنفيذه ، ولم ينقصها سوى الجند والقائد ، ولذلك كان عليها أن تعمل لروما حساباً في خططها ؛ فصممت على أن تستخدم روما كآلة في تنفيذ برنامجها وتحقيق أطماعها ، فخطبت من قبل قيصر عند حضوره إلى مصر ، وفي هذه الفرصة خطبت قيصر أنطونيوس الذي وجدت فيه شخصاً آخر يمكنه أن يمثل ذلك الدور الذي طمعت من قبل في أن يمثله قيصر في برنامجها الإمبراطوري — لذلك أخذت على عاتقها أن يكون أنطونيوس في صفها ، وأن تؤثر فيه منذ البداية بفتح قلبها له ، وإغرائه بكل ما تملك المرأة من وسائل الإغراء — ثم عرضت عليه في طرسوس مشروعاً خلافاً يتضمن عقد محالفة بينهما ، ولقد كانت رغبها أن توقف شغفه وتريه إمكان جعل مصر مركزاً لحملة عدائية ضد روما ؛ كما أرادت أن تجعله يؤمن بأنه إذا انتصر لقضيتها وقضية ابنها « قيرون » ، الذي ولدته لقيصر ، وضعت تحت يده ثروة مصر وكنوزها التي لا تحصى ، فيملأ بها خزائنه الخالية الوفاض ، وكان قد اعترض بابنها من قبل كشریک لها في ملك مصر عام ٤٣ ق م ووافق كل من أنطونيوس وأكتافيوس على ذلك ، وكان قد لقب قيرون كما يأتي « بطليوس قيصر المحب لأبيه وأمه » .^(١)

(١) مجموعة النقوش اليونانية (Corpus Inscriptionum Graecarum)

كان أنطونيوس وهو الخليفة الفعلي لقيصر ، الشخص الوحيد الذى يمكنها إذا ما تحالفت معه من أن يفتح لها هذا الملك العريض ، الذى كانت تصبو نفسها إليه ، والذى كان قتل قيصر السابق لأوانه سبباً فى يأسها أمداً قصيراً من تحقيقه . وعلى ذلك كان لازماً عليها أن تفهم أنطونيوس المزايا الحقيقية التى تنجم عن اشتراكهما فى العمل ، وضرورة مساعدته له مادياً كيما يتخلص من منافسه ومناظره فى المستقبل وهو عدوه اللدود . فعلينا إذاً أن نريه عظم الثروة المصرية التى كانت كلها تحت تصرفها حتى تكسب مساعدته . وإذا ما رأى عملياً مقدار ما عليه البلاد من الثروة كان من غير المعقول أن يرفض القيام بمشروع يصل به إلى الذروة فيقبض على العرش بيديه ، ويصبح هو وكليوباترة وابنها قيصرون ملوك العالم الثلاثة — على ضوء هذه الحقائق يجب أن ننظر إلى مسلك كليوباترة ، ونفسر بذلها عن سعة فى طرسوس وفى المحافل التى أقامتها بالإسكندرية ، فلا تنساق وراء أعدائها ، وننسب كل هذا إلى مجرد التبذير والإسراف والغرور من جانب كليوباترة ، إذ كان كل ذلك فى الواقع صادراً عن أسباب سياسية ، ولا نكون بعيدين عن نجادة الصواب أو غالين إذا اعتبرنا أن هذا المسلك كان تمهيداً لعقد تحالف نهائى بينهما عند ما تسنح الفرصة المناسبة لكشف القناع ، واتخاذ هذا المسلك النهائى .

وكان الفرس قد انتهزوا فرصة غياب أنطونيوس ، وذهابه لمصر لقضاء فصل الشتاء ٤١ — ٤٠ ق . م مع كليوباترة ، تاركاً الأمر لبلانكوس فى آسيا الصغرى وساكسا فى الشام ، وهاجموا الرومان فى كل مكان ، واقتحموا المعاقل والحصون فى الشام وآسيا الصغرى ، منتهزين فرصة هيام أنطونيوس وغرامه بالمملكة كليوباترة ، وانقضوا على جيوش الرومان التى كانت متخاذلة خائفة القوى ، فاكتمست جيوش الملك الفارسى أورديس (Orodes) بمعونة روماني فار اسمه لابينوس (Labienus) ، أقاليم كثيرة ، كان قد أعضبها سوء معاملة الرومان ، وثقل الضرائب على كاهل أهلها والمغارم التى (٤٠ م — كليوباترة)

كانوا يرزحون تحت أعبائها فاستولى الأعداء على سوريا وفينيقيا ، وفر كل من ساكسا وبلانكوس عاملي أنطونيوس . ويدعى المؤرخون الأقدمون أن أنطونيوس استهان بشئون الدولة فلم ينفذ عنه نفوذ كليوباترة ، ولم يسارع لمحاربة القرس في الشام وآسيا الصغرى أو لمساعدة زوجته « فلقيا » وأخيه لوكيوس أنطونيوس ، وكانا قد أثارا حرباً ضد أكتافوس في إيطاليا . وفي تعرف الدوافع الحقيقية لتلك الأحداث التاريخية ، كان معظم الكتاب الأقدمين يلقون القول على عواهنه من غير تمحيص للحقائق ، ولا تنحيز للدقة ، فقالوا إن أنطونيوس كان ناسياً كل شيء ، غارقاً في بحار حبه لكليوباترة ، حتى لقد أسرف المؤرخ ديو ، فزعم أنه كان « غارقاً في أدنان الخمر » . وإننا لنعترف بادىء ذي بدء أن أنطونيوس مضى جزءاً كبيراً من وقته في الإسكندرية في إشباع شهواته ، إلا أن جاذبية كليوباترة لا يمكن أن تكون السبب الوحيد في استهائته التي يزعمونها . وإنه لمن السهولة بمكان أن ندحض هذه المزاعم والمآخذ على أنطونيوس بالملاحظات الآتية التي أهملها الرواة الأقدمون ، فمنها أن أنطونيوس لم يلحق بكليوباترة في الإسكندرية إلا بعد أن كان الخلاف في إيطاليا بين زوجته وأخيه وبين أكتافوس قد استنفحل ، ومنها أن الحصار الذي ضرب على أنصار أنطونيوس في يبروسيا بإيطاليا وقع في منتصف فصل الشتاء ، وقت أن كانت الملاحة في البحر المتوسط عسيرة ، وهذا يجعلنا نجزم بأن أخبار الحصار لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى أنطونيوس إلا في بدء عام ٤٠ ق . م ، وذلك بعد سقوط هذا الحصن وفوات أو ان إرسال أى نصيب من العون والمساعدة . وفوق ذلك فإنه عندما ترك أنطونيوس الإسكندرية لم يركب كليوباترة مدة طويلة بلغت نحو أربع سنين ، وهذه حقيقة تكفي للبرهنة على صحة الرأى القائل بأن محبة أنطونيوس لكليوباترة لم تكن سبباً يشغله عن التفرغ للشئون السياسية عندما تدعوه المخاطر إلى التقدم للقائها .

غادر أنطونيوس مدينة الإسكندرية في أوائل فصل الربيع ، وسافر إلى

صور بطريق البحر قاصداً لإنقاذ المدينة ، وتخليصها من يد الفرس ، ولما وجد أن كل سوريا قد سقطت في يد العدو، ترك المدينة تنتظر حظها واعتذر بقوله إن وجوده أصبح ضرورياً في إيطاليا ؛ ولقد علم بخبر سقوط مدينة يروسيا وهو في ميناء بحرية بآسيا الصغرى، فألقى باللائمة على زوجته «فلقيا» وأخيه لوكيوس وترك «فلقيا» مريضة في بلاد اليونان ، وركب البحر الأدرياتي ميمماً شطر برنديزي في إيطاليا ، حيث ألقى مراسي سفنه آخر الأمر على سواحلها ، وأخذ يفاوض في الصلح مع أكتافوس ، ونجح بعض المصلحين في إزالة نوازع الشريرين قائدى الرومان العظمين ، وفي هذه المرحلة وصل خبر موت «فلقيا» فاستراح كلا الجانبين لتخلصهما من امرأة مشاكسة . ولقد تم الاتفاق بين القائدين على معاهدة تعرف باتفاقية برنديزي في سبتمبر سنة ٤٠ ق . م ، واتفق فيها على تقسيم العالم الروماني من جديد إلى قسمين تفصل بينهما مدينة «اشقودرة» فيكون من نصيب أنطونيوس كل بلاد الشرق ، ويكون نصيب أكتافوس دالماتيا وإيطاليا وسردينيا وأسبانيا وبلاد الغال ، وكل إلى أنطونيوس أن يأخذ على عاتقه إخضاع الفرس . ولتوثيق عرى المودة بين الطرفين المتعاقدين قبل أنطونيوس أن يتزوج من أكتافيا وهى أخت غير شقيقة لأكتافوس وأصبح هذا الزواج ممكناً بعد موت فلقيا التى قيل إنها ماتت حزناً وكداً لعدم اكتراث أنطونيوس بها وإنصافها والانتقام لها مما أصابها من أكتافوس . واستطاعت أكتافيا بما أوتيت من جمال تحشم وخلق كريم ومقدرة عقلية أن تكسب قلب زوجها وقتاً ما، فلم يرجع إلى كليوباترة وولدها التوأمين لبضع سنين . وبمجرد الانتهاء من عقد المعاهدة مع أكتافوس اتجه نظر أنطونيوس نحو إخضاع الفرس وطردهم من البلاد التى استولوا عليها فى الشام وآسيا الصغرى ، فعين القواد وبث فيهم روح الحماسة ليبدلوا أقصى ما فى وسعهم لاسترداد الأقاليم التى ضاعت ووقعت فى يد الفرس منذ سنتين ، وقد أمكن تشتيت شمل الفرس وإلحاق الخسائر بهم ، ففروا تاركين الشام وسيليشيا (قيليقية) للرومان ، ولما أعادوا الكرة

لمهاجمة الشام في السنة التالية أي سنة ٣٨ ق.م ، صدوا مرة أخرى ، واستطاع الجيش الروماني أن يكسب نصراً مجيداً ، وقد احتفى أنطونيوس في أثينا بما كسبه هو وقواده من انتصارات ، وأسبغ عليه الاثينيون من ألقاب الشرف ما يتناسب مع المجهود العظيم الذي قام به في حربه مع الفرس ، ثم أقيمت صلاة الشكر وسارت مواكب النصر إجلالاً واحتراماً لأنطونيوس ونفر من قواده ، وفي ربيع عام ٣٧ ق.م ، غادر أنطونيوس أثينا في طريقه إلى تارتوم لمساعدة زميله أكتافوس ، ولكن الأخير تلكأ في مقابلته وتردد في قبول المطالب التي عرضها عليه . وكان من الجلي أن شيئاً من سوء التفاهم قد دب بينهما ، وقد توسّطت أكتافيا في الأمر بين الإثنين واستطاعت تلك الإمرأة العجيبة على حد قول بلوتارخوس أن تقيم السلام بين زوجها وأخيها عندما كان تحالفهما مهدداً بأن تنقسم عراه سنة ٣٧ ق.م ، فتقابلتا بالقرب من تارتوم ، وقبيل كل طرف من الطرفين مطالب الآخر من جند وسفن لتنفيذ برنامج ، وكتب المؤرخ أيان أنهما حسبا الخلاف في أهم موضوع كان عالقا . دوماً أن مدة الاتفاق أو الحلف الثلاثي (Triumvirate) التي منحت لهما كانت على وشك الانتهاء ، فإنيهما جدداهما خمس سنين أخرى بدون الرجوع إلى الشعب الروماني^(١) . ولما تم الوفاق بينهما افترقا فعاد أنطونيوس إلى الشرق ، ورد زوجته أكتافيا إلى إيطاليا من جزيرة كورسير^(٢) ، بحجة أنه لا يجب تعريضها إلى أخطار الحرب الفارسية .

صحة أنطونيوس على بلاد الفرس عام ٣٦ ق.م ودور كليوباترة

ترك أنطونيوس زوجته أكتافيا ومعها أبنائها . بعد أن غادر إيطاليا عائداً إلى سوريا ، وهو على شيء كثير من الامتعاض ، وكان مسلكه الذي استتبّه لنفسه بعد ذلك في الشرق يدل على أنه كان متأثراً بالحوادث ، التي وقعت بينه

(١) أيان ، الحرب الأهلية ، ٧ ، ٩٥ .

(٢) Dio, XLVIII, 54.

وبين أكتافوس قبل عودته إلى الشرق مباشرة ؛ إذ كانت حالة أكتافوس في أثناء مفاوضاته ومساومته مع أنطونيوس سبباً في إثارة كثير من الشك والخوف في نفسه ، ولم يكن قد نسي الإهانة التي أصابته من أكتافوس في تارنتوم ، واضطرته أن يلح في عقد اتفاق لم يكن بأى حال ذا منفعة كبيرة له . وعلى ذلك كانت هذه التسوية غير المرضية التي تمت في تارنتوم ، مضافاً إليها ذلك الصلف الذى أظهره أكتافوس في هذه الأثناء من الأسباب التي جعلت أنطونيوس يفكر في إتخاذ أقوم الطرق ليسلكها في المستقبل ، ولا بد أن يكون قد تأكد أن سلطة منظره قد ازدادت في أثناء غيابه عن إيطاليا ، ولعدم مقدرته على جمع الأموال من آسيا التي كانت في ضيق ، قارب حد الإفلاس . وفوق ذلك فإن أعداء أنطونيوس كانوا على أتم استعداد لكي ينسبوا عدم وجود هذه الأموال لديه إلى انغماسه في شهوراته في الشرق ، ولقد أدرك الطرفان أن وقوع النزاع والاصطدام وشيك ، ولكن أنطونيوس رأى أن أولى الخطوات التي يجب أن يخطوها ، أن يسترد محبة الرومان له بكسب انتصارات باهرة ، ولكن تنفيذ ذلك المشروع كان يتطلب المال الذى هو في حاجة شديدة إليه . واضطرته حاجته المالية هذه أن ينزل عن جزء من أسطوله في تارنتوم لزميله . ولقد كانت هذه المصاعب المالية السبب الأكبر في تحالفه مع كليوباترة ومصر التي كانت أغنى بلاد الشرق في ذلك الوقت ؛ إذ لم تخربها الحروب الأهلية ، والثورات الداخلية منذ بضع سنين ، وقد رأى بثاقب فكره أن هذا التحالف المرتقب سيكفل له أن تضع مصر تحت تصرفه كل ما يحتاج إليه من الأموال للإنفاق على جيشه ، وتنفيذ مشروعاته الواسعة النطاق . وتحت سلطان تلك الاعتبارات أرسل رسوله فونتوس كابتو (Fonteus Capito) إلى الإسكندرية يدعو كليوباترة إلى مقابلته في سوريا . أما عن مشاعر كليوباترة إزاء تلك الأحداث الجسام طوال أكثر من ثلاث سنوات ، كان فيها أنطونيوس مُعبراً عنها كل الإعراض تاركاً إياها من أجل سيدة رومانية ، فإن التاريخ لم يسجل لنا شيئاً عن ذلك .

وإنه لا يمكن الجزم بحقيقة نية كل من أنطونيوس وكليوباترة - أكان ينوى العودة إلى أحضان كليوباترة؟ وهل كانت تطمح في أن يعود إليها بعد أن تركها في المرة الأولى في أوائل فصل الربيع عام ٤٠ ق.م؟ أم تسرب إلى ذهنها أن أنطونيوس هجرها؟ ولكن لا يمكن أن نتصور كليوباترة حزينة كئيبة وقد استولى عليها الجزع، واستسلمت لليأس، ملقية بنفسها داخل قصرها تدرف الدمع الهتون على سفر أنطونيوس. وليس هناك من شك في أن أنطونيوس الذي كان يعلم علم اليقين أن مساعدتها ذات قيمة ومنفعة كبيرة له في حربه المستقبلية، وفي تسوية النزاع بينه وبين زميله على السيادة في العالم لا بد كان يرأسها في أثناء غيابه، كما نستنبط ذلك من علاقتهما التي اشتدت أو أصرها بعد ذلك، كما أنه لا بد أن يكون قد حاول أن يبرر لها أن زواجه بأكتافيا كان لغاية سياسية. وبينما كانت كليوباترة تحكم مصر بالاشتراك مع ابنها قيصر، كانت ترقب باهتمام عظيم حركات الزعيمين الرومانيين، كما أن من تلقى بهم من المصريين الذين كانوا في حاشية أنطونيوس لا بد أنهم أيدوها بالمعلومات أولاً بأول عن التغيرات السريعة والتسويات السياسية التي تمت بين القائدين. وعلى ذلك فإن دعوة أنطونيوس لها لمقابلته في الشام كانت راجعة إلى اعتبارات سياسية أكثر منها غرامية، وليس كما يقول بولوتارخوس الذي يحلل مسلك أنطونيوس بقوله «إن ولع أنطونيوس بكليوباترة، الذي كان قد أنطفأت جذوة ناره وسكن لحيه بتغلب العقل وصواب الرأي استجمع قوته مرة ثانية، وتأججت نيرانه من جديد»^(١). ولو أننا لا يمكننا أن ننكر أن تجديد العلاقات مع الملكة والحقاق بها

(١) للأورخ الفرنسي بوشيه ليكلرك في كتابه تاريخ الاجيدين Bouché Leclercq, Hist. des Lagides, جزء ثان س ٢٥٢؛ جاردهاوسن في كتابه عن أغسطس وعصره: Gardthausen, Augustus und seine Zeite س ٢٩١ لذي يقول إنه لا يرى دافماً آخر غير حبة أنطونيوس للملكة لتفسير مسلكه هذا، وهو في هذا الرأي يتبع بولوتارخوس؛ أما الكاتب الإيطالي «فيررو» فيرى في تفسير مسلك أنطونيوس دافماً سياسياً رى من ورائه. إلى جم الأموال للصرف على حملته. أنظر الترجمة الإنجليزية لكتابته، الجزء الرابع س ٣.

ربما أثار في نفس أنطونيوس لواعج الغرام وزعة الشباب بعد تخلصه من قيود الزوجية بأكتافيا التي كانت هادئة تورث الإقامة معها ووجودها بجانبه السامة والملل وقد نجم عنها النفور والابتعاد، إلا أنه من الجائز جداً أن نسلم بأن هذه الخطوة من جانبه ودعوتها لها للحاق به كانتا ناتجتين عن أسباب سياسية وأسباب شخصية معاً. ومهما كان شعور الاستياء والغضب الذي لا بد قد تملكها، وأصبح دفيناً في قرارة نفسها فإنها كانت تنوق إلى فرصة التلاق والعودة إلى الاتصال بحاكم الشرق على أي نحو. ولقد قبلت كليبوباترة الدعوة التي وجهها لها أنطونيوس على يد «فوتقيوس كاپيتو»، وبغير أن تتجه إلى ذلك التأخير الذي تعمدته في المرة الأولى عند دعوتها لمقابلته في طرسوس، بل أسرع في هذه المرة للحاق به في مدينة أنطاكية بالشام. وإنه لمن الأسف أن التاريخ لم يسجل لنا مدار بينهما في مقابلاتهما الأولى، ولكنه يُظن أن أنطونيوس أكد لها إخلاصه، وأنه تلس الأعداء لمسلكه السابق فيما يتعلق بغيا به الطويل، وزواجه بأكتافيا على أنهما يرجعان لأسباب سياسية. ويظهر أنه لم تكن هناك صعوبة كبيرة في الوصول إلى شروط اتفاق أبرم بينهما، كان من مقتضاه أن وهبها بلاداً تعهدت في نظيرها أن تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها من أجل الإنفاق على مشروعه العظيم، وهو حملته الفارسية، وعلى هذا الأساس أقطعها الأقاليم الغنية وحقوق البلسم حول اليرموك وفينيقيا وكويل سوريا أو سوريا الحالية المعروفة بسهل البقاع (فلسطين) وإقليم الأعراب النبطيين وقبرص وجزءاً من سيليشيا وأقليقية. ولقد ترتب على هذه المنح أن غضب الرومان، واشتد امتعاضهم، وانتقدوا أنطونيوس من الانتقاد بسببها. واختلف المؤرخون الأقدمون فيما يتعلق بتاريخ هذه الهبات، وفيما إذا كانت كلها قد أعطيت في وقت واحد، فذكر بلوتارخوس أن هذه الهبات كلها قد منحت عام ٣٦ ق.م قبل الحملة الفارسية^(١). ويتفق معه المؤرخ ديو في نسبتها إلى عام ٣٦ ق.م، ولكن بعد الحملة

(١) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس، فصل ٣٦

الفارسية عقب عودة أنطونيوس إلى الإسكندرية^(١). أما المؤرخ اليهودي يوسفوس فقد قسم هذه المنحة ، فخص الجزء الذي منح من شمال بلاد العرب واليرموك ويهوذا وفينيقيا إلى عام ٣٤ ق . م ، عندما دعى هيرود إلى لاوديكيا ليبدى أسباب مقتل أرسطوبولوس^(٢) . ولقد انقسم المؤرخون الحديثون في الرأي قبل شيرر (Shurer) قول يوسفوس بينما قبل جارد هاوسن وبوشيه ليكلرك قول بلوتارخوس أما كروماير (Kromayer) فقد نسب هذه الهبات إلى سنة ٣٦ ق . م قبل الحملة الفارسية ونسب الاختلاف بين ديو وبلوتارخوس إلى إهمال ديو في تأريخ الحوادث التي حدثت في هذه السنة وترتيب وقائعها^(٣).

وإن مصر باستعادة هذه الأراضي والبلاد ، قد رُدت لها أملاكها التي كانت لها أيام ملوك البطالمة الأولين ، وبخاصة على عهد كل من بطليموس الثاني وبطليموس الثالث . وكان الرومان قد استولوا على بعضها في عهد ملوك هذه الأسرة البطلمية المستضعفين ، ولذلك تستحق كليوباترة أن تغبط نفسها على هذا النصر ، إذ استردت أملاك مصر وبجدها الذي كان لها أيام أعظم أجدادها وهو بطليموس الثاني (فيلادلفوس) . ولقد كان استرداد هذه البلاد جزءاً من السياسة المصرية ، ولذا يعتقد المؤرخ جارد هاوسن ، أن هذه الهبات كانت السبب الذي من أجله ابتدأت كليوباترة ميقاتاً جديداً في حكمها . ويوجد على عملة سُكت بعد ست سنوات من تأريخ هذه الهبات وجه كل من أنطونيوس وكليوباترة ، ومعهما العبارة الآتية :

« في حكم الملكة كليوباترة وفي السنة الحادية والعشرين التي هي أيضاً

(١) ديوكاسيوس (Dio Cassius, XLIX, 32)

(٢) يوسفوس ، تاريخ اليهود ، قسم ١٥ ، ٢٤ ، ١ - ٢

(٣) جارد هاوسن ، « أغسطس وعصره » ص ٢١٢ ؛ بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجئين جزء ثان ص ٢٥٥ ؛ كروماير في مجلة هرميز (Hermes) عدد ٢٦ ص ٥٧١ - ٥٨٥ . وتجد آراءه ومقترحاته محصاة ومدروسة في دائرة المعارف الألمانية Pauly-Wissowa في مقال له عن هيرود .

السنة السادسة من حكم الإلهة .، وما يؤيد نظرية « جارد هاوسن » السابقة ما سجله التاريخ من أن كثيراً من الملوك في الشرق جعلوا استيلائهم على أقاليم جديدة مبدأ لتاريخ جديد ، يحيون به ذكرى فتوحهم ، ويشتون به لدى الأجيال مفاخرهم . ولقد استنبط بعض المؤرخين الحديثين أن ذلك البدء التاريخي ليس سببه إضافة أملاك إلى الدولة فقط ، بل سببه تخليد لذكرى تلك الزيجة التي تمت بينهما في أنطاكية عام ٣٦ ق م ، فبدأت الملكة تعد ذلك التاريخ بدء عهد جديد في تاريخ حكمها وأن هذه الهبات ما هي إلا مهر زواجها . ويظن المؤرخ الإيطالي « فيريرو » ، الذي برهن بمهارة فائقة على صدق الرأي القائل بزواجهما في هذه المرحلة أنه قد كان هناك منهاج واسع النطاق قد أُحْكِم ترتيب أجزائه بدقة فائقة ، فيكون معنى ذلك الزواج وضع وادى النيل تحت الحماية الرومانية ، وجعل كنوز البطلمة كلها تحت تصرف أنطونيوس ، ينفق منها فيما يشاء وكيفما شاء ، ولكن يسوق بعض العلماء الحجج التي يدحضون بها الرأي القائل بأن الملكة تزوجت أنطونيوس نهائياً في هذه المرحلة ، وسوف نعود إلى موضوع هذه الزيجة وكل ما يتعلق بها في مكان آخر من هذا الكتاب^(١) .

لقد كان أنطونيوس يعلم حق العلم أنه بقيامه بالحملة الفارسية التي فكر فيها قيصر من قبل ، سوف يُقوى مركزه وينشر مهابته في الشرق ، ويجذب إليه قلوب الرومان في الغرب . ولقد كان أنطونيوس وهو الظافر في فيليبيا ينتظر أن يوفق في مشروعه ، وأن يتوج اسمه بلقب « قاهر الفرس » . استمواه ذلك الخيال الرائع ، غفل إليه أنه فاتح الفرس ، وأن الرومان سينادون به بطلهم المنشود وقائدهم المغوار وليشهم المصور ، وبذلك يأفل نجم أنطاقيوس ويختفى اسمه تحت لآلاء صولته ، ومظاهر قوته ، وبذلك

(١) Letronne, Recueil des inscriptions grecques et latines de l'Egypte. ص ٩٠ من الجزء الثاني ؛ وفيريرو ، الجزء الرابع من الدرجة الإنجليزية ص ٦ - ٨ .

تَصَوَّر أن الحملة الفارسية إذا كلكت بالنجاح - ولم تجل بنفسه خالجة ريب فيه - كانت عاملاً كبيراً في جلب محبة الرومان ، وإمداده بالرجال والمال والكنوز التي تلزمه لهزيمة منافسه ونظيره في الغرب . وفوق ذلك يجد من ذلك الفتح المبين معيناً يستمد منه مدداً من المال وقوة الرجال .

جمع أنطونيوس جيشاً مكوناً من عشرين فرق وعشرة آلاف من الفرسان ، وتقدم إلى الأمام بجيشه تصحبه كليوباترة حتى وصل إلى مدينة زوجها (Zeugma) . وعندها تركته الملكة في منتصف مايو تقريباً ، وفي هذا المكان حاول التغرير بخصمه ، فأوهمه أنه يريد عبور الفرات ، ثم تقدم مخترأ الطريق الذي اتبعه بعد تفكير طويل مسترشداً في ذلك بالخطط التي تركها له قيصر ولكنه أساء الاختيار ، وقاسى الأهوال واضطر إلى التقهقر ، ولم ينج من مضايقة العدو له في أثناء تقهقره وسيره داخل أرمينيا في طريقه إلى الشام ؛ وفي أثناء المرحلة الأخيرة من تقهقره كانت أمام فلول جيشه ثلوج الشتاء شبحاً مخيفاً فتك بهم ، وبلغ من ماتوا في هذه المرحلة الأخيرة من زحفه داخل أرمينيا إلى الشام ثمانية آلاف . وينسب المؤرخون الأقدمون عودة أنطونيوس إلى الشام إلى ميله الشخصي في أن يكون بجوار كليوباترة ، ويظن بعض المؤرخين الحديثين أن هذا هو السبب الوحيد الذي يمكن أن يعللوا به عودته إلى الشام وسط هذه الصعاب ، وهناك رأى مخالف لذلك ، ويعلل مسلك أنطونيوس بخوفه من خيانة أخرى ومكيدة يوقعه فيها ملك أرمينيا . وعلى ذلك لا يمكننا أن نجزم بيقين أدفعه إلى العودة إلى الشام خوفاً من خيانة جديدة إذا بقي بأرمينيا ؟ أم أن عشقه المُلح لكليوباترة هو الذي حمله على التعرض لآخطار جديدة يزحفه إلى الشام ، وكانت قد بدأت ثلوج الشتاء في التساقط والنزول ؟ وقبل أن ينتهي فصل الشتاء وصل إلى الشام جزء من ذلك الجيش العرمم الذي بدأ زحفه في الربيع السابق بشجاعة لا يعرف لها مثل . وفي القرية البيضاء بين صيدا وبيروت انتظر أنطونيوس وصول كليوباترة التي حضرت ومعهما من الملابس والأموال ما ساعد أنطونيوس

على تخفيف ويلات الجند الذين قسّم بينهم الأموال التي قدمتها كليوباترة بعد أن أضاف إليها من أمواله الخاصة . وكان يقضى الوقت في انتظار فترة حضورها على أحر من الجمر ، يحترق الحذر ويتربص وصول المركب التي تحمل الملكة ومعها الملابس لجنده ليستبدلوا بها أسماهم البالية .

ولقد عاد أنطونيوس إلى الإسكندرية ، وأحدث من التغييرات في الحكم والملوك ما جعله يظهر للعالم الروماني أجمع كأنه ملك شرقي عظيم يملك في قوته أن يعين ملوكاً ويخلع آخرين ، واعترف رسمياً أثناء هذه الإقامة بينوة الطفلين التوأمين الإسكندر وكليوباترة ، ثم بطليموس الصغير المسمى فيلادلفوس منه . وقد اختلف كل من بلوتارخوس وديو فيا يتعلق بتاريخ هذه الحادثة الأخيرة فيقول الأول : إن ذلك الاعتراف بينوة هذين التوأمين تمّ في زوجها في سنة ٣٦ ق.م ^(١) ، أي قبل الحملة الفارسية في حين يؤرخ ديو ذلك الاعتراف للتوأمين ولبطليموس الصغير الذي ترجح ولادته في أثناء الحملة الفارسية في سنة ٣٦ أيضاً ، ولكن يخالفه في تأخير الاعتراف حتى بعد الحملة . ويظهر أن ذلك الاختلاف بين المؤرخين القديمين لم يتسبب عن إهمال في التدقيق من أحدهما ، بل تسبب عن أن ديوكان يريد أن يجعل الاعتراف شاملاً لثلاثة الأخوة ولذلك يرجح أن يكون هذا الاعتراف قد تمّ في الإسكندرية لا في زوجها .

وهكذا تبددت آمال أنطونيوس في النصر وانهارت في سنة واحدة قضائها في حملته الحربية ، وفشلت تلك الحملة الفارسية فشلاً واضحاً ، وخاب مشروع قيصر على يدي تليذه وخليفته . ولو أنه خصص وقتاً أطول للقيام بهذه الحملة وكان في وسعه أن يولى ظهره لمنافسه أكتافيوس لمدة طويلة تتيح له أن يضطلع بمهام هذه الحملة على الوجه الأكمل لتبدل الحال غير الحال . ولربما إذا كان قد ترك لنفسه العنان ، وغامر بنفسه في حملة طويلة الأمد وصعبة المراس في فارس ، كان وجد أن الشرق برمته قد خرج من قبضة يده

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٣٦ ؛ ديو قسم ٤٩ ، ٣٢ .

كما حصل في الغرب . ولذلك كان لزاماً عليه أن ينجح في الحال إذا كان في الإمكان أن ينجح مطلقاً ، ولكنه قد فشل في هذا كله فكان هذا أول عثرة عثرها ، فليجّ به العثار من بعد إلى الخسران المبين -- وكانت نتيجة هذه الحملة أن عاد أنطونيوس أدراجه لا كالقائد الذي عقدت له ألوية النصر ، وكلل بجبينه بأكاليل الغار محملاً بالغنائم والأسلاب من الشرق البعيد . بل عاد قائداً مخذولاً اقتصر نجاحه في قيادة جيشه المهزوم إلى الوراثة ونجاته من خراب تام . واقتصرت مهارته في أنه أحسن الفر ، وإن لم يحسن الكر ، فقد استطاع أن يعود ببقية جيشه سالمة . ولما حاول أن يعيد الكرة بإعداد حملة أخرى على بلاد الفرس ، كانت حماسه فيها مغفولة بذلك الانهزام ، وتردد خشية أن تتكرر المأساة ويعاد تمثيل رواية الفاجعة الأولى مرة ثانية . وإنه لمن الجائز أن يسوق النقاد القول بأن جيش أنطونيوس كان أحد الجيوش الكبيرة جداً التي جهزتها روما ، وأنه كان أولى به في الأحوال العادية أن يتقدم على الأقل نحو عاصمة الفرس ، إن تعذر عليه إخضاعها ولكنه لا يصح أن يعزب عن البال أن أنطونيوس كان يقوم بمحاولته هذه وسط ثورة وليس لديه من المال ما يكفي ، ولا بين يديه من الرجال سوى من تيسر جمعه في أثناء الحروب الأهلية . وفوق ذلك كان في أشد الحاجة إلى بضعة انتصارات باهرة تثبت بها مركزه ، ويؤكد ولايته على الشرق . ولربما إذا كان لديه مال أكثر ، ووقت أطول يريح فيه جنده في أرمينيا في السنة الأولى ، ثم يغزو ميديا في السنة التالية ، ثم يحاول بعد ذلك غزو الفرس ، كان الحال أحسن ولقى من النجاح ما كان يأمله . ولكنه كان في حاجة ماسة إلى إحراز النصر في أقل وقت ممكن ، وذلك لأنه كان مضطراً أن يكون على دوام الاتصال بما يجري من الأحوال في إيطاليا وفي الشرق ، وهذا يفسر عدم قدرته على توفير الوقت الكافي لمشروع كان يحتاج إلى ثلاث أو أربع سنين حتى يضمن نجاحه وفي هذه الحالة الأخيرة لم تكن لتساعده الأموال التي كانت تحت تصرفه ، ومن الجائز أن يرفض جنده الاشتراك في حملة يطول أمدؤها بهذا القدر . وعلى ذلك يكون فشله راجعاً من بعض الوجوه إلى خطأ

في وضع خططه الحربية ، ومن جهة أخرى للحالة السياسية التي كان عليها العالم الروماني والتي تطلبت السرعة في اتمام غزواته وفي تقهقره . ولقد لخص المؤرخ ميمسون الموقف بقوله إنه لما لا ريب فيه أن هذه الحملة كانت آخر بريق مضى في نجم أنطونيوس دالّ على شجاعته ومقدرته ، ولكنها كانت من الوجهة السياسية عاملاً كبيراً في هدمه وبخاصة أنه في الوقت نفسه كان أكتافايوس قد أنهى حرب صقلية على وجه مرض ، وهذه أكتافايوس السيطرة في الغرب وجلبت له ثقة أهل إيطاليا ومحبتهم في الحال والمستقل^(١).

(١) ميمسون (Mommson) في الترجمة الانجليزية ، جزء ثان ص ٣١ -

الفصل الرابع

الإسكندرية تشهد الاحتفال بالنصر على أرمينيا سنة ٣٢ ق.م

وتوزيع هبات إقليمية على أبناء كليوباترة

صحة أنطونيوس على أرمينيا

في ربيع عام ٣٥ ق.م تجددت الآمال في القيام بحملة جديدة على فارس ، وغادر أنطونيوس مصر ، معلناً في الظاهر رغبته في القيام بحملة فارسية ثانية ، وهو في الواقع يبغي أن يأخذ ملك أرمينيا على غرة منه ، ويقبض عليه ، ولقد صحبه كليوباترة في رحلته إلى الشمال . وإذا كانت هي التي أصرت على اصطحابه ، فلقد برهنت الحوادث على بُعد نظرها و فراستها ، فإلنا أن وصلا إلى الشام حتى وصل إلى مسامع أنطونيوس الخبر المزعج بأن أكتافيا كانت في طريقها للحاق به ؛ ولأنه لمن الجائز أن يكون أكتافوس قد رغب في أن يخلص أنطونيوس من أسر كليوباترة ، ويغديه إلى زوجته الشرعية ، كما تمني أن يضمن صداقته ، ولو على الأقل في ذلك الوقت . ولكن الماورخ بلوتارخوس يرى أن أكتافوس الذكي سمح لأخته أن تزور زوجها كيما تخرجه ، وتضطره أن يتخذ مسلكا يبين نياته ، ويكشف عما في قلبه ؛ فإذا لم يحسن لقاءها كانت الإهانة وسوء المعاملة التي لاقتها على يد زوجها الضال الظالم عاملا كبيرا ، وسبباً قوياً في بتر العلاقات بين القائدين ، وذريعة يتكى عليها أكتافوس في إعلان الحرب على منافسه . ولكن هناك من المؤرخين الحديثين من يخالف هذا الرأي ، ويسوق الحجج على أن أكتافوس كان في ذلك الحين على وشك أن يبدأ في حملته على « إلبيريا » أو ساحل الدالماشيا ، وبطبيعة الحال كان شديد الرغبة في أن يسود السلام بينهما ، ولقد أظهر حسن نيته نحو منافسه بكتمانه خبر هزيمته الفاجعة في حربه مع الفرس ،

وبإقامته الاحتفال بانتصارات أنطونيوس الوهمية . فأرسل أخته ومعها نحو ألفين من الجنود ليكونوا حرساً خاصاً لأنطونيوس ، وأرسل معها ملابس لجيشه ، ودواب للنقل ومقداراً من المال ، ولكن أنطونيوس أرسل في الحال خطاباً إلى أكتافيا يأمرها أن تعود أدراجها إلى إيطاليا ، لأنه ذاهب إلى ميديا . ولما أرسلت أكتافيا أحد أصدقاء أنطونيوس ليسأله عما تفعل بالجند والمدد ، فقبل أنطونيوس هداياها — وإن الباحث المدقق لم يكنه أن يلبس يد كليوباترة تلعب في الخفاء ، وتحرض أنطونيوس على اتخاذ مسلكه هذا ، فلا يمكن أن نعلل خيبة أكتافيا بغير أن نسلم بتحريض كليوباترة ودسها لها ، وقد استولى عليها الرعب والخوف من محاولة أكتافيا بسط نفوذها على أنطونيوس ، وخافت لقاءهما ، فصممت كليوباترة أن تغريه بأن يولى وجهه مُعرضاً عن أكتافيا ، وحرّضته على أن يعود إلى الإسكندرية ، حيث يكون أولاً أبعد ما يكون عن يد أكتافيا ، وثانياً بعيداً عن كل ما يغريه بالقيام بحملة فارسية ثانية ، ليس من الحكمة وحسن الاختيار البدء بها في هذا الوقت الحرج . ولقد اتخذت كل الحيل التي كانت في وسع امرأة ماهرة مثلها حتى تؤثر في رجل يمثل خلق أنطونيوس ، الذي لم يكن عنده من قوة الإرادة والعزيمة بمقدار ما كان عنده من تهور واندفاع وشهوات مُملحة جائعة . ولقد صورها بـ «تارخوس» بأنها كانت تدعى الموت من حرقة الحب لأنطونيوس ، ولزمت الرخمية في الأكل ، فهزل جسمها ، وفارقها طبيعتها المرحّة الطروب ، وتصنعت الحزن والمرض ، ولم تكن لتشكو مطلقاً ولكنها حرصت دائماً على أن يبلغ رجال حاشيتها أخبارها وقتاً بعد آخر لأنطونيوس ، فيعلموه بمرض الملكة ، وبأنها لا محالة ميتة إذا فارقها . ويظهر أن رجلاً من أهل «لاوديكية» قدم لها مساعدة جديّة في حيلتها هذه .

ولقد كان المقصود من تمثيل هذا الدور وفق رأى «تارخوس» صرف أنطونيوس عن مفارقة الملكة ، ومنعه من الالتقاء بزوجته أكتافيا ، ثم منعه كذلك من الزحف على ميديا . على أنه من الصعب أن نصدق القول بأن

أنطونيوس قد خُدع حقيقة ، وصرفته هذه الحيلة النسائية وحدها^(١) ، كما أنه ليس من المعقول أن نقول بأن حيلة كليوباترة هذه كانت السبب في الإعراض عن مشروع حملة كانت كليوباترة نفسها تعتقد أن الفرصة سانحة لها . ولكن فرائص أنطونيوس كانت ترتعد بعد تجربته القاسية في العام السابق من ذكر حملة فارسية ثانية بدرجة أكبر مما كان يبدو عليه من مظاهر الرباطة والقوة . ومن المحتمل أنه لم يكن أسفاً عندما وُجد الصعوبات تعرضه في طريقه ، فوجد أن استعداداته لم تكن تفي بالغرض ، وأن الوقت كان قد أزف ، ولم يكن يستطيع المخاطرة بنفسه في بلاد العدو في فصل الشتاء ، وكانت ذكرى حوادث العام السابق لا تزال عالقة بذهنه . وعلى ذلك أعرض عن مشروع حملته وعاد مع كليوباترة إلى الإسكندرية ، حيث مضى فصل الشتاء (٣٥ - ٣٤ ق . م) .

وفي فصل الربيع التالي رغب أنطونيوس أن يسترد هيئته التي كانت له في الشرق قبل حملة الفارسية ، وكان ينسب فشله الذي كان سبب ضياع شهرته إلى ملك أرمينيا الذي حرمه ، بخيائته ، من أي أمل في إحراز النصر . وعلى ذلك كان أنطونيوس ينوي معاقبة هذا الملك بمجرد سماعه فرصة مناسبة . ولكن يخدع « أرتاواسديس » ملك أرمينيا ، أرسل له « ديليوس » مقدماً يسأله الموافقة على عقد قران ابنته بالإسكندر ابن كليوباترة من أنطونيوس . وفي الربيع كان أنطونيوس على أبواب نيكوبوليس أو مدينة النصر ، ومنها أرسل رسولاً للملك أرمينيا يفتنه برغبة أنطونيوس في الاجتماع به شخصياً ، ولكن الملك ارتاب في الأمر ، ولم يحضر بشخصه وعندئذ خف أنطونيوس بنفسه على رأس جيشه مسرعاً نحو « أرتا.كستا » ، وهناك خدع الملك ، وأغراه حتى حضر إلى معسكره حيث كُتِل في أصقاع من سلاسل

(١) يقول المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكلرك في كتابه « تاريخ اللاجئين » الجزء الثاني ص ٣١٩ إنه ليس هناك ما يبرر تسميتها بالتمثلة الكوميدية ، وفي اعتقاده أن لعبتها هذه لم تجز حتى على أنطونيوس ، وسواء أكانت تجبه أم لا فإن إذلالها ، والخوف من ضياع ملكها بتحويله إلى ولاية رومانية كان فيه السكافية لتبرير بكاؤها فأقنعه أو أغرته بالعودة إلى الإسكندرية .

فضية . ولقد استولى أيضاً على كنوزه ، ونهب أراضيه ، وهزم ابنه الذي كان قد أعد العدة لمقاومة أنطونيوس بعد أسر أبيه فقير يجر أذيال الخيبة إلى يارثيا . وبذا تم إخضاع كل أرمينيا ، وقبل أن يترك أنطونيوس البلاد خطب « يوتاي » ، الابنة الوحيدة للملك ميديا لابنة الإسكندر ، وبذا أظهر نيته في أن يهب هذه المملكة لابنه ويوسع رقعة نفوذ كليوباترة في هذه البقعة من آسيا . وبعد الحملة الأرمينية التي لم يقاس فيها أنطونيوس أية مشقة أو يتعرض لأخطار جسيمة ، أدرك الناس أن النتائج التي وصل إليها أنطونيوس لا تشرفه في شيء . وأن الحملة الأرمينية لم تكن سوى غارة للنهب والسلب ، شنها أنطونيوس على صديقه وحليفه بالأمس . ولما عاد أنطونيوس إلى الإسكندرية كان الفرح والسرور ؛ لأن قلبه لما أحرزه من انتصارات ، ويخمره الزهو بما تجمع لديه من أموال^(١) . وفي طريق العودة كانت تحت تصرفه أموال كثيرة ، وجموع غفيرة من الأسرى الذين كان من بينهم كل أفراد الأسرة المالكة . وعلى ذلك كانت لديه كل الوسائل التي تخول للقائد المنتصر الحق في أن يقيم له حفل النصر المألوف في روما (triumphus) ؛ ولم يكن ينقصه من هذا كله سوى المدينة التي يصح له أن يعقد بها هذا الاحتفال ، وهي بالنسبة للروماني روما بالطبع . ولما كانت هذه في قبضة يد منظره الذي أغضبه بسوء معاملته لأخته أكتافيا . فقد أصبح لازماً عليه إذا أراد أن يحتفي بانتصاره أن يبحث عن مدينة أخرى غير روما ليقوم فيها معالم انتصاره ، ولكن لم يسبق من قبل أن أقام قائد روماني احتفالاً رسمياً خارج روما إذ كان مجرد التفكير في إقامة ذلك الاحتفال خارج روما بعيداً عن بال أي روماني . ولكن كانت الإسكندرية في ذلك الوقت العاصمة الحقيقية للنصف الشرق للدولة الرومانية ؛ إذ كانت مدينة تفوق روما نفسها في العظمة والبناء ، وكان من الجلي أنها المدينة الوحيدة التي يمكن أنطونيوس أن يتخذها عوضاً عن روما لسير موكبه الرسمي . وعلى ذلك

Orosius VI, 19, 4 :— qua elatus pecunia (١)

(٥٠ — كليوباترة)

دخل الإسكندرية دخول المنتصر الظافر وسار في موكب نُسّق على نمط المواكب العظيمة التي لم يسبق أن شوهدت بمدينة أخرى من قبل غير روما والكابيتول.

الإسكندرية تشهر موكب النصر

سار أنطونيوس إذاً في شوارع الإسكندرية متحدياً روما وأكتافوس معاً باحتفاله بانتصاره في عاصمة أجنبية بطريقة شديدة الشبه بالاحتفالات التي كانت من قبل وفقاً على روما ، عاصمة العالم القديم . ويظهر أن الموكب بدأ من القصر الملكي في لوخيّاس (Lochias) ، حى السلسلة بالشاطبي يرمل الإسكندرية ، وسار في الطريق الكانوني ، الموصل إلى أبي قير (Canopus) والذي كان مكتظاً بالنظارة على جانبي الطريق ، ومنه سار إلى معبد سيراييس الكبير (أو كوم الشقافة الآن بحى كرموز) في الجهة الغربية من الإسكندرية . ولا بد أنه كان حفلاً كبيراً لا يقل نخامة وعظمة عن نظرائه في روما ، أم المدائن والأمصار في ذلك العصر ، حيث كانت تفسر في الطريق المقدس ، (Via Sacra) إلى معبد الإله جوبيتر (Jupiter) على تل الكابيتول . ويظهر أنه كان على رأس الموكب شقيقة من الجنود الرومانية ، يحملون دروعاً منقوشاً على كل منها حرف الحرف الذي يقال إنه كان رمزاً لكليوباترة ، كما أنه يحتمل أن يكون رمزاً لقيصرون [باعتبار أن الحرف الأول من هذا الاسم ينطق بالكاف باللاتينية] والمطالبين بحقه الشرعى في تركه أبيه قيصر . ولقد ركب أنطونيوس كما يركب القائد المنتصر في عربة النصر تجرها أربعة من الجياد المشبهة المظومة ، ومن أمامه سار ملك أرمينيا الحزين ، مشياً على الأقدام مكبلاً في سلاسل وأغلال ذهبية ، ومعه بقية أسرته ؛ ومن خلف العربة سار موكب طويل من الأسرى الأرمنيين ووراء هؤلاء سارت العربات محملة بالغنائم والأسلاب ، وأخرى بها مناظر رمزية تصف أرمينيا ، وفي المؤخرة سارت فرق الجند من حلفاء الشرق والملوك التابعين

وكوكبة من الفرسان في المؤخرة ، وعند وصول الموكب إلى السرايوم ، نزل أنطونيوس من عربته وصعد إلى المعبد وسط التهليل والتكبير من جانب المشاهدين ليقدم القرابين المعتادة للإله سيراييس ، الإله المصري الذي ابتدعه الملك بطليموس الأول ليكون حلقة اتصال بين المصريين واليونانيين ويشارك الجميع في عبادته فتسلسل قيادتهم . ولو كان أنطونيوس في روما لاتجه وجهة أخرى ولقدّم مثل هذه القرابين للإله جوبيتر في معبد ، القائم على تل الكايتول . ولقد تبع ذلك منظر غريب لا يمت للرومانية بصلة أو حتى بشبه قريب أو بعيد ، إذ شيدت منصة أمام السرايوم مكمسة كلها بالفضة ، وعلى هذه المنصة كان يوجد عرش ذهبي ، جلست عليه الملكة كليوباترة لابسة رداءاً مستقيماً ضيقاً ، كذلك الذي تلبسه الإلهة إيزيس ، تنتظر تقديم عبارات الولاء والخضوع من الظافر وأسراه . ولقد أحضر أنطونيوس إلى قدميها الأسرى من العائلة المالكة بأرمينيا . ولكن الملك أرتاواسديس أبى أن يحبسها كما يحكي الآلهة ، كما امتنع عن أن يقوم بشيء فيه إذلال له أمامها ، واقتصر على مخاطبتها باسمها . وكانت العادة في روما في نهاية مثل هذه الحفلات أن يقتل الأسرى من الملوك وأسرتهم بعد أن يكونوا قد ساروا في مثل هذه المواكب ، ولم يكن أرتاواسديس متوقفاً غير ذلك ، خصوصاً بعد أن رفض أن يلقي بنفسه طريحاً بين قدمي الملكة ، ولكنه وأسرتة زجوا في غياهب السجون في عاصمة البلاد المصرية . وبعد انتهاء الموكب ، أقيمت وليمة كبيرة لجميع سكان الإسكندرية .

توزيع الهبات الإلهية على أبناء كليوباترة

وفي عصر ذلك اليوم أقيم حفل ثانٍ في أرض الملعب الثقافي الرياضي المعروف بالچمنازيوم ودعى إليه أهل الإسكندرية لمشاهدوا منظر آخر أشدّ عجبا من سابقه ، ولقد أقيم على منصة فضية مرتفعة عرشان ذهبيان

لكل من أنطونيوس وكليوباترة وأربعة عروش أخرى أصغر من الأولين. لأولادهما. ولما التأم الجمع جلس على هذه العروش أنطونيوس وكليوباترة وقيصرون الذي كان يبلغ من العمر حينذاك ثلاث عشرة سنة ونصف سنة والتومان الإسكندر هيليوس (الشمس) وكليوباترة سيليني (القمر)، وكان كل يبلغ ست سنوات وبطليموس الصغير الذي كان عمره سنتين. ولقد أعلن أنطونيوس رسمياً أن كليوباترة هي «ملكة الملوك»، وأن قيصرون الذي شهد بأنه ابن يوليوس قيصر «ملك للملوك»، وأعلنها حاكمين بالاشتراك على مصر وسوريا الحالية (فلسطين) وقبرص. ولقد أشار المؤرخ «ديو» إلى الدوافع التي جعلته يفعل ذلك بما يأتي «لأنه أعلن أن الأولى كانت في الحقيقة زوجته، والثاني كان ابناً ليوليوس قيصر، وصرح بأنه كان يتخذ هذه الإجراءات من أجل قيصر، ولو أن غرضه الحقيقي كان إلحاق اللرم والعار بأكتافيوس قيصر، الذي كان دعياً لقيصر، ولم يكن ابناً حقيقياً له»^(١) - ولقد أقطع أبناءه من كليوباترة بلاداً فسيحة ليحكموها. فعين بطليموس الصغير ملكاً على فينيقيا وسوريا وسيليشيا، ومنح الإسكندر هيليوس أرمينيا وميديا وكان مصير الأخيرة آيلاً إليه لأنه زواج ابنة ملكها الحالي كاولاه على پارثيا (الفرس) بمجرد غزوها المرتقب، أما كليوباترة سيليني فقد وهبها سيرينيكاً (برقة). ولقد ظهر أمام الجمع المحتشد ولداه: الإسكندر وبطليموس مرتدين ملابس الممالك التي توجا بتيجانها، فكان الإسكندر لابساً رداءاً مديناً، وفوق رأسه تاج قدماء الفرس الطويل أما بطليموس فكان مرتدياً رداء المقدونيين. فلبس وشاح المقدونيين القدماء. والقلنسوة المطوقة بالإكليل على الطريقة التي اعتادها أخلاف الإسكندر. وفي نهاية الاحتفال أحاط بالملكين الصغيرين بعد تحية والديهما حرس مؤلف من الشعوب التي قدرلها أن تكون محكّمة بهما. ويختلف المؤرخون الأقدمون مثل بلوتارخوس وديو بصدد الألقاب التي منحها أنطونيوس.

لأبنائه ، فيذكر ديواناً كلاً من كليوباترة وقيصر وحظي بلقب ملكة الملوك ،
وملك الملوك على التوالي ، أما بلوتارخوس فيقول إن كلاً من قيصرين
والإسكندر وبطليموس منح لقب ملك الملوك ، ومن المحتمل أن يكون
أبناء أنطونيوس قد منحوا نفس اللقب الذي مُنحه قيصرين ووالديهم .
وفي الشرق متسع لكثير من أطلق عليهم لقب «ملك الملوك» .

وفي أثناء هذا الاحتفال بانتصار أنطونيوس ، رأى أهل الإسكندرية
مدينتهم قد ساوت روما . وفي الاحتفال الثاني الذي تمَّ فيه إعلان قرار
أنطونيوس الخاص بعطايا الإسكندرية وجدوا مصر قد حُولت إلى ملكة
رئيسية ، تجمعت حولها ممالك شبه مستقلة ، يحكمها أبناء الملكة الثلاثة ، وكانت
هذه الإمبراطورية تمتد من الفرس شرقاً إلى طرابلس غرباً . وإنه لتغير
غريب عما كانت عليه مصر في أيام بطليموس أوليتيس ، والد كليوباترة .
وكانت كل مطامعه مقصورة على ألا تكون مصر إالة رومانية صراحة
وعلانية ، وإن كان قد سمح لنفسه بأن يؤيد عرشه جيش احتلال روماني ،
وولى على مالية البلاد وزيراً للمالية من الرومان يعرف باسم رايربوس
پوستوموس (Rabirius Postumus) فكان هذا التصرف سبباً في جديده
ومدعاة لثورة السكندريين ضد الإثنيين^(١) . وعلى ذلك استطاعت كليوباترة
بأسلوبها ودهائها وحسن تديرها أن تعيد إلى مصر إمبراطورية عظيمة ،
إشتملت على كل ما كان لأسرة البطالمة من قبل من أملاك ، مضافاً إليها
بعض أجزاء أخرى من أملاك الدولة الرومانية . وكان مظهر الوحدة في هذا
الملك العظيم ممثلاً في الشخصين المقدسين : أنطونيوس في صورة «ديونيسوس»
أو «أوزوريس» ، وكليوباترة في صورة «إيزيس» ، اللذين كان يحيط بهما
نسليمهما المقدس : الإسكندر «هيليوس» ، وكليوباترة الصغيرة «سيليني» .
ولقد لخص المؤرخ «ماهافي» (Mahaffy) هذا الموقف بقوله «إنه من

(١) كشف لنا شيفرون في صدد دفاعه عن رايربوس پوستوموس الكثير من الأستار
عن شخصية هذا الفارس الروماني الذي قدم للمحاكمة في روما بسبب إقراضه الأموال لملك مصر
وابتزازها الأموال وقبوله الرشوة . أنظر . Cicero, Pro C. Rabirio Postumo .

الواضح الجلى أن تكون السياسة التقليدية لأسرة البطالمة قد أملت على كليوباترة كل هذا التصرف ؛ إذ أنها كانت تطمح في العالم اليونانى وامتلاك كل ما كان لمصر في الماضى وبقى في حوزتها أمداً طويلاً^(١) . وإنه ليحق لكليوباترة أن تمنى نفسها على ذلك الانتصار السياسى العظيم الذى أحرزته لمصر .

وإنه لمن الصعب أن نُحلل مسلك أنطونيوس ، وأن نكشف عن الدوافع الحقيقية التى جعلته يقطع من بلاده الأصلية معظم أملاكها في الشرق تقريباً ثم يقسمها بمنزل هذه الطريقة التى سلكها ، ولقد لحقه من اللوم أشده لاحتفاله باتصاره على أرمينيا بتلك الصورة الهزلية ، التى كانت أضحوكة الإحتفالات السكايتولية في الإسكندرية ، وكان ذلك الإحتفال مساوياً لإعلانه انحطاط المدينة العظيمة «روما» سيدة العالم القديم وزوال تلك العظمة التى انفرجت بها فلم تشاركها فيها مدينة أخرى ، وأصبحت لا نظير لها بين المدائن في ذلك الحين ، فكيف يتنكر لروما ابناً ، وكان المنتظر منه أن يكون باراً بها وحريصاً على رفعة شأنها . ولقد نظر الرومان إلى مسلك أنطونيوس ، هذا بالإضافة إلى منحه هبات لأولاده بأشد ما يكون من السخط والغضب ، ونظروا إلى تصرفه هذا على أنه تصرف غير رومانى ، ويدل على سياسة شخصية معينة في الشرق . ولقد انتقد المؤرخ الفرنسى «بوشيه لسكرك» سياسة أنطونيوس في الشرق بقوله «إنه لمن المؤكد أنه أغفل بدرجة لا يمكن وصفها بغير الجمل ، وعدم التبصر - روح العصر الذى كان يعيش فيه ، ومبلغ قوة الرأى العام ، واتجاهه الذى تمدها بحفاة ، وقصر نظر فاقا الحد»^(٢) .

ولقد ظهرت في هذه المرحلة نيات أنطونيوس الحقيقية المتعلقة بإيجاد مملكة شرقية . وإنه لمن الممكن أن نصدق ما يقوله بعض المؤرخين من أنه كان يريد تشييد إمبراطورية شرقية تنافس إمبراطورية الغرب ، ويكون لكليوباترة فيها الدور الرئيسى ، بل هى محور النظام الذى بانته أماراته وطلع به أنطونيوس على العالم في غير موارد ولا تمويه . على أن نفرأ من المؤرخين الحديثين ينسبون احتفاله بالنصر في الإسكندرية ، وإسباغه الألقاب على كليوباترة .

(١) ماهاق ، تاريخ مصر ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠

(٢) بوشيه لسكرك - تاريخ اللاجيدين - البطالمة - جزء ثان ص ٢٧٥

وأبنائها منه ، ومن قيصر ، إلى حب أنطونيوس الظهور والمفاخرة اللذين تلقنهما من كليوباترة أكثر من أن ينسبوا هذا كله إلى رجود دوافع حقيقية ، آسیر بها سياسة يعلّمها العقل وبعده النظر ، وظنوا كذلك أن هباته الإقليمية كانت راجعة إلى أنه كان قائداً منتصراً ، دفعه تيار الحوادث وحب الشهرة والطموح إلى العلا ، إلى درجة استولت عليه فيها عزة الانتصار ورعونة الظفر — ومع أننا لا نصر على عده رجلاً سياسياً عظيماً ، فيه ذكاء فذ متقدم على عصره ، فمن الممكن أن نفسر سياسته على ضوء ينير لنا منطق الحوادث في هذا العصر . ولا بد أن يكون أنطونيوس قد قصد بهذه المملكة الرومانية — الهيلينستية التي خلّعها على كليوباترة وأبنائها ، وجعلها إرثاً لهم — أن تقوى وثبتت أركانها ، وتُتخذ أساساً في النزاع المرتقب الذي أصبح وشيك الوقوع بينه وبين أكتافيوس ولا سبيل إلى تحاشيه . وعلى ذلك كانت هذه السياسة وسيلة لغاية ؛ فقد كان أنطونيوس يأمل أنه عندما يُتَسَوَّى أركان دولته في الشرق ، وتصبح كل مصادر الثروة به تحت تصرفه هو أو تصرف كليوباترة من ورائه ، يتم له النصر في كفاحه المستقبل مع منافسه العتيد ، وعند ذاك يتم توحيد الجزء الغربي من الدولة مع الشرق ، يُزَيَّتهما التاج على رأس أنطونيوس وكليوباترة .

وفي أواخر عام ٣٤ ق.م أرسل أنطونيوس إلى نفر من أصدقائه المخلصين في روما بياناً يذكر فيه فتوحه التي تفتّدها في بلاد أرمينيا ، ويصف فيه المهرجان العظيم الذي أقيم في الإسكندرية ابتهاجاً بظفريه . ثم ذكر في رسالته هذه ما اتخذ من تدابير ، وما منحه من هبات . ولقد طلب إلى عاملين من أصدقائه هؤلاء أن يطلعا مجلس الشيوخ الروماني على رسالته هذه في أقرب فرصة ممكنة ، وأن يحصلوا على موافقته على هذا التغيير الذي أحدثه بتوزيعه العروش في النصف الشرقي من الإمبراطورية . ومن ذلك نفهم أنه كان يرغب في الحصول على موافقة السناتو الروماني على هباته ، آملاً بذلك أن يلقى في روع الرأي العام بروما أن التغييرات التي أحدثها ماهي إلا تغيير شكلي في

تنظيم الولايات الشرقية ، وإن هي إلا استمرار للسياسة الرومانية التي كانت تتبعها روما على الدوام في الشرق ، وهي خلق عمالك أسبوية ، يكون ملوكها في منزلة الحلفاء أو الأصدقاء (socii et amici) ثم فك مُعرى هذه الممالك وإعادتها من جديد . وفي أثناء العام الثاني أعنى عام ٣٣ ق.م نجد أنطونيوس يحاول الحصول من روما التي لطمها في كبرياتها ، والتي سخر بسلطتها ، وداس على كرامتها ، ونثر في الريج هيتها ، على موافقتها بمثلة في مجلسها الأعلى ، وهو السناتو على هباته التي منحها بالإسكندرية لكليوباترة وأبنائها . وقبل إعلان التقرير الرسمي على الملأ في روما تواترت الإشاعات على ألسنة الناس تحمل ذلك الخبر العظيم ، الذي قابله عامة الرومان بامتعاض عظيم . وفي الدوائر الرسمية بلغ السخط والحنق على مسلك أنطونيوس أشده . أما في الدوائر المالية لأنطونيوس فقد ساد القلق والخوف على سمعة أنطونيوس ، وأخذ المخلصون له يفكرون في وسيلة يخلصونه بها من كليوباترة ، ومن حبالها التي ظنوا أنها تنصبها له . وإن في إتفاق كل من المؤرخين بلوتارخوس ^(١) وديو ^(٢) في أن التقرير الرسمي لم ينشر في مجلس السناتو ما يؤيد القول بأن الرأي العام بلغ الغاية من الإمتعاض وعدم الرضاء . وكان من بين أعمال أنطونيوس في الإسكندرية تصرف واحد أصاب أكتافوس في موضع الحس منه ، وكان أكبر أسباب غضبه ، وذلك هو اعتراف أنطونيوس بقيصر وبناً شرعياً لقيصر . ولقد كان غضب أنطونيوس على أكتافيا وردها على أعقابها تتعثر في أذيال الخيبة والفشل ، ثم ما كان من أمر تعلقه وإرتباطه بكليوباترة ، ثم تصرفه الأخير بالإسكندرية ، وإغداقه على أولاده منها النعم والهبات — كل هذه أمور جعلت أكتافوس يوقن أن أنطونيوس ينوى شراً ، وأنه لن يتردد في أن يعلن عندما تلوح له الفرصة أن أكتافوس مغتصب لميراث قيصر . وكان الأمل إذاً في بقاء السلم بينهما أضعف ما يكون في هذه المرحلة ، إذ تبدد كل رجاء

() بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٥

(٢) ديو ، فصل ٤٩ ، ٤١

في تسوية الخلاف بينهما ، وأصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى ،
وخصوصاً أن أنطونيوس قد تعلق بكيويباترة التي كان أحب شيء إليها أن
تسقط حق أكتافيوس في وراثة قيصر ليحل محله في هذا الحق ابنها منه وهو
قيصرون - لذلك كان من مصلحة أكتافيوس أن يقيم العراقيل ضد أنطونيوس ،
ورغبته في إبرام أعماله في الشرق ، وأن يقضى على سمعته في الشرق بتحريض
السناطو حتى يرفض الموافقة على تصرفاته به .

ولقد انتهر أكتافيوس بشغف عظيم فرصة الأثر السيء الذي أحدثته
تصرفات أنطونيوس بالإسكندرية ، لكي يثير الرأي العام بالغرب في وجه
منافسه ، ولكي يمثل دور المدافع عن مصالح روما وتقاليدها . وبهذا أخذ تيار
الرأي العام في الانحياز شيئاً فشيئاً إلى صف أكتافيوس ، فقد كان يصور
أنطونيوس تصويراً معيماً فيشبهه بالصوص الذي يسلب أملاك بلاده ليقدمها
لقمة سائغة لامرأة مصرية . وفي الحال بدأت تتواتر الروايات بين الناس ،
وفيها يصور أنطونيوس بملك شرقي يعيش في الإسكندرية غارقاً في ملاذ
وشهواته ، وأشيع عنه أنه ثمل دائماً وقيل إن الملكة تستطيع أن تذهب عن
نفسها أثر الخمر بخاتم سحري من الياقوت ، يزيل عن لابسها غمّة الخمر ،
ويعيده إلى رشده أو صوابه . وفي هذا المعنى يقول الشاعر والكاتب اللاتيني
فلوروس (Florus) « إن كيويباترة طلبت من القائد الثمل أن يعطيها ملك
الدولة الرومانية ثمناً لحبها ، فوعدها ذلك كما لو كانت مهمة إخضاع الرومان
أسهل وأقل مشقة من إخضاع الفرس ... ناسياً بلاده واسمه ولباسه الروماني
وشارات حكمه . وبذلك انحط إلى الدرك الأسفل في فكره وشعوره
وردائه فأصبح ذلك الوحش الذي في يده صولجان ذهبي ، وبجانبه
سيف مقوس مرصع بالزمرد والياقوت . وملابسه الأرجوانية قد
زينت بالجواهر العظيمة وعلى رأسه تاج وقد صار ملكاً خليفاً بالملكة التي
« أحبها حباً جما »^(١) . ويذكر فيليوس (Velleius) أيضاً وهو مؤرخ

(١) فلوروس ، ٤ ، ١١ . عاش هذا الشاعر والكاتب في عصر الإمبراطور هادريان
وكان صديقاً له .

رومانى ، استهتار أنطونيوس وانغماسه فى الملاذ ومسلكه فى الإسكندرية فى ذلك الوقت ، فيصوره للناس بأنه كان يمثل فى الإسكندرية دور الإله «ديونيسوس» ويضع فوق رأسه إكليلا من اللبلاب ، ويلبس رداءاً أصفر من الذهب ، وقد قبض يديه على صولجان ، ثم يعمد إلى ركوب عربة كالتي يركبها الإله «باكوس» (إله الخمر)^(١) . ولا يقل المؤرخ «ديو» عن هذين الكاتبين الرومانيين فى تأثره بالعواطف ، وانسياقه وراء مرضاة الرأى العام ، فصور لنا أنطونيوس وقد أصبح أسيراً لكليوباترة ، يقبل منها تولى وظيفة بلدية متواضعة هى وظيفة رئيس الندوة الثقافية الرياضية وهى الجمنازيبارك ، ويحيط الملكة بحرس من الجند الرومان ويُسمى مركز رئاسة الجند «بالقصر» وصوره كذلك بأنه يُرى لابساً ملابس لا تتفق وعادات بلاده^(٢) . وإنه ليظهر لنا أن كل هذه الأراجيف حملة مدبرة للحط من شأن أنطونيوس ، وتشويه سمعته وسمعة كليوباترة بالتالى . ولاشك أن أنطونيوس لم يلق الإنصاف الذى يستحقه من أقلام الكتاب والمؤرخين الذين عاشوا فى صدر عصر الإمبراطورية الرومانية ، ونهج الكتاب من بعدهم على اتباع هذا الأسلوب المرعى فى كيل التهم ، وتشويه سمعة أنطونيوس والملكة من ورائه . وإنه لمن الأسف الشديد ألا توجد وسيلة تميز الحبيث من الطيب من هذه الروايات ، واستخلاص الحقائق مما عراها من دَخلٍ وزغلٍ ، واستخراج الحقائق الناصعة من وسط ذلك المحيط المظلم من التهم التى يكيلها المؤرخون الرومان جزافاً لعدو إمبراطور الدولة الرومانية الأول .

ومع هذه الحملة المدبرة على أنطونيوس ، كان لا يزال له كثير من الأعوان والمتعلقين به يعتقدون أنه هو الشخص الوحيد الذى يمكنه بما أوتي من قوة وعزم أن يعيد الجمهورية الرومانية إلى عهدها الأول . وكان يوجد من

(١) قيليوس ، ٢ ، ٨٢ — عاش هذا المؤرخ فى عصر الإمبراطور تيبيريوس وكتب موسوعة فى التاريخ الرومانى .
(٢) ديو ، ٥٠ ، ٥٠

بين المتحمسين لمذهب يوليوس فريق يدين بالرأى القائل بأن قيصرين .
أحق من أكتافيوس بأن يكون الوارث لقيصر ، وأن إتهام أكتافيوس .
لقيصر لم يعتمد إلا على إجراءات قضائية أصابت الشكل دون الجوهر ،
ولم تصب الصميم ، لأنه سبق إلى تسجيل الوصية الأولى ، وأخفى
الوصية الثانية التي قيل إنها تنسخ هذه الوصية في جوهرها . ولقد قيل
إن قيصر كتب وصية أخرى بعد الأولى ، وفيها يترك قيصرين .
وارثاً له ، ولكنها أخفيت بعد موته . وإذا جاز لنا أن نصدق « ديو » في
زعمه هذا ، فإن إقرار أنطونيوس بأن قيصرين هو الوارث الشرعي .
لقيصر كان الدافع الأكبر الذي جعل أكتافيوس يصر على الإلتجاء إلى
الحرب ، ولم تصادف محاولة أكتافيوس في أن يثير الرأى العام ضد أنطونيوس
كل ما كان يرجوه من النجاح ؛ إذ أظهر رجال السياسة شيئاً كثيراً من
التحفظ والحذر المقرونين بمقدار غير قليل من الجبن . ولربما كان هذا
الشعور ناتجاً عن عدم محبة الشعب الروماني لأكتافيوس ، أو لأن الرأى
العام لم يقتنع تماماً بأن أنطونيوس أصبح ملكاً شرقياً . ولم يسلم بأنه أصبح
كما يصوره أعداؤه آلة في يد كليوباترة ، تستخدمه في أغراضها إلى غير ذلك
من التهم التي كان لا يتورع منافسه عن أن يلصقها به . وهذا يبين لنا أن
أنطونيوس مع كل ما عمله قد احتفظ بولاء جنده له وبولاء كثير من أتباعه .
في مجلس الشيوخ وفي إيطاليا نفسها . وكان يظهر لهؤلاء جميعاً أن لديه
جيشاً عظيماً وقوة لا تقهر ، وأنه يملك أموالاً وثروة لا تقنى . وكان مركزه
كمملك شرقي أعظم بكثير من مركز أكتافيوس الذي ظهر ضعف قواته .
بشكل جلي في مفاوضاته التي تبعت رسائل أنطونيوس للقنصلين المنتخبين
لعام ٣٢ ق.م ؛ وكان أكتافيوس يصبو من صميم قلبه أن ينشر على الملأ رسائل
أنطونيوس أملاً بذلك أن يُشسوه من سمعة منافسه عند وقوف الشعب الروماني .
على محتوياتها ؛ ولكن القنصلين كانا يعلنان باتجاه شعور الرأى العام ، وتكهنات
بالنيات ، التي كانت تجول بخاطر أكتافيوس بخافاً من النتائج الوخيمة ، التي

تعود من حصوله على طلباته ، وأخيراً اتفقا فيما بينهما على أن تبلغ محتويات هذه الرسائل كما هي . على أن أكتافوريوس لم يُطَق صبراً فأعلن على الملأ معارضته لسياسة أنطونيوس في الشرق عندما انتخب قنصلاً للمرة الثانية في أول يناير سنة ٢٣ ، إذ أسرع بالعودة من حروبه في اللّيريّا لتسلم مقاليد هذه الوظيفة ، وعندما ترأس مجلس الشيوخ بصفته القنصل الجديد خطب خطبته الأولى حسب العادة التقليدية ، وفيها تناول السياسة العليا للدولة ، وهاجم لأول مرة أنطونيوس متندداً به وسرد حكاية هيامه في الإسكندرية وشفعها بالانتقاد اللاذع . وبعد مضي فترة قصيرة على هذه الحملة الشعواء في مجلس الشيوخ وهي التي يمكن اعتبارها مبدءاً للعداوة الرسمية ، استقال أكتافوريوس من منصب القنصلية وعاد إلى ميدان القتال في اللّيريّا . وعلى ذلك أصبحت أغراض ونوايا كل من الزعيمين واضحة جلية في هذه المرحلة ، وأصبح يجري الحوادث لعام ٢٣ ق.م يدل على أنه من الصعب جداً تجنب وقوع الحرب بين نصفي الدولة الرومانية ، وإعلان القطيعة بين روما ومصر . وإن ترتيب وقوع الحوادث ومقدار مالدينا من معلومات فيما يتعلق بالزراع في الدور الأخير ، على قدر عظيم من الضالة والتعقيد والإرتباك على نحو ما وصفها المؤرخون الأقدمون . الدرجة أنه من المستحيل على الحديثين أن يصلوا إلى كنه الحقيقة على سبيل اليقين ، وعلى ذلك اضطروا أن يلجئوا على الدوام إلى إعمال الحدس والتخمين في تفسير تصرفات كل من أنطونيوس وكليوباترة من ناحية وما ألمّ بهما من صعاب .

الفصل الخامس

الدور الحاسم في علاقة أنطونيوس بكليوباترة:

في ربيع عام ٣٣ زحف أنطونيوس إلى أرمينيا، آملاً في الظاهر أن يهزم الفرس، وأن يعيد هيئته المضاعة، وكان يظن أن غزو أرمينيا في السنة السالفة ما هو إلا مقدمة لازمة لانتهاذها قاعدة حرية للحملة الفارسية، ولكن لا يستطيع الإنسان الجزم بأنه كان لا يزال في نيته غزو بلاد الفرس؛ وإن أعماله عند وصوله إلى أرمينيا لتدل على أحد أمرين: إما أنه تبين له أنه لم يعد يقوى على تحمل هذا العمل، ولم يشعر برغبة في تكرار التعرض للأهوال التي صادفها في تقهره السابق، وإما أنه رأى أنه لا بد له أن يتدبر أمر قواته استعداداً لتنفيذ أمر آخر. وكان أنطونيوس قائماً بعقده تحالفاً مع ملك ميديا، الذي وعد أن يساعده ضد أكتافوس، نظير أن ينال جزءاً كبيراً من أرمينيا العظمى، وجزءاً من جند الرومان ليكون جبهة قوية في وجه الفرس، وفوق ذلك فإن الأميرة الصغيرة يوثابي خطيبة الإسكندر بن أنطونيوس تركت في رعاية أنطونيوس على أن تتعلم في الإسكندرية. وعقب لإنهاء المفاوضات، وعقد الاتفاق مع ملك ميديا وجه أنطونيوس وجهه شطر الغرب؛ ولكي يعد عدته للحرب المستقبلية مع أكتافوس أمر كانيديوس كراسوس أن يذهب على رأس قواته البرية إلى إفسوس، وكذلك أمر الفرسان الذين حصل عليهم من أرمينيا أن يلحقوا بهذه القوات، وطلب إلى حلفائه أن يرسلوا جندهم إلى إفسوس. أما عن التفاصيل المتعلقة بالطريق الذي اتبعه أنطونيوس في عودته من هذه الرحلة، فليس من السهل معرفته؛ إذ أن ترتيب الحوادث الزمنية التي ذكرها المؤرخون الأقدمون غير دقيق. فبعض الحوادث مقدمة عند مؤرخين ومؤخرة عند آخرين؛ وإذا كان أنطونيوس قد ذهب إلى إفسوس كما يزعم معظم المؤرخين، فلا بد أنه كان

يتولى قيادة جنده بنفسه إلى هذا المكان . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، إذ الواقع كما أشرنا يدل على أنه ترك مهمة القيادة إلى كراسوس . وإنه ليس من السهل التكهن بالسبب الذى من أجله أسرع إلى الإسكندرية ، وخصوصاً أنه كان مضطراً لأن ينتظر حضور كليوباترة التى أرسل في طلبها . ويرى المؤرخ الفرنسى بوشيه ليسكر ك أن الحملة على ميديا لا يمكن أن تكون قد احتاجت إلى وقت طويل ، إذ أن أنطونيوس كان يبغي من ورائها تحقيق أغراض سياسية فبعد إتمام مهمته عاد مسرعاً تاركاً قيادة جنده لكراسوس وقد زوّده بالآوامر لكي يزحف نحو بحر الأرخييل ، ولذا وجد لديه متسعاً من الوقت لتوصيل يوتابي خطيبة الإسكندر إلى الإسكندرية ^(١) . ومن ذلك إستنبط هذا المؤرخ الفرنسى ذلك السبب الوجه لزيارته للإسكندرية في هذا الوقت قبل ذهابه إلى إفسوس ، ومضى يسوق لتدعيم ذلك الإستنباط حججاً قيمة ولكنها غير حاسمة في الموضوع وغير مقنعة إقناعاً تاماً . وقد ذكر غيره من المؤرخين أن أنطونيوس ذهب رأساً من ميديا إلى إفسوس ، وسواء اتبعنا هذا الرأي أم ذاك فإن الأمر متعلق بالتفاصيل البحتة التى يتعذر الوصول إلى رأى حاسم فيها .

ولقد ظهرت صورة أنطونيوس وكليوباترة معاً على النقود التى سكّت في وقت يحتمل أن يكون بعد تجمع الجند في إفسوس مباشرة ، أى بعد سنة ٣٣ ق . م وكان سكها هذا تخليداً للذكرى فتح أرمينيا . وعلى هذه النقود سجل لقب كليوباترة الجديد « ملكة الملوك » . وإنه لمن الممكن أن نستنبط من هذه النقود التى تحمل صورتيهما معاً أن أنطونيوس كان من قبل قد احتفل بزواجه بكليوباترة . ويشير بعض الكتاب الحديثين إلى أن مُقَدِّم السفينة الذى صور على ظهر هذه النقود تحت رأس كليوباترة « يثبت تلك المساعدة التى قدمتها لأنطونيوس بإعداد أسطول حربى » وأن هذه العملة قد سكّت في عام ٣٢ ق . م ؛ ولكن لسوء الحظ لا تدل تلك العملة التى يعتمد

(١) بوشيه ليسكر ك ، تاريخ اللاجيديين — البطالة ، جزء ثان ص ٢٨١ — ٢٨٧

عليها فقره من العلماء في إثبات دعواهم دلالة قطعية على تاريخ زواجهما. ويشير
بلوتارخوس في هذا الخصوص إلى أن أنطونيوس بزواجه إمرأتين في نفس
الوقت قد فعل فعلة لم يقدم عليها رومانى من قبل ، كما يشير إلى أنه طرد
زوجته الأولى الشرعية من بيته ثم اجترأ على ما هو أشد من ذلك وأنكى
فطلقها كما يرضى إمرأة أجنبية تزوجها متحدياً بذلك قوانين الرومان
وتقاليدهم ومشاعرهم^(١).

ولقد اتفق الكاتبان يوتروبوس (Eutropus) ويوسيبوس (Eusebius)
مع بلوتارخوس في الرأي ، فأثبتا أن أنطونيوس تزوج من كليوباترة ، وطلق
أخت أكتافيوس (repudiata sorore Caesaris) ، ولوجعنا هذه الحقائق
التي أتفق كل من بلوتارخوس ويوسيبوس ويوتروبوس على صحتها وأضفتها
إلى تلك البيئة التي تقدمها العملة المسكوكة لا يمكننا أن نسلم باحتمال حصول
الزواج قبيل طلاق أكتافيا. وإذا جاز لنا أن نستنبط رأياً من كل هذه الاحتمالات
لقلنا إن هذا الزواج قد تم في الجزء الأخير من عام ٣٣ ق م أو في عام
٣٢ ق م . وقد انبرى مؤرخان حديثان هما كروماير وفريرو^(٢) لإثبات
دعواهما بحجج تقول بأن هذا الزواج قد تم في عام ٣٦ ق م ، ونحن نسلم بأنه
ليس من الممكن أن نأمل في اتفاق كل المؤرخين فيما يتعلق بهذا الزواج النظري
ما لم تظهر براهين جديدة من المصادر القديمة تؤيد بدرجة لا تحتل الشك
والجدل كل ما يتصل بهذا الزواج وتاريخ عقده. ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن
نقبل رأى فريرو وكروماير لما في ذلك من تجاوز كثير للحقائق التاريخية وتسليم
بأمور لا تؤيدها حجج دامغة مستندة إلى أسانيد قديمة صحيحة. وإن في عدم
وجود إشارات إلى هذه الواقعة الهامة في كتابات المؤرخين الذين كانوا

(١) بلوتارخوس ، مقارنة بين ديمتريوس وأنطونيوس ، ٤ ، ١

(٢) كروماير ، مجلة (Hermes) ، العددان ٢٩ ، ٣٣ من ٣٦ ؛ وفريرو ، جزء

معاصرين لعهد كليوباترة وأنطونيوس وأكتافوس لامراً غريباً أشد الغرابة. وإذا كان أنطونيوس بعد عقده معاهدة تارنتوم السالفة الذكر سنة ٣٦ ق.م وتجديده الحكم الثلاثي لمدة خمس سنين أخرى ، ترك زوجته وولديه ولم ينتظر ولو بضعة أشهر وأقدم على عقد زواج لا يُقره القانون الروماني لجمعه بين زوجتين في وقت واحد ، وهو في الوقت نفسه أمر لا يحتمله الرومان ولا يصبرون عليه، فمن الغريب ألا توجد أية إشارة إلى هذا الزواج فيما دونه كتاب العصر الذهبي الأغسطي، وهم الذين كانوا معادين لأنطونيوس وكليوباترة أشد العداء ، ويمثلون بوق الدعاية المسمومة ضدّهما في عصر الإباطرة اليوليين - الكلوديين من أول عهد أغسطس حتى نهاية حكم نيرون. وإنه لمن غير المعقول جداً أن يبقى أمر ذلك الزواج سراً مكتوماً ؛ إذ أن خبر زواج مخالف للقانون الروماني، أقدم عليه ثاني اثنين كانا قابضين على زمام الأمور في الدولة الرومانية لمن الصعب إخفاؤه ، وخصوصاً أنه كان لأنطونيوس أعداء في الشام ، وآخرون محايدين لا يمكن أن يغفلوا عن الإشارة إلى هذه الفضيحة . وفوق ذلك فإنه من غير المعقول أيضاً أن يكون أكتافوس - إذا كان قد وصل لعله خبر هذا الزواج - قد سمح لأخته في سنة ٣٥ ق.م أعني بعد مضي سنة على هذا الزواج المزعوم ، بزيارة زوجها العاق الذي تزوج منافستها .

وإذا كان أنطونيوس قد تجاسر بالإقدام على هذه الخطوة التي كان لابد ناتج عنها قطع العلاقات بينه وبين بني وطنه أدياً ومعنوياً، فإن الحوادث حينئذ ما كانت تأخذ ذلك المجرى البطيء الذي أخذته بين وصول أنطونيوس إلى سوريا في صيف عام ٣٧ ق.م ونشوب الحرب في أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ومن أجل كل هذه الأسباب نكتفي بالوصول إلى هذه النتيجة غير القاطعة بأن هذا الزواج حدث في سنة ٣٣-٣٢ ق.م وليس قبل ذلك بأربعة أعوام. وإذا حاولنا تعرف خطط أنطونيوس في هذه المرحلة إزاء كليوباترة فلا بد أن نقول: إنه ظن عند تخرج الظروف إلى هذا الحد أن المعركة لابد واقعة

بينه وبين أكتافوس عما قريب. وإنه لمن حسن السياسة أن يسوَّى مركزه ويقوى علاقته من الوجهة الشرعية بكلوباترة حتى يمكنه أن يكون ذا مركز قوى في الشرق. ولا بد أنه كان يعلم حق العلم أن علاقته غير الشرعية بالملكة وتوزيع الأقاليم الرومانية على أولادها يمثل هذا السخاء مُذهب بشعور الرومان، ومثير لغضب الرأي العام في إيطاليا عليه. وبموازنته بين هذين الأمرين رَجَّح لديه أن يواجه بتلك المملكة الشرقية يكسبه قوة عظيمة، ويُعَلَى من شأن مركزه في الشرق، ويجعل كليوباترة تضع ثروتها العظيمة وكنوزها الكبيرة تحت تصرفه. وإنه في المعركة الهائية التي ستخذه حتماً شكل نزاع بين الشرق والغرب، يُصبح أمراً طبيعياً أن يلذف الشرق حول أنطونيوس كزوج للملكة شرقية، فتحالفهما إذاً في هذه المرحلة كان أمراً طبيعياً، وزواجهما كان ذا مغزى سياسى بقدر ما كان ناشئاً عن أسباب غرامية.

وكان أنطونيوس في نظرها الخليفة الحقيقي لقيصر، الذى يمكنها أن تأتمنه، وتثق فيه، وتطمئن إلى أنه لن يُخَيَّب ظنّها في الانتصار لقضية إنها ضد أكتافوس عدوها المشترك، وكان من مصلحتهما المشتركة أن يتم التضامن على هذا النحو. أما موقف أنطونيوس عندما أمر بحشد قواته في إفسوس، فكان قوياً ثابت الأركان، وكان من الجلى لكل شرقى أن أنطونيوس كان يعمل بالاشتراك مع مصر، وكان على أتم وفاق وتحالف مع كليوباترة، كما أنه كان واضحاً جلياً أنها كانت زوجته الشرعية، وكان الجميع يعلمون أنه إذا كتب له النجاح في هذا النزاع فسيدخل روما دخول المنتصر الظافر وبجانبه الملكة، وربما أعلن نفسه ملكاً بالاشتراك مع كليوباترة، وأسس مُلكاً لأسرته من بعده على هذه الإمبراطورية المستقبلية، ولكن يظهر أنه في الوقت نفسه كان يفكر في تأسيس ملكية في روما، مع أنه كان يكثر من القول بأنه يود إعادة الجمهورية الرومانية إلى شأنها الأول. وحجته التي كان يدعم بها سياسته أنه كان يقول إنه يحارب لتنفيذ رغبات الدكاتور العظيم، وليخلص الرومان من حكم أكتافوس الغاصب، وعلى ذلك أمكن (م ٦ - كليوباترة)

أن تلتقى مصالح أنطونيوس وكليوباترة فأخرجاً مشروعاً مقبولاً يأخذ بلب الجماهير ، ويحقق آمال أعوانه من الرومان ومن الشرق .

وبينما كانا ينتظران حلول شهر يناير سنة ٣٢ ق.م وهو الميعاد الذى تنتهى فيه الحكومة الثلاثية وتسقط تلقائياً ، لأن أحداً منهما لم يكن راغباً فى تجديدهما وبعده يبدأ العداء بشكل ظاهر جلى ، قضى الزعيمان المتنافسان الوقت فى تبادل رسائل الشتائم والتنديد ، وعلى ذلك سبق إعلان الحرب النهائى تبادل هذه الرسائل المهينة بين هذين الصهرين ، ولقد زادت الكراهية بين الإثنين ، ووجد من الأسباب الكثيرة ما زاد نيرانها اضطراباً حتى أصبحت تنلظى . ولقد خلد لنا المؤرخ سويتونيوس (Suetonius) اقتباساً من كتاب أنطونيوس رداً على كتاب كان قد بعثه إليه أكتافيوس فى الشتاء السابق يشكو منه عدة أمور ، وفى هذا الخطاب (١) الشيء الكثير من فحش القول فأشار أنطونيوس فيه إلى أكثر المسائل دقة بوضوح وجلالة عظيمين لا نظير بمثلهما فى غير اللغة اللاتينية . ولم يترفع عن أن يستعمل أخط العبارات والشتائم ، فجاء كتابه جامعا لكل سفساف ومبتذل ، ما الذى جعلك تتغير وتنقلب ؟ ألانى متصل بالملكة ؟ إنها زوجتى ! وهل علاقتى بها ابتدأت الآن أم مستمرة من منذ تسعة أعوام ؟ ولقد حاول العالم كروماير (٢) أن يستنتج من هذا الخطاب تاريخ بدء هذه المراسلات الخاصة ، وتاريخ ذلك الخطاب الذى اقتبس منه سويتونيوس . ويظهر أنطونيوس فى هذا الخطاب دهشته من اتهام أكتافيوس له بالتفريط ، وتأنيبه له بسبب علاقته مع الملكة ، وخصوصاً أنها بدأت منذ تسع سنين . وإن بدء هذه العلاقة مع الملكة لا يمكن أن يكون قد حصل قبل ربيع عام ٤١ ق.م ، فىكون العام التاسع ربيع عام ٣٣ ق.م ولا يمكن أن يكون قد تبودلت خطابات الهجاء بينها قبل هذا التاريخ ؛ وهذا

(١) سويتونيوس ، حياة أغسطس ، ٦٩

(٢) كروماير فى مجلة هرميز (Hermes) ، العدد رقم ٣٣ ، ص ٣٥ — ٣٧

الخطاب الذي نحن بصدده الآن قد أرسل في الأيام الأولى من هذه المراسلات التي يمكن تعيين بدءها على وجه التقريب في شتاء عام ٣٤ - ٣٣ ق م. وبما لا يحتاج إلى برهان أن هذه الرسائل الخاصة قد كتبت قبل تبادل المكاتبات الرسمية التي أعلن فيها كل منهما إتهاماته للآخر ، فكان أكتافوس يندد في مجلس الشيوخ وأمام الشعب الروماني بسياسة أنطونيوس في الشرق ، وكان أنطونيوس يجاوبه في رسائل عامة مبنياً أن أكتافوس أغفل زميله ، ولم يوف بالوعد الذي قطعه على نفسه في عام ٣٧ ق م ، ولم يكن عادلاً في تقسيم جميع الأراضي الإيطالية بين جنده وحده فلم يترك شبراً من الأرض لجند زميله أنطونيوس ، ولقد أخفمه أكتافوس باتهامه بأنه ألحق العار بالرومان لخداعه ملك أرمينيا في جملة على بلاده وأسره لارتاواسديس بتلك الطريقة القاسية ، وهو صديق وحليف للجمهورية الرومانية ، كما اتهمه بامتلاكه مصر وأرمينيا بدون اقتسامهما مع زميله ، وإعطائه نصيبه فيها ، ولامه أشد اللوم على منحه ألقاب الشرف للملكة كليوباترة وأولادها وإهدائهم أقاليم رومانية ، ولقد أبان له شديد استيائه من سوء تصرفه بانتصاره لقيصريون ، وإعلانه المطالبة بحقوقه في عرش أبيه قيصر فأنبه على إعلانه ، واعتزافه بينوة قيصريون الحقيقية من قيصر ، وأنه الوارث الحقيقي ، وذكر أنه بفعلته هذه أساء إلى سمعة قيصر العظيم في قبره ^(١) .

ولقد سلك أنطونيوس نفس الخطة التي اتبعها قيصر مع زميله بيمبي في عام ٥٠ ق م ، فكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني مقترحاً أن يعتزل سلطته على شريطة أن يجاوبه أكتافوس بالمثل ، وكانت هذه الخطة مجرد سياسة مدبرة ، يقصد بها كسب محبة الشعب الروماني ، وأن يعيد إلى أذهان الرومان ذكرى أيام بيمبي وقيصر عندما كانت تتخذ هذه الخطط وسائل لكسب ثقة الشعب . ولقد بين المؤرخ ديو الدافع الذي حمل أنطونيوس على سلوك هذا السبيل ، وهو اقتراحه اعتزال كل من الإثنين الحكم الثلاثي في الوقت نفسه ، بأن أنطونيوس كان

(١) ديو ، ٥٠ ، ١ ، ٢ ؛ بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٥ ، ٥٦ .

يقصد بذلك أن يجرد عدوه من كل أمل في تجديد قوته ، وتجريده من سلطته في الوقت الذي سيستمر فيه أنطونيوس حافطاً لمركزه في الشرق ، متخذاً من مصر وملكتها كليونباترة تكأة يستمد منها موارده ، ويعتصم بها إذا ما تأزمت الأمور . على أنه في حالة رفض أكتافيوس إقترح زميله سيجر عليه منخط الشعب الروماني^(١) ، وبذلك تتاح لأنطونيوس الفرصة في أن يقف موقف المدافع عن حرية الشعب الروماني التي اعتدى عليها زميله ، وتنبأ له الأسباب التي تمكنه من أن يقضى على سلطة أكتافيوس الإستبدادية ، فيصير سيد العالم الروماني بمفرده ، ويحقق لـكليونباترة أمانها بالتبعية . وزيادة على ذلك فإن قوات أنطونيوس التي تجمعت في إفسوس ستكسب مطلبه قوة ، ولكن حساب أنطونيوس قد اخطأ إذ أجاب أكتافيوس بأنه يود من صميم قلبه أن يحضر أنطونيوس إلى روما ، ويشترك معه في إعادة نظام الحكم الجمهوري ، وفض الحكم الثلاثي ، وكان يعلم حقاً أن أنطونيوس لن يأبه لطلباته ، وأن عدم اكترائه هذا سيفيده في إظهار أنطونيوس للشعب الروماني بمظهر من ينقصه الإخلاص ، وأنه كان في نيته وأغراضه هازلاً غير جاد .

وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه هذه المكاتبات ، كان أنطونيوس بعد العدة ويبنى الأسطول ، ويحشد الجند ، ويجمع الأموال مظهرأ أن كل ذلك لفرض آخر ، وهو في الحقيقة يتأهب للحرب المقبلة^(٢) . وكانت كليونباترة بالطبع ضالعة في كل هذا ، وهي العباد الذي اتخذ أنطونيوس في برنامج العدواني ضد روما . وفي يناير سنة ٣٢ ق . م استحكمت حلقات الأزمة ، إذ انقضت مدة الحكومة الثلاثية ، ولم يتقدم أحد منها بإقترح تجديد لها لمدة أخرى ، وبدأ في أول يناير كل من القنصلين للعام الجديد وهما دوميثيوس وسوميوس من أتباع أنطونيوس ، يباشران سلطتهما^(٣) . ولما التأم عقد

(١) ديو ، ٤٩ ، ٤٦ ، ٦

(٢) ديو ، ٥٠ ، ٢

(٣) ديو ، ٥٠ ، ٢

اجتماع مجلس الشيوخ الروماني تحت رئاستها بدأ سوسسيوس سنته الرسمية بخطبة رنانة ، يؤيد فيها سياسة أنطونيوس ، ويندد بسياسة أكتافيوس ، ويصب عليه جام غضبه ، وكان الأخير غائبا عن روما في ذلك الوقت ، ويؤكد « ديو » أن سوسسيوس كان لا شك سيقدم اقتراحاً في غير مصلحة أكتافيوس ، لولا أن عارض أحد زعماء الشعب ونقبائه من الترابنة ^(١) . وعلى أثر ذلك عاد أكتافيوس مسرعاً إلى المدينة ، ودعا مجلس الشيوخ للانعقاد ، ولو أنه لم يكن ليملك هذا الحق من الوجهة القانونية ، ولكنه ارتكن على مركزه وسمعته العالية ، ولذا تأكد أن دعوته ستجد آذاناً واعية فدخل روما ومعه جماعة من الجنود ونفر من الأصدقاء الذين كانوا يحملون الخناجر في طيات ملابسهم . ولما اجتمع المجلس جلس أكتافيوس بين القناصل ، ودافع عن نفسه بعبارة ملؤها التواضع المتصنع ، ثم هاجم سوسسيوس وأنطونيوس ، وفند سياستهما ، وذكر يوماً معينا وعد أن يبرز فيه البراهين المؤيدة بالوثائق ليثبت صدق قوله . أما القنصلان فقد استولى على قلبيهما الرعب لعدم توقعهما هذه الصدمة ، فلم يجرأ سأكناً للدفاع عن أنطونيوس ، إذ كانا بوصفهما قنصلين داخل حوائط روما لا يملكان قوة عسكرية يستندان إليها ، في حين أن أكتافيوس كان تحت سلطانه كل الجيوش بإيطاليا ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانا بعيدين كل البعد عن حليفهما المسلح ، ولما شعرا بضعف مركزهما وعجزا عن أن يجدا لأنفسهما مخرجاً من هذا المأزق تحاشيا الاصطدام مع أكتافيوس . وكانا يشعران أن هذا لابد واقع ما دام بروما ، فانسلا في الخفاء من المدينة قبل اليوم الذي ضربه أكتافيوس موعداً لإبراز ما لديه من يئسنة وأسرها للحاق بحاميهما وولى نعمتهما في الشرق وتبعهما عدد من أعضاء مجلس الشيوخ يبلغ ثلثمائة كانت تحوم شبهة أكتافيوس نحوهم أو كان لديهم من الأسباب ما جعلهم يخافون بطش أكتافيوس . ولما علم أكتافيوس برحيل أعضاء مجلس

(١) ديو ، ٥٠ ، ٢ : بوشيه ليسكرك . تاريخ الالاجيديين ، البطالة ، جزء ثان ص ٢٨٥

الشيوخ لم يدركيف يعالج الموقف ، وأعلن أنه منح الفارين الإذن بالرحيل ، وأنه مستعد للسماح بالخروج لكل من يفضله .

وفي ربيع عام ٣٢ ق.م وصل أعضاء مجلس الشيوخ الفارين إلى إفسوس ، ولكن بمجرد وصولهم بدأ القلق يدب في المعسكر ؛ إذ دهشوا لوجود كليوباترة في المدينة ، وخصوصاً أنها كانت تتمتع بنصيب كبير من القوة والسلطة أثار سخطهم ، وأذهلتهم هذه الحال التي تبنوها بأنفسهم عند حضورهم . ولقد تعذر عليهم أن يدركوا كيف تكون ملكة مصر بخيلها ورَجُلِها وأموالها التي كانت تقدمها عن سعة للصراف على مايجرى من الحوادث ، تمها حرب يدعى أنصارها ، إن صدقاً وإن كذباً ، أنها لإعادة النظام الجمهورى في روما . وبعد أن تبنوا غوامض الأمور ، أدرك كثير منهم في وقت قصير أن أنطونيوس وهو الحاكم المستبد « الاتوقراطى » بالشرق وزوج كليوباترة لم يكن يُرجى أن يتم على يديه إعادة الحكومة الجمهورية في روما . ولقد أصر دوميشيوس أهينو باربوس على عدم الاعتراف لكليوباترة بحقها في السلطة والسطوة التي بلغتها ، ولم يقبل أن ينطق بألقاب الشرف عند مخاطبتها ، بل كان على الدوام يناديها باسمها المجرد ونصح لأنطونيوس أن يرسلها إلى مصر ^(١) ؛ وأوشك أنطونيوس أن يقبل النصيحة التي قدمها له . دوميشيوس ، وبعض أعضاء « السناتو » البارزين وكاد يعدها عن المعسكر ويأمرها بالعودة إلى مصر ، ولكن لم يكن من طبع كليوباترة التردد في الوقت الذي كانت تشعر فيه أن نفوذها في خطر ، وكان من حسن حظها أن يجانبها مورداً ومعيناً من المال لا ينضب ولا يعجز عن أن يوجد لها كما أوجد لآبيها من قبل المحامين الذين يدافعون عنها ، إذ قيل إنها قد رشت شخصاً يدعى بوبليوس كانيديوس (Publius Canidius) لكي يدافع عن وجهة نظرها . فأبان لأنطونيوس أن الأسطول المصرى يبذل أقصى الجهود ، ويتفانى في الحرب إلى أبعد مدى إذا كان تحت ظل ملكته ، وبسّين لأنطونيوس أنها

(١) بلوتارخوس ، حياة أبليونيوس ، ٥٦ ؛ فيليوس (Velleius) ، ٢ ، ٨٤ .

قدّمت مساعدات عظيمة في سبيل تهيئة الجيوش والقوات التي لزمّت لهذه الحرب^(١). وبمثل هذه البراهين ساد الرأي المناصر لها ، وسقط رأى دوميشيوس ، وبقيت الملكة مع أنطونيوس . وهنا يجب أن نسجل على أنطونيوس ارتكابه خطأ عظيماً بإبقائه الملكة معه في المعسكر ، فقد أدى هذا إلى سلسلة أخطاء أخرى وقع فيها . إذ أن وجود كليوباترة في إفسوس ، وتدخلها في شئون الحرب ، وتصريف ما يتصل بها من أمور كانت من صميم اختصاص قادة الرومان ، كان سبباً في انقراض كثير من أعضاء الشيوخ من حول أنطونيوس بعد أن كانوا مؤيدين له حتى هذه المرحلة . وبدءوا ينقسمون إلى شعبتين متميزتين ، ففريق يريد الحرب ويؤيد أنطونيوس في كل مشروعاته ، في حين أن الفريق الآخر يروم السلم حتى ولو كان ذلك على حساب كليوباترة ، ولا يتردد الفريق الأخير في تقديم كليوباترة فداءً بأي ثمن كان ولو كان بخساً ، ولكنها أجمعت رأيها على أن تضطر أنطونيوس أن يقدم على أمر يجعل استمرار السلام بينه وبين أكتايوس مستحيلاً ، فلم تدخر وسعاً في استعمال كل ما أوتيت من قوة وحيلة في التأثير في زوجها ، وإغرائه بأن يطّلق أكتايا . وهذه تكون لطمة كبيرة لأكتايوس لا ينفع في نحو أثرها إعتذاره ، وبذا تجعل الصلح أمراً مستحيلاً . وكان موضوع الطلاق مشكلة تضاربت بصدها الآراء بين الجانبين الروماني والمصري ، ولقد كسبت الملكة لصفها بفضل الأصفر الرنان بعض الرومان الذين لم يترفعوا عن أن يقبلوا مالها ، وهؤلاء كانوا قوة في جانبها ، انتفعت بنفوذهم في التأثير في أنطونيوس ليقدم على هذه الخطوة الجريئة . وكان أكثر الجانب الروماني في صف أكتايا يعارض فكرة طلاقها ويبين أنه لو حصل لا وجد من الخلاف هوة صحيحة لا تسد . ولما أن أزجحت أنطونيوس كل هذه النصائح المتضاربة ، صمم أن يؤجل البت في هذا الأمر لفرصة أخرى وتقدم إلى الغرب فعبر البحر إلى بلاد اليونان ، تاركاً جزءاً من جيشه في آسيا

(١) بولوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٦ ، ٢

الصغرى . وعندما وصل إلى أثينا بلغه نبأ خطبة ألقاها أكتافوس في مجلس الشيوخ الروماني^(١)، ولكن لم يصل إلى أيدينا جزاؤها . وكل ما نعلمه عنها أنها أثارت أنطونيوس ، واستفزته لدرجة جعلته يصمم على أن يعلن عن خطته في غير تورية ولا مداراة ، فجمع مجلساً من أعضاء الشيوخ الذين كانوا معه ، وعرض الأمر عليهم ، وبعد حوار طويل مع من كانوا يرومون الصلح وإصلاح ذات البين ، والذين كانوا يعتقدون أن الطلاق لا بد مؤدياً لإعلان الحرب وبين من أخذ يلبسهم مال كليوباترة ، ومالوا إليها كل الميل ، وصاروا يرون بمنظارها — بعد ذلك الحوار صمم أنطونيوس على الحرب ، وقطع العلاقة بينه وبين أكتافيا بطلاقها فأمضى خطاب طلاقها وأرسل رسلاً من قبله لروما ، يُعلمونها بالأمر ، ويطلبون إليها أن ترحل عن منزلها^(٢) ؛ وفي الوقت نفسه أمر جنده العسكريين بإفسوس أن يبحروا إلى بلاد اليونان ، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب ، وقطع نهائياً للعلاقات بينه وبين أكتافوس . ولقد كان في مسلكه هذا هزيمة للحزب الروماني ، وانتصار لكليوباترة التي شمتحت بأنفها تيباً وعجباً بنفسها ، وفرحاً بفوزها المبين . وإن الإنسان ليرى يدها تحرك دقة الأمور من وراء ستار ، ولا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يبرئها من تحريض أنطونيوس على اتخاذ هذا المسلك إذ أنها كانت هي الوحيدة التي استفادت من قطع العلاقات . فإنه مادام لأنطونيوس زوجة شرعية بجانب كليوباترة كان من المستحيل على اليونان والرومان أن ينظروا إليها أكثر من أنها حظيته ، فطلاقاً أكتافيا إذاً كان يقصد به تسوية حالتها وثبیت مكانتها بجعلها زوجة شرعية . ولكن هذه المعاملة القاسية لأكتافيا، تلك السيدة التي كسبت قلوب الناس إليها بطبعها الهادىء وإخلاصها لزوجها العاق، قد صرفت من حول أنطونيوس عدداً كبيراً من المؤيدين له الذين لم يصعب عليهم أن يروا في هذا التصرف برهاناً قاطعاً على تعلقه

(١) ديو ، ٤٠ ، ٣ ، ٢

(٢) ديو ، ٤٠ ، ٣ ، ٢ ؛ بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ٥٧ ؛ مختصر ليفي ١٣٢ ؛

يوتروبيوس ، ٦ ، ٧ ؛ أوريوسوس ٦ ، ١٩ ، ٤

الشديد ، ووقوعه التام تحت نفوذ وسلطان تلك الملكة المصرية . ولم ينس أكتافيوس أن يتخذ من طلاق أنطونيوس لاكتافيا سلاحاً ماضياً في المعركة السياسية بينهما ، فأهاب بالرومان ألا يتأخروا عن إظهار سخطهم ضد الأجانب الذين من أجلهم طلق أنطونيوس زوجته الشرعية ، فكأنما قدم له أنطونيوس السلاح الماضى الذى به يمكن عدوه من التأثير في عقول أتباعه ، وإثارة ثائرتهم ضد الأجانب ، أعداء روما ، وسبب أزماتها ومخبتها الحالية ؛ فانسأقت الجموع إليه ونفت فيهم روح العداء ضد خصمه ليصبوا عليه جام غضبهم .

كليوباترة وقيصرون في وصية أنطونيوس

وفي هذه المرحلة وقعت واقعة كان لها أثرها في الخلاف المحتدم ، وذلك أن تيتيوس (Titius) وبلانكوس (Plancus) وهما من رجال حزب أنطونيوس البارزين ، وكانا يكرهان الملكة لأسباب شخصية ، ويكيدان لها كل الكيد ، ويعملان على عرقلة أطامتها وسياستها ، هجرا حزبه وأنضميا لاكتافيوس ، ولقد كانا متصلين اتصالاً وثيقاً بأنطونيوس ، وعلى علم تام بكل أسرارِهِ ونياته ، وكانا شاهدي عدل حضرا كتابة أنطونيوس وصيته التى أودع صورة منها بمعبد الإلهة فستا (Vesta) بروما ؛ ولكي يكيدا لأنطونيوس أخبرا أكتافيوس بما تحتويه هذه الوصية ، فطلب إلى العذارى حارسات معبد الإلهة أن يسلمنه الوصية ، ولكنهن رفضن ، وعلى ذلك أسرع إلى المعبد واستولى على الوصية بالقوة ، وجمع مجلس الشيوخ ، وأطلعه أولاً على محتوياتها ، وبعد ذلك أطلع الشعب الرومانى المجتمع في سوق المدينة (الفورم) عليها . وكان أنطونيوس يصرح في هذه الوصية الأخيرة والوثيقة الغدّة أن يوليوس قيصر هو والد قيصرون ، وأنه يترك بعد موته إراثاً عظيماً وأراضى كثيرة هبة منه لقيصرون ولأبناء كليوباترة الآخرين ، وكان يطلب في هذه الوصية أنه في حالة وفاته في روما يحتفل بجثته في « الفورم » ثم تحمل بعد ذلك

باحتيال رسمي مهيب إلى الإسكندرية حيث تدفن بجوار كليوباترة^(١) . ولقد استفاد أكتافيوس فائدة جلية من تصريح أنطونيوس الخاص بأمر دفنه ، فألهم عقول الرومان ولوح به أمام أعينهم ليكون برهاناً حسيماً قدمه أنطونيوس بخط يده يتبرأ فيه من الشعب الروماني حتى بعد مماته . ويشك العالم الكبير رستوتقزف في صحة هذه الوصية ، ويجد من الصعوبة بمكان « أن نصدق صحة هذه الوثيقة ما لم نعلم بأن أنطونيوس كان في الواقع قد فقد صوابه ، واعتراه الخبل »^(٢) . وفي البرهنة على صحة ذلك الرأي والدفاع عن نظريته مضى ذلك المؤرخ يقول « إنني لا أستطيع أن أتصور هذه الوصية المنسوبة إلى أنطونيوس إلا مزورة أخرجهما بنات أفكار أكتافيوس أغسطس وموناتوس بلانكوس وتيتوس ، الصديقين القديمين لأنطونيوس ، وليس بعجيب على أكتافيوس أن يلجأ إلى تزوير وثيقة لا يمكن لغير مجنون أن يرسلها إلى روما لتحفظ في معبد الإلهة فستا ... وإذا فرضنا أن أنطونيوس احتج على جرأة أكتافيوس هذه فإن هذه الاحتجاجات لا بد أن يكون قد ضرب بها عرض الحائط ، ولم يبق لها الناس وزناً ، ثم مالبث هذا الصوت الخافت أن ضاع وسط الحرب وعجيجها ، وإنه لمن المسلم به أن هذه الوصية كانت ذات فائدة عظيمة لأكتافيوس الذي لا بد أنه قد اعتمد عليها في إثارة شعور الرومان في وجه عدويه : أنطونيوس وكليوباترة . وهذا ما يبرر لدرجة عظيمة احتمال صحة رأى العالم رستوتقزف في إحاطة أمر هذه الوثيقة بسياج من الشك ، ولكننا إذا فحصنا الأمر وصرفناه على وجوهه المختلفة نجد أن هذا الشك الذي أثاره العالم الروسي لا يقوم على دعائم قوية ، وبراهين قاطعة — ويفتقر إلى كثير من الحجج القوية التي تثبتته ؛ هذا مع أن رأيه الذي بسطه يبدو باديء الأمر خلافاً يأخذ بلب سامعيه لأول وهلة .

(١) فيليوس ، ٢ ، ٨٣ ، ١ — ٢ ؛ پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٨ ، ٢ ؛

سوتونيوس ، حياة أغسطس ، ١٧ ؛ ديو ، ٥٠ ، ٣ ، ٢ —

(٢) رستوتقزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعية والاقتصادية ، الفصل الأول

ص ٥٦ ثم هامش رقم ٢٤ من الجزء الثاني ، ترجمة زكي على ومحمد سليم سالم .

وها نحن أولاء نسوق هذه الاعتراضات التي تدحض رأى العالم الروسى .
وتثبت صحة هذه الوثيقة ، وأنها من مخلفات أنطونيوس ، فإننا إذا فحصنا
محتويات تلك الوثيقة المشكوك فيها في زعم رستوفتزف ، وجدنا أن
ما جاء بها عبارة عن تكرار لما سبق أن أرسله أنطونيوس في رسائله
لمجلس الشيوخ للتصديق عليه في عام ٣٤ - ٣٣ ق . م . وإذا استثنينا العبارة
الخاصة بتعليقات أنطونيوس إزاء دفنه ، فإن الوصية في جوهرها عبارة عن هذه
الرسائل التي أرسلت لروما قبل انفضاض كل من بلانكوس وتيتيوس من
حواله ، وتسألهم إلى معسكر عدوه ؛ ولا يمكن أن تكون هذه العبارة التي
جاءت بالوصية خاصة بدفنه مثيرة لسخط الرومان عليه بقدر ما كانت تثيرهم
الهبات العظيمة التي أسبغها على أبناء كليوباترة . ولم يكن أمر هذه الهبات سراً
مكتوناً أخفاه أنطونيوس ، بل لأنه أمر وكلاءه أن يعلنوا هذه الرسائل
على مسامع مجلس الشيوخ في روما ، ويرجع الفضل لحكمة هؤلاء الوكلاء
في أن هذه التنديرات التي أتتها أنطونيوس طويت في زوايا الكتان .
وفوق ذلك إذا سلطنا جدلاً بأن أكتافوس وبلانكوس وتيتيوس قد دبروا
هذه المكيدة لأنطونيوس ، وأخفوا معالم الوصية الحقيقية وزوروا أخرى ،
فإن حارسات معبد الإلهة هفستا ، حيث كانت الوثيقة الحقيقية في حوزتهن ،
لم يكن ليسكن على ذلك ، بل كن يبادرن بالكشف عن كنه الأمور وإعلان
أن الوصية مزورة . وعلى ضوء هذه الحقائق تنجاب الشكوك التي أثارها
العالم رستوفتزف ، ومنها زعمه أن الوصية مزورة ، وتكون النتيجة الختمية
التي يمكن استخلاصها أنه لا يصح تسرب الشك في صدق هذه الوصية ،
وأنها من صنع يد أنطونيوس ، وأن كليوباترة هي المدبرة لكل هذه الخطط
وصاحبة المصلحة الأولى فيها .

وإن الاستيلاء على هذه الوصية وإعلان محتوياتها كإن عملاً سياسياً
موفقاً من جانب أكتافوس ، فعم السخط وروما وثار الناس وصبوا اللعنات
على أنطونيوس الذي جالت بخاطره أطماع غير رومانية ، وسلك مسلكاً

لا يلقى بروماني ، وبلغ غضبهم درجة جعلتهم يسارعون إلى تصديق كل ما كانت تلوّكه ألسنة الناس من الحكايات عنه . وتواترت على ألسنة الناس القصص والروايات عن مسلكه ، وقابلها الناس بالتصديق ، لا يفرقون بين معقول وغير معقول ، وبلغ الأمر أن كان بعض هذه الحكايات بغياً مبتدلاً ، به من فحش القول الشيء الكثير عن بلاط الإسكندرية ، ومسلك أنطونيوس وكليوباترة .

وكانت النهم تكال جزافاً للمسلكة كليوباترة التي قيل إنها كانت مسيطرة سيطرة تامة على أنطونيوس ، مستعملة في ذلك مشروبات سحرية أعدها السحرة لتدسها لأنطونيوس حتى إذا ما شرّ بها تملكه حبها وأعماه عن أن يرى بغير ناظرها . وكان من بين الحكايات التي أشيعت عنها وتناقلتها الألسن أنها كانت تطمع في القضاء على الكاينبول وإخضاع روما لتكون تابعة لمصر ونقل عاصمة العالم الروماني إلى الإسكندرية ^(١) . ولقد انتشرت هذه الرواية بعد أن أدخل عليها ما كان يُراد على مثيلاتها من التلفيقات والتغييرات بما يتفق مع هوى خصوم أنطونيوس وما يصادف قبولاً حسناً من لديهم ^(٢) . ولقد وصف المؤرخ الفرنسي بوشيه ليكنارك هذا الموقف بقوله : إن روما قد وهبت مهراً لكليوباترة . وبذلك أصبحت تابعة لهذه الأجنبية إذ قدمها أحد أبنائها وحماها نخلة — عطاء — لبني — عظية قد أكرمت مشواه وآثرته على غيره وأسبغت عليه من الفضل ما ألهج لسانه بالحمد والثناء — لقد طمعت مصر أن تتحكم في روما وتملي إرادتها على من بالكاينبول ، غير آبهة بذكرى أجدادهم العظماء وساخرة من الضعف والجبن اللذين استوليا على قلوب جيل ذلك العصر — ألم يكن كل هذا كافياً لكي يوقظ عزة النفس

(١) ديو ، ٥٠ ، ٤٤ ، ٥٥

(٢) هوراس ، الأنشودة الأولى ، ٣٧ ، ٦ ، ١٢ ؛ بروتوريوس ٣ ، ٢ ، ٣١ — ٤٢

فلوروس ٢ ، ٢١ ، ٤٢ ؛ يوتروبيوس ٧ ، ٧ . على أن فريرو ، الجزء الرابع من ٦٨ ، لا يرى للدفاع عن كليوباترة بقوله « إنها في الحقيقة لم يخطر لها على بال أحد تلك الأبطال التي نسبها إليها خصومها في روما » .

والرغبة في الفود عن البلاد في نفس ذلك الشعب القوى القاهر وبثير الحامية الوطنية في نفس أقل الرومان ميلاً للتضحية ، والذود عن الأوطان !^(١) ولقد استولى الهلع والرعب على نفوس أصدقاء أنطونيوس بروما ، وهالتهم تلك الحملات الشعواء التي كانت تكيلها كثرة الجمهور الررماني لأنطونيوس كيلاً بلا حساب ، ومضوا يحاولون أن يخففوا من غلواء القوم بتعداد مناقبه ، والتقليل من ذلك الأثر السيء الذي أحدثه نشر الوصية ومحتوياتها معللين النفوس بالأمال بأن يكسوا لأنطونيوس بضعة آحاد وأن يوجدوا ثلثة في تلك الجبهة القوية التي تكونت في روما ضده من الساخطين عليه ، والمنادين بالويل والثبور وعظائم الأمور للخائن الخاسر عدو وطنه وصديق عدوة روما ، التي قدمها قرباناً لمخبطته بأبخس الأثمان فكان هذا هو الخسران المبين — ولقد أرسلوا له جيميونيوس (Geminus) ليحذر عاقبة أفعاله وليرجوه ألا يرتكب من الأغلاط بحمته وسوء فعالة ما يسبب له خسارة قضيته . ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر أنطونيوس بأثينا ظنه القوم صنيعة أكتافوس ورسوله الأمين ، وأعرضوا عنه ، ولم يُكرم أنطونيوس وكيوباترة وفادته ، وبالغا في الإعراض عنه وإهماله حتى شعر الرسول أنه زج بنفسه في مأزق لا يجدى ولا يفيد ، فحاول التخلص منه بأسرع ما يمكن . وقد سأله أنطونيوس مرة عند تناول العشاء ، عن حاجته التي أتى ليقضيها في أثينا فقال له إنه يفضل أن يبقى الجواب عن ذلك إلى فرصة أخرى يسودها التعقل والرزانة ، ولكنه لا يتردد في أن يذكر أمراً واحداً في هذه الساعة وهو أنه يضمن الفوز لقضيته إذا أعيدت المملكة الى مصر ، فغضب أنطونيوس لقوله هذا وأجابته كلبوباترة على الفور : لقد أحسنت صنعاً يا جيميونيوس بإفشاء سرك وإعلان الغاية من حضورك بدون أن تضطر لتعديك^(٢) . ولما وجد أن مهمته فاشلة لا محالة ، انسحل من أثينا بعد أن أقام

(١) بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيديين — البطالة جزء ثان ص ٢٩٣ .

(٢) پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ٥٨ — ٥٩ : بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيديين —

البطالة ، جزء ثان ص ٢٩٤ .

بعضة أيام وعاد أدراجه مسرعاً إلى روما. وإن رسالته هذه لتظهر بأجلى وضوح أن عدداً كبيراً من الرومان كان ينظر إلى كليوباترة على أنها السبب في كل هذه المصائب، وأنه حتى في هذه المرحلة لم تكن إزالة الخلاف، وإعادة المياه إلى مجاريها من الصفاء وحسن التفاهم بالامر العضال، إذ قدر لأنطونيوس أن يجد في نفسه من الشجاعة والجرأة ما يكفي للإقدام على تسريح كليوباترة إلى مصر، فقد كان الكثيرون من أتباع أنطونيوس والمؤيدين له يؤمنون بأنه كان من الضروري لضمان النصر في المعركة القادمة أن يبتعد أنطونيوس ولو مؤقتاً عن كليوباترة، وأن الأفضل ألا توجد على مقربة من ميدان الحرب. ولكن مسلك الملكة كان في ذلك الوقت سبباً من الأسباب التي جعلت اليأس يستولى على قلوب كثيرين من أصدقاء أنطونيوس فانفضوا من حوله، وولوا وجوههم شطراً ككتافوس.

وفي نفس الوقت كان أكتافوس يعمل على نشر القصص عن عدويه : أنطونيوس وكليوباترة، وكانت غايته القصوى من ذلك هتك أسرارهما والتشنيع عليهما، وإعداد الرأي العام بإشعال نيران الوطنية التي كانت تتأجج في صدر كل واحد لأخذ القسم العظيم (Conjuratio) بالإخلاص التام والولاء له حتى يصيب الغاية. ولما تم له ما أراد، وأصبح الرأي العام في روما وإيطاليا مستعداً لقبول ما يملئ عليه، فكر في كسب مساعدة الولايات الرومانية الغربية، وصيغ مشروعه هذا بصيغة وطنية حماسية حتى نال ولاءهم، وأخذ عليهم العهد الذي أخذه على سائر الرومان في الغرب. ولم يفته أن يسجل ذلك الحادث في أثر أنقرة المشهور (Monumentum Ancyranum) وهو سجل الحياة الرسمية الذي كتبه بنفسه أكتافوس، إمبراطور الدولة الرومانية الأول، وبذا أتاح للعالم فرصة الاطلاع على رأيه الشخصي في يمين الطاعة هذه التي أقسمها له الغرب، وهاهو ذا كلامه عن هذه اليمين، مترجماً عن الأصل اللاتيني «لقد أقسمت لي إيطاليا بأمرها يمين الطاعة، طيبة النفس في قسَمها، مدفوعة برغبة قلبية، وعيَّنتني قائداً في الحرب التي انتصرت فيها

باكتيوم، ولقد اشتركت في هذا القَسَم بلاد الغالة وأسبانيا وأفريقيا وصقلية وسردينية^(١). ويظهر أن أكتافوس - كما يدل صريح عبارته التي وردت بذلك الوثيقة - أراد أن يوهم العالم ويلقي في قلوب الناس أن الحرب فرضت عليه فرضاً، ولم تكن من صنع يده وتديره، ويرفض بعض المؤرخين تصديق ذلك الزعم الذي يجعل أكتافوس آلة صماء في يد الجماعات الإيطالية التي اختارته زعيمها وقائدها بذلك القَسَم الذي يحاول هو وأولياؤه أن يلقوا في روع الناس أنه لم يكن نتيجة مؤثرات خارجية، بل أتى إثر حماسة وطنية وانفعال نفساني، ويوجد بعض المؤرخين الحديثين الذين يخالفون هؤلاء في الرأي، ويجدون في هذا القَسَم إعلاناً عاماً للولاء والطاعة ويقبلونه على أنه نتيجة طبيعية حتمية لملك الحماسة العامة التي انبثقت وتجلت بأظهر معانيها في نفوس القوم المؤيدين لأكتافوس والمعارضين لأنطونيوس وسياسته التي كانت تنطوي على الخيانة العظمى لبلاده. ولكن ليس لدينا الأدلة القاطعة التي تثبت أحد الرأيين بطريقة لا تقبل الشك. ومهما يكن التفسير الذي يسوقه المؤرخون لتوضيح أمر ذلك القَسَم، وسواء أكانوا ينسبونه للحوادث التي وقعت في ربيع عام ٣٢ أم خريفه، فإنه من الصعب علينا أن نفهم مظهرين غريبين وهما إجماع الإيطاليين وتطوعهم لهذا القَسَم. ومن حيث أن البراهين التي يسوقها المؤرخون غير كافية وحججهم غير قطعية، فإن هذه النقاط ستبقى على الدوام غامضة وسراً مكنوناً لا فصل إلى كنهه إلا إذا لجأنا إلى الحدس والتخمين.

وبعد ذلك بقليل أعلن أكتافوس الحرب رسمياً ولكن لم يعلنها على أنطونيوس، بل على كليوباترة التي اعتبرها عدوة (hostis) للرومان. ويقول «ديو» في تفسير ذلك أنه كان المعروف أن أنطونيوس لن يتنكر لكليوباترة، وإنما ينوى أن يحارب دفاعاً عنها، وبذلك يقدم أنطونيوس بنفسه دليلاً

(١) أثر أقرة، الفصل الخامس، ٣ - ٦ عن الأصل اللاتيني واليوناني المشهور في

آخر على عدم وفائه لوطنه وخيائنه لبلاده وتخليه عن رومانيته^(١). ثم تبع ذلك إعلان أكتافوس أن أنطونيوس أصبح مجرداً من ألقابه ورتبه ، فلم يعد شريكاً في الحكم الثلاثي ، ولم يسمح له بأن يشغل وظيفة القنصلية التي كان مقدراً له أن يشغلها لعام ٣١ ق . م . ولكن أكتافوس لم يُقدم على الخطوة التالية وهي أن يعلن أن أنطونيوس وأنصاره أعداء للدولة الرومانية، وأن يهدر دمه ، ولربما رغب أكتافوس أن يتظاهر للعالم أجمع بأن الحرب الأهلية قد انتهت فعلاً بإعلانه ذلك بعد انتصاره على سكستوس بومبي . ويعمل بعض المؤرخين هذا الإهمال من جانب أكتافوس لأنطونيوس وعدم إعلان الحرب عليه بأنه كان معروفاً أن أنطونيوس لن يترك كليوباترة في مهب الرياح على هذا النحو تتلقى وحدها الصدمات من جانب أكتافوس ، بل سينتصر لها ويحارب في صفها ، وبذا يكون قد قدم سلاحاً ماضياً في أيدي أعدائه يحاربونه به ويشهرونه في وجهه ، ذلك هو محاربته ووطنه وبلاده من أجل ملكة أجنبية . وإنه لمن الجائر أن أكتافوس باتخاذ هذا السبيل لم يشأ أن يغضب أتباع أنطونيوس وأنصاره ، ويثير سخطهم لحد بعيد وبذا مهد لهم السبيل ليعودوا إلى حظيرة بلادهم وينفضوا من حول زعيمهم وبطلهم أنطونيوس بدون أن يلحق بهم أى ضرر أو ينزل بهم أى عقاب . ويأهمال أنطونيوس إلى هذا الحد الكبير ، ويتحاشى ذكر اسمه وإعلان الحرب على كليوباترة ، أظهر أكتافوس إحتقاره لشأن أنطونيوس . ولكن يتم إعلان الحرب رسمياً لبس لباس الكاهن ، وقد تبعه أعضاء مجلس الشيوخ وفقاً للعادة الرومانية التي توجب على القائد أن يلبس لباس الكهنوت ويذهب إلى معبد إله الحرب ، مارس (Mars) ، حيث يؤدي الواجبات المرعية في مثل هذه الأحوال ، ويرمى السهم إعلاناً بأن روما في حالة حرب مع عدواً أجنبياً . وقبل في الذريعة التي تذرع بها في إعلان الحرب في ذلك المعبد إن كليوباترة

إدعت ملكية أقاليم، فتحها الرومان وملكوها . وبذا انصب جام غضب روما
كلها على كليوباترة وسيرت جيوشها وقواتها ضد هذه الملكة . ولم يفته عام
٣٢ ق . م إلا وكان زعيما الشرق والغرب قد أعدا عدتهما وسيرا جيوشهما
بعضها ضد بعض . وكان كل من الطرفين يطمع في أن تكون له الغلبة
والسيطرة النهائية على العالم الروماني بأسره .

الفصل السّادس

النزع الأخير

الشرق والغرب ومبرأ لوجه

وهكذا تهيأت كل الظروف والملايسات لإثارة العداوة المتأصلة بين الشرق والغرب من جديد ، وسار جيش من الشرقيين لا تجمعهم جنسية واحدة لقتال الغرب ، فاستولى على نفوس الغربيين ذعر شديد ، وهلع كبير ، من جراء زحف الشرقيين عليهم وتهديدهم بغزو بلادهم . ولكن كان من سوء حظ أنطونيوس أن الرومان لم ينظروا إليه نظرم إلى أحد القواد الرومان ، بل رأوا فيه قائداً أجنبياً ، لا يمت إليهم بصلة ، تولى قيادة الشرقيين والدفاع عن قضيتهم وقضية كليوباترة بالذات في الهجوم على دولة الرومان في الغرب وناصب أكتافوس الذي تولى الدفاع عنهم، العداء ، فأجمعوا أمرهم للانتقام من ابن روما العاق وعدوها اللدود الذي احتضن الشرق وألّبه على الغرب وتنسكروا لوطنه وبلاده وبني جنسه فحلت عليه نعمتهم أجمعين .

وكان تقدم الجيوش من كل من الشرق والغرب حادثاً ذا خطر ، إذ كان الناس في جميع أنحاء الإمبراطورية من الفرات إلى أسبانيا غرباً يتساءلون عن نتيجة الحرب التي يتوقف عليها ما ل حكم العالم القديم ، وكان أنطونيوس قد أخذ ببعض أسباب النجاح ، وكان من الجلي أنه إن كتب له النصر دخل روما وملكة مصر إلى جانبه دخول المنتصر الظافر ، فأذلها ، وترك العنان لكليوباترة تنتقم من أعدائها انتقاماً صارماً ؛ ولكن ليس من السهل أن نحكم بأن الغرب كان يقبل طوعاً أو كرهاً مثل تلك الحال دائماً أو إلى أمد قصير أو طويل . وإذا قدر على أنطونيوس الفشل في حملته فسيواصل أكتافوس السير ويستحوذ على شرق البحر المتوسط . ولربما تسرب الظن إلى أنطونيوس

أنه ليس في مقدور أكتافوس في حالة نجاحه وانتصاره أن يصل إلى كل هذه النتائج ، ويمكن القول بأن أنطونيوس قد فكر في حالة هزيمته أن يقتصر على حكم الشرق الإغريقي ثم يترك الغرب وشأنه . وإنه ليكن الظن أن أنطونيوس قد اتخذ عدته وأهبطه لحالقر بما نجمت إذا تحقق هذا الاحتمال وصدقت النبوة . وما يقوى هذا الظن عندنا أن أنطونيوس قد رضى الشرق له مقاماً ، واتخذ مطامحه له آمالاً ، واصطبغ بعاداته وتقاليده وزيه وكل خصائصه ، وفوق ذلك فإن الحوادث التي وقعت بعد ذلك دلت على أن أنطونيوس كان متخذاً الشرق قاعدة له في فتوحه وتقدمه وموثلاً أخيراً في حالته ما إذا مُنِيَ بالفشل . وعندئذ يعود القهقري إلى الشرق ويتخذ مصر مركزاً رئيسياً له ، ويؤسس له فيه أسرة تحكمه — وبذلك يترك إيطاليا والأقاليم الغربية وشأنها يحكمها أكتافوس ويكون أنطونيوس قد خلف لعدوه مهمة شاقة وعسيرة وهي اضطرابه الزحف على الشرق ، ومحاربة أنطونيوس فيه إذا ما جال بخاطره أن يوحد العالم الروماني ، ويكلم شعبه من جديد في قبضة يده . ولربما كان في ذلك الحل الأخير الذي جال بخاطر أنطونيوس ورسمه لنفسه ، والذي كان يقضى بفصل جسم الإمبراطورية الرومانية إلى شقين متباينين: الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية ، أمنية صادفت هوى في نفس كليوباترة ، وكان فيها احتمالٌ على يضح السكوت عليه إذا لم تتحقق أطماعها بفشل محاولتها الاستئثار بالغرب وضمه للشرق تحت حكمها .

الوعاء لموقع أكتافوس

بدأ أنصار كل من الشرق والغرب في جمع جيوشهم على جانبي بحر اليونان ، فكان معظم جيش أكتافوس في برنديزي وتارنتوم أما جيش أنطونيوس الذي ازداد عدده وتضخم حتى بلغ نحو ثلاثين كتيبة فكان في بلاد الإغريق ، ولكن أكثر جيش أنطونيوس كان من الشرقيين لأن أكتافوس منعه من أن يستنفر جنداً من إيطاليا ، ولقد اتخذ أنطونيوس بلاد الإغريق مركزاً لتسع عشرة كتيبة

وترك أربع كتائب في برقة وأربعاً في مصر وسملها في الشام ورسا معظم أسطوله الذي كان يتألف من خمسمائة سفينة قرب الساحل الغربي لبلاد الإغريق بين أكارنانيا وإبيروس عندما دخل خليج أمبراشيا . أما قوة أكتافوس فكانت تبلغ مائتين وخمسين سفينة وثمانية آلاف راجل واثني عشر ألف فارس . وفي أوائل عام ٣٦ ق . م صدم أكتافوش أعداءه الصدمة الأولى إذ سار جزء من أسطوله يقطع البحر الأيوني قاصداً الساحل الجنوبي لبلاد الإغريق برئاسة صديقه الجيم أجريبا (Agrippa) فباغت ذلك الأسطول « ميثوني » ونجح في أسر بعض الفلك المشجوحون بالحنطة الآتية من الشام ومصر وآسيا الصغرى ؛ ويخيل للإنسان أن أجريبا كان يبحث عن مكان ينزل فيه الجيش إلى البر ، وقد أحرز أجريبا بهجومه هذا وأسرته لتلك السفن نجاحاً كبيراً ، إذ جعل أنطونيوس يركز انتباهه إلى هذه الناحية ويغفل إلى حد ما النواحي الأخرى . فيصيبه منها أكتافوس على غرة . وبينما كان أنطونيوس متوجهاً بأكثر عنايته إلى هذه الناحية أفلح أكتافوس سرّاً بأسطوله الذي كان يحمل نحو ثمانى كتائب وخمس فصائل من برنديزي ، وأنزل جنده بساحل إبيروس ، ولما وصل إلى مسامع أنطونيوس هذا النبأ العظيم وهو وصول أسطول الأعداء ، ألق وشيكا إلى أكتيوم (Actium) التي يظهر أنه وصل إليها بعد وصول أكتافوس بقليل . وكان على أكتافوس أن يُشَل حركة أسطول أنطونيوس الذي كان راسياً في خليج أمبراشيا ، ولكنه فشل في اقتحام الطريق إلى داخل الخليج ، واكتفى بضرب الحصار حول مدخله . وبذلك حبس أسطول منافسه داخل الخليج وعسكر أكتافوس على بعد أربعة أميال شمال المضيق ، أما أنطونيوس فقد عسكر هو الآخر على الجانب الجنوبي للخليج ، ولم يك مستعداً للنزال لأن كتابه لم تكن قد تجمعت بعد ، ولما وصلت تلك الكتائب عبر أنطونيوس المضيق وضرب خيامه في معسكر آخر على بُعد ميلين جنوبى موقع الأعداء ، ولما رفض أكتافوس مقاتلته حاول أنطونيوس محاصرته ومنع وصول الماء عنه ولكن لم تسلك هذه

الحركة بنجاح كبير لسعة دائرة الحصار التي كان يبلغ محيطها نحو خمسة أميال. وفي نفس الوقت نجح أجرييا بأسطوله في بحر الأرخيل من أن يقطع عن أنطونيوس موارده التي كانت تصل إليه عن طريق البحر وأن يكسب انتصارات أخرى . وعندئذ سارع أكتافيوس بإرساله إلى روما ليعلنوا أخبار هذا النجاح على أنه ظفر ونصر مبین وليبلغوا الشعب الروماني أن قائدهم قد اقتنص أسطول أنطونيوس داخل الخليج، ويظهر أن هذه الانتصارات على قلة خطرها وضعف شأنها قد ألقت الرعب في نفوس أتباع أنطونيوس. فانفض من حوله دوميشيوس عدو كليوباترة اللدود وانضم إلى أكتافيوس وتبعه غيره ممن أيقنوا بهزيمة أنطونيوس وبذلك أصاب الخور عزيمة أنطونيوس من جراء هجر أتباعه له وفقد الروح الحافزة إلى القتال .

وما زاد في تثبيط همته ، واستياء أتباعه القلة المطردة في موارده ، والأوبئة الفتاك في صفوف جيشه . فترك فكرة الهجوم جانباً ، واكتفى بخطه الدفاع إذ رآها الطريقة المثلى للنجاح فانسحب ليلاً إلى شبه الجزيرة الجنوبية وتحصن في موقعه الأول بمعسكره الأصلي — ولقد كان حصار أكتافيوس محكماً حتى أن موارد أنطونيوس قد قلت ، حتى كادت تبلغ حد المجاعة ، فأصبح مقامه لا يحتمل البقاء . وكان لزاماً عليه أن يجد وسيلة للخروج من ذلك المأزق ، وقد أقنعه سير الحوادث بأن أكتافيوس قد عقد العزم على ألا يحاربه في موقعة برية فاصلة . وإنه لا سبيل إلى إجباره على ذلك — كما أنه تأكد بأنه لا يمكنه هزيمة أكتافيوس في موقعة بحرية ؛ لأنه كان قليل الخبرة بالحرب البحرية وقوة أكتافيوس البحرية أعز من قوته وهي بالأمس القريب قد برهنت على عظمتها وخبرتها بأساليب الحرب البحرية بانتصارها على سكستوس پمبي فكان هذا النصر بمثابة الحجر الأساسي في عظمتها البحرية، وزد إلى ذلك أن سفن أنطونيوس كانت مثل خططه بطيئة متناقلة بينما كانت سفن أكتافيوس صغيرة ، سريعة الحركة في التنقل ؛ فكانت آمال أنطونيوس في النصر بحراً تكاد تكون معدومة ، كما يفهم ذلك

من الأوامر التي كان يصدرها . وعلى ذلك كان الطريق الوحيد الذي يجبه أن يسلكه هو أن يحترق أسطول عدوه ، ويهرب إلى مصر حيث يمكنه أن يجمع قواته من برقة وسوريا ويقاوم أكتافوس مقاومة برية عنيفة - ولو أن أنطونيوس سمح لسكيباترة بالهروب من المعركة وحدها لوجد نفسه وحيداً في بلاد قد ضاعت فيها هيئته ، وتقلص نفوذه أو كاد ، ولاضطر أن يعرج وحده على بلاد لا يعلم إلا الله مدى استعدادها لمناصرته ومؤازرته في محنته. ذلك إلى أنه لم يكن معه جيش قوى بآماله وعتاده فقد نهكته الأمراض ونفسته الآوباء ، وأضعفت قوته المعنوية فوق ذلك الهزائم المتوالية وانحياز كثيرين من الرومان فيه إلى العدو ، وهو بطبيعة تكوينه كان ينقصه الإخلاص لأنطونيوس والشجاعة في ميدان الحرب .

ويفهم من كل ذلك أن ملابسات الأحوال أشارت على أنطونيوس باتباع طريق الفرار ، وهو الجندي الخبير الذي لا يحتاج إلى نصائح محترفي الحرب . وقد وافقت كليوباترة أيضاً على هذه الخطة ، ولكنه رأى ذراً للرماد في العيون أن يدعو مجلساً حريياً للإنعقاد ، وأن يعرض عليه الموضوع بتفاصيله للبحث ، وقد عرض عليه بالفعل أحد أمرين : إما التقهقر وإطالة أمد الحرب ، وإما البقاء والمقاتلة في موقعة فاصلة ، ففضل كانيديوس كراسوس الخطة الأولى ، وأخذ يهرن على سدادها ، ونصح لأنطونيوس أن يتقهقر إلى تراقيا أو مقدونيا في البلقان لكي يستدرج عدوه وراه ، ثم يحاربه في موقعة لاشك في انتصاره فيها ، لأنه كان قائداً برياً أكثر كفاية من عدوه . وقال إنه ليس من العار تسليم البحر إلى أكتافوس . وإنه لمن الحق أن يترك أنطونيوس الميدان الذي يعرف كيف ينتصر فيه ، ويحاطر بأسطوله في حرب بحرية ، ثم أشار خصوم كليوباترة اليوم ، وإن كان منهم من رشته بالأمس ، على أنطونيوس بإعادة الملكة إلى بلادها . أما هي فقد عارضت خطط كانيديوس كراسوس بشدة ونصحت أنطونيوس بأن يحتل بعض أما كن حصينة سوف لا يجد أكتافوس مفرأ من حصارها ، وبذلك

يوزع قوته ويفنى فيها بعض رجاله ، وأن يقوم الأسطول في نفس الوقت بهجوم عنيف ليفك الحصار. وقد حمى وطيس الجدل ولكن القرار الأخير فوض أمره لأنطونيوس الذي أصبح من المحتم عليه أن يقرر خطة معينة للمستقبل فلم يوافق على خطة كانيديوس كراسوس ، واتبع مشورة كليوباترة إذ رأى أنه لو تقهقر بجيشه إلى داخل البلاد لترك أسطوله وشأنه محبوساً في الخليج ، ولوقع دون شك في قبضة الأعداء ، وهل كان من الممكن الدفاع عن إمبراطوريته دون أسطول ؟ بل هل كان من المعقول ترك أسطوله دون معين تحت رحمة الأعداء ؟ وهلا توجد وسيلة أخرى بها يمكن إنقاذ الكنائس والأسطول وبعد فترة راحة واستجمام القوى يمكن قيادتها إلى القتال في أحوال أليق وأنسب ؟ وقد يتساءل الإنسان هل كانت اقتراحات كانيديوس كراسوس قابلة للتنفيذ في هذه المرحلة ؟ ويمكن القول من المعلومات الضئيلة التي لدينا بأن ذلك كان مستحيلاً أو على الأقل شديد الخطر ، وكانت اعتراضات كليوباترة على تضحية جزء من أسطولها شيئاً معقولاً ، ويصعب على المرء أن يعتقد أن أنطونيوس قد تصرف بحكمة ، لو أنه ضحى بكل سفينة حتى ولو ضمن النصر برآ — ولأنه لمن المعقول أن نرى جند أنطونيوس شغوفين وحريصين على أن يترك لهم وخدم تقرير هذا المصير ، واتخاذ قرار حاسم بشأنه ، ولكن ذلك لا يبرهن على حسن تصرف الأمور لو أن أنطونيوس يستمع لنصيحة جنده فقط وينفذ لهم ما يريدون ، فإنه عندئذ قد يستهدف لخطر الرأي وعلى ذلك كانت موقعة أكتيوم وهي من أعظم المواقع في التاريخ القديم ، مشكلة حار في أمرها المؤرخون من القرن الأول الميلادي إلى يومنا هذا^(١) . وقد اتفقوا جميعاً على أن أنطونيوس وكليوباترة مسئولان عن خطة الموقعة ولكنهم اختلفوا في ماهية تلك الخطة تماماً .

(١) تناول العالم تارن (Tarn) موقعة أكتيوم بالبحث في مقال طريف نشر في مجلة الدراسات الرومانية (Journal of Roman Studies) في العدد ٢١ لسنة ١٩٣١ ص ١٧٥ وما بعدها . وفيه يدل على أن أنطونيوس لم تكن لديه خطة واحدة وإنما كان أمامه حرية الاختيار بين أحد أمرين فلما أن يكسب النصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً وإلا فإن خطته كانت تنحصر في أن يُقيم شطر مصر .

وقد تبين بوضوح تام أن إنزال أحسن الجند على ظهر مراكب الأسطول واقتحام نطاق الحصار البحري والرحيل إلى مصر مصطحباً الملكة والبحث عن موقع أكثر ملاءمة وانتهاز فرص أنسب للقتال — كل ذلك كان مقدمات لموقعة أكتيوم . ولما استقر رأى أنطونيوس على هذه الخطة أصدر أوامراً لم يفهم الجند مغزاها ولا مراميها لأول وهلة ، فقد أمر بالاحتفاظ بثلاثين ومائتي سفينة كانت أحسن السفن وأكثرها عدة ومن بينها ستون سفينة كانت تحت إمرة كليوباترة ، ثم أمر بإحراق بقية السفن التي كانت غير صالحة للقتال ، ولم يكن بها عدد كاف من الجند وأمر مرشدى السفن بالاحتفاظ بالأساريات وأن يأخذوا معهم أشربة كبيرة ما كان يحتاج إليها في حالة الحرب ، بل هي في الحقيقة عائق كبير يمنع سرعة حركة الجند فوق متونها . وقد علل الاحتفاظ بها بلزومها عند اللحاق بالعدو ، ولكن هذا التعليل لم يقنع ضباطه الذين تسرب اليهم الشك في حقيقة الأمر خصوصاً وأن أنطونيوس أمر بنقل النفائس ليلاً إلى السفن التي احتفظ بها . وكانت الخطة تقضى بإنزال عشرين ألف جندي إلى السفن والفين من حملة الرماح وفريق آخر من رماة المنجنيق . ولقد فزع الجند عندما تسرب إلى أذهانهم أنه ينوى الإلتحام مع العدو بهذا الرهط كله في موقعة بحرية . وقد رجاه أحد ضباطه وهو يشير إلى آثار جروح عديدة بجسمه ليظهر له بلاءه وجلاده ، أن يغير خططه ويحارب على اليابس ، وقد كان يُعَبَّر في هذا عما يجول برأس بقية الجند ، ومع ذلك فإن أنطونيوس لم يعره التفاتاً — وقد أيدت أوامره الأخيرة شكوك من أساءوا الظن به ، فقد كان المقصود من تلك المعركة البحرية أن تكون ستاراً للهروب إلى مصر — الأمر الذي صمم عليه . وتأكد كل من ديليوس وأمينتاس من أغراضه الحقيقية ، إذ لم تخدعها أوامراً أنطونيوس المهمة ، فانفض من حوله كل من ديليوس وأمينتاس وصحبهما عشرون ألفاً من الجند ، وانضموا جميعاً إلى أكتافايوس في العقد الأخير من شهر أغسطس . وقد أطلع ديليوس الفار أكتافايوس على قصد أنطونيوس ، وأخبره بأنه

قرر أن يشق لنفسه طريقاً في الخليج ويهرب مع كليوباترة إلى مصر . وقد كان ديليوس هذا مُقَسِّراً من أنطونيوس للدرجة مكنته من معرفة حقيقة أغراضه . وكانت الخطة التي رسمها أكتافيوس لنفسه بمجرد أن أحاط علماً بنيات خصمه أن يسمح لعدوه بالخروج من الخليج . ثم يتعقبه من المؤخرة في عرض البحر ويدحره ، ولكن أجرياً وهو الساعد الأيمن لا أكتافيوس غارض هذه الخطة ، مبيناً أنها خطة غير عملية لأنها قد تمكن العدو من نشر أشرعه وانفرار بها على عجل ، فيكون من المستحيل اللحاق به وبذا يطول أمد الحرب دون مسوغ . فقبل أكتافيوس نصيحة أجرياً هذه وصمم على أن تكون خطته إرغام العدو على القتال ، وعدم السماح له بتهرب النفائس المصرية ، ولذا قضت تعليماته الأخيرة بإزالة ثمانى كتائب وخمس فصائل إلى سفنه ، والإستعداد للقتال . فكانت موقعة أكتيوم يوم ٢ سبتمبر . وفيها كان أنطونيوس يقود القسم الأيمن من الأسطول وكانت كليوباترة على رأس سفنها الستين في مؤخرة الأسطول . أما أكتافيوس فكان يقود القسم الأيمن من أسطوله وأجرياً يقود الجناح الأيسر . وتقدم أكتافيوس ومعه سفنه وكان كلما اقترب من العدو اتسع خط القتال ، حتى أخذ أسطوله يحيط بأسطول عدوه من الجانبين ، وظل الحصان وجهاً لوجه بضعة ساعات دون البدء في القتال ، وأخيراً تقدم قائد الجناح الأيسر في أسطول أنطونيوس . وقد استدرجه أكتافيوس إلى عرض البحر ، متظاهراً بأنه يتقهقر بأسطوله ، ولما أمعن قائد هذا الجناح الأيسر في التقدم في عرض البحر ، نحا بقية أسطول أنطونيوس نحوه ، فتقهقر أجرياً ومد في خطوط القلب والميسرة . ففقد أنطونيوس زمام أسطوله وتوزعه البحر بامتداد خطوط القتال لأن أسطوله تبع دون تبصر أسطول الأعداء الذي أخذ يتقهقر ببطء ونظام ، فعمت الفوضى أسطول أنطونيوس بضعة ساعات ، ثم لحقت سفن أكتافيوس الصغيرة بسفن أنطونيوس الكبيرة التي أخذت كل واحدة منها تقاتل حسبما يراها لها ، وبذلك قامت تلك المعركة الهائلة بين أسطول قوى متصل الأرسان ، ونثير من السفن لا يتصل بعضها ببعض

ولا تجمعها قيادة محكمة ذات خطط متزنة. ومع ذلك فقد ظلت النتيجة معلقة بين كفتي ميزان لا تثقل إحداها عن الأخرى حتى تمكن أعداء أنطونيوس من فصله عن قلب أسطوله ، وذلك عند محاولته منع أجريبا من الإحاطة بأسطوله . وفي تلك اللحظة أدركت كليوباترة أن النصر بدأ يحالف أكتافها وأنها وأنطونيوس قد خسرا الموقعة ، فاعتصمت فرصة وجود ثغرة في أسطول الأعداء ، وأمرت رجال أسطولها باقتحامها ، وصادف ذلك أن هبت ريح شمالية مكنتها من الإبحار نحو مصر . وعندئذ أطاع أنطونيوس طاملا أقوى من الحب لكليوباترة ، ولو أنه كان متشوقا في ذلك الوقت لأن يصحب الملكة . فلقد حارب لكي يضمن سلامة التفهقر لأن التفهقر كان ممكنا ولو أن الأمل في النصر كان معدوماً . وعلى ذلك ترك المعركة عقب ذلك مباشرة وتبع كليوباترة بسفينته وحدها .

فرار أنطونيوس وكليوباترة

واتباعاً للرأى التقليدى الذى يقتبسه الناس من المؤرخ بلوتارخوس موصف هذا الفرار من ميدان القتال بأنه خيانة من كليوباترة ، وتلبية لداعى الغرام من جانب أنطونيوس الذى انفطر قلبه عند ما رأى أن روحه قد فرت من جواره ، ولكن هذه الرواية الخيالية لا تتفق مع الواقع وهى بمثابة تفسير وجداني لموقف عسكري . وقد قيل إن كليوباترة نقضت عهد أنطونيوس لما رأت أنه قد دارت عليه الدائرة في المعركة في الوقت الذى كانت تأمل فيه بأن تحصل على شروط مشرفة للصلح مع أكتافوس ، وقيل أيضاً إن هيام أنطونيوس بكليوباترة دفعه إلى أن يطرح كل اعتبار آخر وراء ظهره لما رآها فارة ميممة وجهها شطر مصر . ولكنه من السهل أن نفند ذلك الرأى إذا كد المؤرخ « ديو » أن خطة الحرب هذه كانت مدبرة من قبل ، ويرى ذلك جلياً في الاستعداد للمعركة ، بل إنه يؤيده ويزيد « ديو » على ذلك بقوله : إن أكتافوس كان على علم تام بتلك الخطة قبل المعركة وقد أطلع عليه من نكثوا العهد من رجال وأتباع أنطونيوس . وقد حذا المؤرخون الحديثون حذو « ديو » .

واعتمدوا عليه ، فإنهم يقولون إنه كانت هناك خطة مدبرة قبل المعركة بين أنطونيوس وكليوباترة ، كما جاء في وصف ديبو ، لتلك المعركة . ويمكن المرء أن يتساءل ما الذى كانت تكسبه كليوباترة بانتفاضها على أنطونيوس . إذا فرض أنها هى التى دفعته إلى القتال بحراً لئلا تتخلص منه وتخنونه حتى تحصل على رضاء أكتافقيوس ؟ والجواب على ذلك لا شئ لأنها يجعل أنطونيوس كبش الفداء ما كانت تكسب شيئاً من أكتافقيوس ، أو تتقرب زلنى إليه ، بل على العكس من ذلك تخسر حماية أنطونيوس لها نهائياً من غير أن تكسب أى شئ فى وقت لم يكن أنطونيوس قد فقد الأمل فى النجاح وكان الجيش لا يزال تحت تصرفه . ومن المؤكد أنها لم تكن تأمل أى خير من أكتافقيوس ، وهو الذى لم يعلن الحرب على أحد سواها ، فهى الهدف الذى كان يرمى إليه سهامه وهى التى تزوجها أنطونيوس بدلاً من أخته أكتافيا . وفى الحق إنه ليس من المعقول أن ترد على خاطرها فكرة التحول إلى أكتافقيوس إلا إذا ضاع كل أمل لها فى الإلتصار . وفى أكتيوم كانت لا تزال تثق بالمستقبل ، وقد تدخلت بالفعل فى وضع خطط الحرب التى كان يتوقف كيائها على الإلتصار فيها . ولكن مع أن التفهقر إلى مصر كان خطة مدبرة قبل الموقعة ، فإن تنفيذ هذه الخطة كان بغير إحكام ، وكانت الظروف والملابسات غير ما كان يتوقع أنطونيوس . وكانت النتيجة أنه بدلاً من أن يرى نفسه على رأس معظم أسطوله ويقود قوة كبيرة من جيشه تحملها سفنه نحو مصر بعد اقتحام الحصار ، رأى نفسه أحد الهاربين من معركة خاسرة ، وهذا ما قضى القضاء الأخير على نفوذه فى الشرق ، وختم مصيره ومصير المملكة . ولما انتشر خبر موقعة أكتيوم فى العالم الهيلينستى وأرجاء الشرق ، أحدث هزة ورجة كبيرة ، فعصف بأمال الكثيرين وألقى الذعر والخوف فى نفوسهم فى حين فتح أبواب الأمل فى النصر الحاسم والفرج القريب لغيرهم ، وسنرى أنه لن يمضى وقت طويل حتى يختفى من الميدان هاتان الشخصيتان الكبيرتان اللتان أقامتا الأرض وأقعدتاها وهما أنطونيوس وكليوباترة فيستريح منهما .

العالم القديم بانتحارهما ويصفوا الجو كل الصفاء لا كنافيوس الذى ذاق طعم الانتصار فى أكتيوم ، ثم استساغه فلعبت برأسه نشوة النصر ، ولكنه كبح جماح نفسه فلم يطلق لها العنان ، ومضى فى طريقه ونفسه ممتلئة ثقة واطمئناناً بأن المستقبل القريب له ليتم العمل الذى بدأه فى أكتيوم فيأتى على عدويه اللدودين ويصرعهما بعد أن كادا يصرعانه .

فر أنطونيوس من الموقعة حزينا كئيباً على سفينة مصرية إلى مصر فى صحبة زوجته ، بل معبودته كليوباترة ، وحاول أكتافىوس اللحاق بعدويه الفارين من الموقعة ، ولكنه لم يوفق فعاد إلى الميناء وبدأ يفكر فى ضم جيوش أنطونيوس التى كان قد تركها وراءه ، ومضى فى طريق فراره لا يلوى على شيء ، ولا يأبه لما سيكون من أمرها . وكانت هذه الجيوش قد تركت معسكرها ، وبدأت التقهقر إلى مقدونيا فتبعها أكتافىوس وأسرع فى اللحاق بها . ولم يحل بخاطر هؤلاء الجنود البواسل أن قائدهم الأعلى قد فر ، ولم يكن فى نيتهم التسليم لعدوهم ، ولكنهم لما استبطأوا أنطونيوس وعلموا أنه رحل تغير عود قاورهم بهروبه الخزى والعار ، ووجدوا فوق كل ذلك أن القائد الجديد كراسوس الذى كان مطلعاً على حقيقة الأمر ، وعلى ما كان من أمر أنطونيوس قد لاذ بالفرار أيضاً ، لم يجدوا بداً من مواجهة الأمر الواقع بعد أن ظلوا سبعة أيام يرفضون ما كان يعرضه عليهم أكتافىوس ، وهم واثقون من أن قائدهم ما تغيب إلا من أجل مهمة حربية ، فلما تأكد لديهم آخر الأمر أنه ولى فراراً ، استخذوا وسلوا تسليماً . وهذا يرينا أنه لو أن أنطونيوس رجع مباشرة إلى جيشه وانفصل من كليوباترة لاستمر جيشه على ولائه له ، ولقاهم إلى حرب مظفرة أو هزيمة غير منكورة ، ولكنه لم يفتن إلى أن جنده كانوا ينقمون على وجود كليوباترة وعلى استسلامه الظاهر لنفوذها . وقد زاد الطين بلة ، وأذهب كل روح معنوية فى الجيش ترك كانيديوس كراسوس وهو يعلم علم اليقين حقيقة الأمر ، للبدان ، واقتفاؤه آثار الفارين واللاحق بهم ، فاضطروا حينئذ إلى الخضوع والتسليم كارهين .

وبعد انتهاء الحرب وتسليم جنود أنطونيوس ، قدم أكتافوس فروض الشكر للآلهة على ما أولوه من نصر على عدويه في أكتيوم ، ثم اتخذ التدابير اللازمة للإحتفاء بذكرى هذا النصر كل عام ، فأسس في موضع معسكره مدينة النصر ، نيكوبوليس ، تخليداً لذكرى هذه الموقعة واحتفى بهذه الذكرى بإقامة الألعاب في أكتيوم ، وجعل يقيمها كل أربع سنوات — ولا شك أن هذه الأمور شغلته بضعة أيام عقب الموقعة مباشرة ، كان في خلالها فرحاً مسروراً . هذا ما كان من أمر أكتافوس ، وأما ما كان من أمر أنطونيوس وكليوباترة في أثناء فرارهما على ظهر إحدى مراكب الأسطول المصري ، فلقد كانا كئيبين ، قد أظلمت الدنيا في وجيهما ، يكن كل منهما الآخر الكراهية المصحوبة بالسخط . وكانت تحيط بهما المخاوف من جميع الجهات ، فالهزيمة من وراء تطاردهما وتلاحقهما ملاحقة الظل لصاحبه ، والمستقبل من أمام مظلم حال ك الظلمة ، تسكنه أشباح مخيفة تلوح لهما بالخطر الدائم والكوارث المدممة التي يخبئها لهما القدر المحتوم . وقيل إنهما قضياً بضعة أيام فوق سطح هذا المركب الذي أقلهما من أكتيوم يتحاشيان اللقاء . ولم يجد أنطونيوس في نفسه من الشجاعة ما يكفي لأن يجمع قوته ويخاطب زوجته . وكان خلال هذه الرحلة لا يفكر إلا في الكارثة التي نزلت به ، وأفقده جيوشه ، وكانت كليوباترة من جانبها تفكر في مصيرها ومستقبل مصر الذي أصبح مهدداً . وعلى ذلك قضى الجانبان الأيام الأولى من رحلتهما في حزن واكتئاب ، فأنطونيوس يرى الماضي القريب فتذهب نفسه حسرات على ما فاتته من الأمر ، قد برح به الأسى ، ونال منه الكمد واستولى عليه اليأس القاتل ، وكليوباترة تنظر إلى المستقبل المظلم فتندحر عبراتها ، وتستدر شئون عيونها ، ويستولى عليها الهلع والجزع .

وهنا قد يتساءل المرء عن الدور الذي يمكن أنطونيوس أن يمثله على مسرح السياسة بعد أن فقد جيشه وقوته ، وأصبح مهزوماً مدحوراً . لقد تغير وجه الأمور ، وأصبح أنطونيوس اليوم غيره بالأس من الوجهة

الديستورية والسياسية ، وكانت كل عنايته موجهة في ذلك الوقت نحو الفرار إلى مصر والاعتصام بها . وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام ألقيا مراسيها عند رأس تايئاريوم (Taenarium) في جنوب شبه جزيرة البليونيئيلاد اليونان ، ويظهر أنهما قد اصطالحا هناك ، وعادت الأمور بينهما إلى مجاريها ، وصمما على الخطط الأولى التي سيتخذانها .

ولما كانا لا يستطيعان البقاء طويلا برأس تايئاريوم خشية أن يقعا في يد أكتافئوس ، وكانا يخشيان كذلك أن يصل خبر الهزيمة التي لحقت بهما إلى مصر قبل وصولهما ، عجلا السفر عبر البحر المتوسط ، ووصلا إلى پارايتونيوم (Paraetonium) ومحلها الآن مرسى مطروح ، وكانت الميناء الغربية على حدود مصر التي تفصلها عن برقة أو ليبيا ، وهناك افترقا فبقى أنطونيوس في پارايتونيوم ينتظر وصول جيشه من برقة ، وأسرعت كايوباترة إلى بلادها . ولكن سوء الحظ لازم أنطونيوس فلم يكن موقفاً في خططه ، إذ كان قد وصل خبر الهزيمة إلى برقة ، وكانت تخشى بطش للقائد المنتصر . وتود أن تضمن عفوه ورضاه بالإسراع في الانضمام إلى جانبه والتسكرعده . فقدم قائد جيوش أنطونيوس ولاءه إلى جالوس (Gallus) حاكم أفريقيا من قبيل أكتافئوس ، ولكي يبرهن هذا الحاكم على ولائه ، وصدق نيائه أعدم رسل أنطونيوس الذين كان قد أرسلهم إلى حاكم أفريقيا ، وهكذا خسر أنطونيوس جيوشه في برقة وتبددت تلك الأمانى الأخيرة التي بناها على أساس واهٍ . وفي هذا الوقت جال بخاطره الخلاص من الحياة بالموت ، وإنقاذ نفسه بأن يودع الحياة ويتركها يبيع نفسه ، ولكن كانت تعوزه الشجاعة الكافية ، فتغلبت محبته للحياة على الخلاص منها ، وبعد أن استولى عليه اليأس ، وأقعده عن التفكير في الإقدام على عمل جريء لم يجد مفرأ من أن يعم شطر ناحية واحدة طالما اتجه نحوها مندفعاً وراء رغبته وعاطفته ووجهه للاستمتاع — تلك هي الإسكندرية وكايوباترة .

عودة بطربارة إلى الإسكندرية

وفي الوقت نفسه كانت الملكة أشجع وأنشط من أنطونيوس ، فسارعت إلى تدارك الأمور قبل أن يصل خبر الهزيمة إلى الإسكندرية فتظاهرت في عاصمتها ملكها بأنها منتصرة ظافرة ، وأمرت بالاحتفاء بهذا النصر الوهمي على أعدائها وتزيين مراكبها بأكاليل من الغار لتضلل رعاياها . وفي الواقع لو كان الشك تهللق إلى أهل الإسكندرية ، وارتاب الحزب المعادي لها في انتصارها في أكتيوم لقبض على زمام الأمور ومنعها من الوصول إلى الميناء ، ولكنها بدعائها وخداعها تمكنت من التغرير بشعبها إلى أن طأ طأ خصومها لها وسهم . ولما استقر بها المقام في قصرها واحتل جيشها المدينة ، أمرت بقتل أعدائها فتخسرت تلك الروس العاتية صريعة ، وبذا تخلصت نهائياً من عقبة كؤود لم تسلس لها القياد ، وضمنت عدم تكدير صفو هنائها من هذه الناحية ؛ ولم تكن الملكة تعرف التردد في التخلص بمثل هذه الطريقة من كل من كانت تشك في إخلاصهم ، إذ أنها كانت تدرك ألا سلام لها مادام هؤلاء على قيد الحياة ، فاستراحت من متاعبهم واستفادت بأموالهم وكنوزهم ، وملأت خزائنها بما كانت تفرضه من الضرائب على شعبها وما استولت عليه من كنوز المعابد . وادخرت كل هذا عتاداً كان عوناً لها في قابل أيامها . ولقد جمعت كل قواتها الداخلية في الإسكندرية ، وصممت على ألا تستسلم لليأس وتفر من الميدان ، وألا تسلم للعدو بدون الاشتباك معه في حرب وأخذت تسعى في الحصول على حلفاء لها فأرسلت تخطب ود ملك ميديا وكانت ابنته يوتابي خطيبة ابن كليوباترة المسمى الإسكندر هيليوس أي الشمس لا تزال بمصر وأرسلت لملك ميديا رأس ملك أرمينيا الذي كان سجيناً في الإسكندرية ثمناً لصداقتها ودليلاً على حسن التفاهم بينهما على مواجهة الموقف الجديد — ولم تكن مجهودات الملكة مقصورة على ناحية واحدة ، بل تعددت نواحي نشاطها ، وجال بخاطرها بعض المشروعات التي تدل على جرأة عظيمة ، ووصفها

بلوتارخوس بأنها « من أجسر وأعجب المشروعات » - كل ذلك من أجل
 تحاشي وقوع كارثة عظيمة ، أو شكت أن تودى بحياتها ، وتعصف بملكها
 العظيم ، مؤلمة أن تغتير في آخر لحظة ذلك المصير المخيف الذي كان ينتظرها .
 فأخذت في بناء أسطول ومراكب في البحر الأحمر تستطيع أن تهرب بها بحملة
 بكنوزها وذخايرها إلى الهند أو بلاد أخرى أجنبية إذا ألجأتها الضرورة
 إلى القصى أو الحاجة الماسة إلى الفرار ، ولكن النبطيين من سكان بطرام
 (سلح) والأعراب في شبه جزيرة سيناء أحرقوا مراكبها بتحريض من
 حاكم سوريا الذي خان عهد أنطونيوس ، وانحاز إلى جانب القائد المنتصر
 أكتافوس . ولما وجدت أنه لم يتحرك أحد لنصرتها ومساعدتها في محنتها
 في هذه البلاد ، وحبط ذلك المشروع الجري . ولت وجهها شطر المغرب لعلها
 تفوز هناك بمالم تغربه في المشرق . إذ قد فكرت في أن تنزل إلى أسبانيا
 بقوة حربية ، وهناك تثير الثوار ضد أكتافوس ، وبذا يتجدد النضال ، وتعود
 الحرب خدعة ، وربما جال بخاطرها أن يصادف ذلك المشروع هوى في
 نفس أنطونيوس الذي كان قد وصل في ذلك الوقت إلى الإسكندرية فينضم
 إليها ، ويتعاونان من جديد على تنفيذه ، ولكن قد يقسمال المرء هل كان في
 استطاعة أنطونيوس تنفيذ مشروعاتها بمثل تلك المقدرة التي كانت له في الأيام
 الخالية ؟ لقد سلبته فاجعة أكتيوم عقله وصوابه وخارت قواه ، وفقد الثقة
 بنفسه ، وتهدم جسمه ، وعاش في عزلة في منزل ابتناه لنفسه في الميناء الشرقية
 بالإسكندرية ، وسماه تيمونيوم (Timonium) تيمناً باسم تيمون الآثيني
 الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا ، غريب الأطوار يستأنس
 بالذئب والحيوانات إذا عوت ويفر من الإنسان كلما رآه — هكذا عاش
 أنطونيوس يتفر من أخيه الإنسان ، ولا يثق بأحد من الناس ، وإنه لمن
 المستحيل على المؤرخ أن يحزم بالدوافع الحقيقية التي جعلته يسلك هذا المسلك
 الغريب . لأنه كان يشك في كل من رآه أم لأنه كان قد سئم الحياة ومملتها ، أم
 لأن الصدمة التي لحقت به بعد أن هوى من أوج عظيمته أفقدته رشده وصوابه ،

وجعلته يتخذ هذا المسلك ؟ لقد عاش ليشهد عدوه اللدود يدخل أثينا دخول المنتصر الظافر ، ويستقبله الشعب الأثيني بأحسن مما استقبل به أنطونيوس من قبل — عاش ليشهد الملوك والأمراء ، بل والحكام والولاة ينفضون من حوله ، ويسارعون لتقديم فروض الولاء والطاعة لعدوه المنتصر ، وكلما اتجه بصره رأى عدوه تعقد له ألوية النصر ، ويستقبله الناس استقبال الفاتح المنتصر ، وكأنما العالم كله قد هجره لينضم لعدوه — تلك لاشك كانت بعض الخواطر والهواجس التي كانت تجيش بصدرة ، وهو في وحدته وعزلته ، فما أشقاه وما أبأسه !!!

ولكن بؤس أنطونيوس وشقاءه لم يحركاه لينشط لعدوه . لقد جردته هذه الصدمة من الرغبة في التفكير في مستقبله ، ولكنها لم تؤثر في محبته لكيوباترة ، إذ دلت الحوادث التي وقعت بعد ذلك على أن محبته لها وارتكانه عليها لم تهن ولم تضعف — وفي هذه المرحلة وصل إلى الإسكندرية ملك فلسطين المسمى هيرود (Herod) يحمل في جعبته مشروعاً خطيراً ، لو نفذ لكان فيه القضاء المبرم على كايوباترة ، إذ حاول هذا الملك إقناع أنطونيوس — بكل ما كان يملك من المقدرة والمهارة والدهاء — أن في قتل الملكة ضرورة ملجئة ، وأن التخلص منها بهذه الطريقة الماكرة هو الوسيلة الوحيدة لتهدئ الطريق في الصلح مع أكتافيوس ، ولكن مساعي هيرود لم تنجح إذ أبى أنطونيوس أن ينصت له أو يفكر في أى مشروع يرمى إلى مسها بسوء ، وكانت محبته لها هي الدافع الذي أوحى إليه اتخاذ هذا المسلك فجعله يصم آذانه ويعرض عن مشروع هيرود — تلك المحبة التي كانت تسرى في عروقه ، والسلطة التي كانت لها عليه هما اللتان أنقذتاها من غالب هيرود اليهودي الماكر . وهكذا أضاع أنطونيوس بمسلكه هذا وعناؤه فرصة خلاصه ، ثم خسر هيرود نفسه ، فأخذ يعمل على تدبير خطة أخرى للانضمام لأكتافيوس ، بعد أن يئس من إقناع أنطونيوس بالأخذ برأيه . ولقد استعان بتقديم الهدايا الفاخرة ، وبما كان عليه من المهارة السياسية في إستالة (٨٤ — كايوباترة)

أكتافوس ، وجلب محبته له والعفو عنه ، ومن ذلك الوقت تفانى في خدمة سيده الجديد ، ولم يأل جهداً في العمل على إرضائه .

ولقد انقض من حول أنطونيوس سكان آسيا الصغرى كلها وقواته التي كانت في سوريا وفلسطين وبرقة ، وكان يأمل أن يحشد كل هذه القوات في مصر ليقاوم بها أكتافوس المقاومة الأخيرة ، ولكنها حذت حذو جيشه في إيروس ، وخانت عهده عند أول فرصة منحت ، وانضمت إلى أكتافوس . وما أتى ضفناً على إبالة أن قدم على أنطونيوس كانيديوس كراسوس نفسه يحمل ذلك الخبر المشثوم ، وهو عهيان جيشه في أكتيوم وانضمامه إلى أكتافوس ، وبذلك ساعد القدر المحتوم على تحقيق ما جال بخاطر أنطونيوس إذ ذاك من أن يرتبط نهائياً بحكم الصلات إلى أقصى حدٍ بكيوباترة ، فأصبحت قوته مقصورة على مصر ، ولا حليف له ولا ناصر من دونها — ولقد انقضى عام بأمله بين موقعة أكتيوم ودخول أكتافوس الإسكندرية ، قد أعمل فيه الفكر لتدبير شئونه قبل أن يتقدم خطوة ، ربما كانت ذاهبة بثمرات انتصاره في أكتيوم ، فقد خشى أن يكون مغامراً في التججيل بقدمه إلى الإسكندرية ، فيجسر على نفسه حرباً فيها كما حدث ليوليوس قيصر من قبل . وإن ذلك البطء والتريث في الحركات المنطوى على تفكير عميق هو السبب الذي جعل المعركة النهائية الفاصلة مقرونة بهذا الانتظار الرهيب الذي كان يسود جو الإسكندرية . وإن ذلك اليأس الذي استحوذ على عقول ذوي السلطة والقوة في الإسكندرية هو السبب في ذلك الارتباك الكبير ، الذي كان من مظاهر تعدد نواحي التفكير ، ومنازع الآراء واضطرابها — ومع تعذر معرفة الدوافع الحقيقية التي كانت تحرك أنطونيوس بسبب قلة التفاصيل التي وصلت إلى أيدينا عن هذا العهد الأخير ، يمكننا أن نستنبط أن حالة أنطونيوس الكئيبة التي لازمته في معزله في مبنى «التيمنونيوم» ، قد تبدلت إلى فرح وسرور . ولكن هذا التفكير لم يكن صادراً عن حبه الحياة ، أو تعلقه بزخرفها ، أو مظهر من مظاهر حبه للملكة

والتفافه حولها ، بل قصد كل من أنطونيوس و كليوباترة أن يلقيا في روع أهل الإسكندرية أن ليس هناك خطر يهدد كيان مصر ، إذ كيف يكون من المعقول أن يشتغلا بتنظيم كل هذه الاحتفالات في وقت يتوقعان فيه زحف الجيش الروماني على البلاد ؟ ولقد نذرعا بيلوغ كل من قيصر و بن كليوباترة من قيصر ، وأن تيّلوس (Antyllus) بن أنطونيوس من فلقيا ، من الرشد لإقامة هذه الاحتفالات المموهة الساترة للحقائق .

كليوباترة تضع خططها مبرية

ولقد أسست كليوباترة جماعة سميت بالشركاء والإخوان في الموت ، قد انضوى تحت لوائها كل من جمعهم اليأس من حياة عزيزة بسبب ظفر أكتافوس وتوقع الفتك بهم ، وقد ارتبط أعضاؤها بأغظ الموابق والأيمان أن يعيشوا ويموتوا سوياً . ولما كان سلاح الموت مسلطاً فوق رقابهم ، وكان شبحه المخيف أمامهم أنسى ذهبوا ، دفعهم هذا الشعور بالموت القريب إلى قضاء الوقت القصير الباقي من حياتهم في الإستمتاع بالحياة أيما استمتاع . قتركوا العنان للملاذم وشهواتهم ، ومضوا في طغيانهم يعمهون . وإنه لمن المستحيل أن يكشف الآن عن حقيقة البواعث التي دفعتهم إلى إنشاء هذه الجماعة الإنتحارية ، أهى بواعث دينية أم أغراض عملية دفع إليها اليأس القاتل . وقد بنت كليوباترة داخل قصرها الملكي زيادة على معبد الإلهة إيزيس مقبرة لها ، تشبهاً بما كان يفعله الفراعنة الأقدمون الذين بنوا المصاطب والأهرام لتكون المقر والمثوى الأخير لأجسامهم . ولكن هذه المقبرة التي بنتها الملكة لم تنهها للموت فحسب ، بل جعلتها مستقراً لجميع كنوز البطالمة من ذهب وفضة ولآلئ ، وأحجار كريمة ، وعاج وآيات للفن وغير ذلك من الأشياء الثمينة التي اعتاد الفراعنة أن يدفنها في مقابرهم لتكون بجوار أجسامهم بعد موتهم . ولكن هذا الكدز العظيم كان مقدراً له أن يلعب دوراً كبيراً في تطور الحوادث المستقبلية ، وذلك لأن كليوباترة كانت تعلم علم اليقين

أن أكتافوس كان مشغولاً بالاستيلاء عليه ليفك به أزمته ، ويسد به حاجته . ولكيلا تمكنه من الحصول عليه جمعت المشاعل والمواد القابلة للاشتعال بالمقبرة ، حتى تستطيع أن تشعل النيران في هذا الكنز الثمين قبل أن يصعد نَفْسُهَا الأخير .

وقبل إن الملكة أخذت في هذا الوقت تجمع المعلومات التفصيلية عن المواد السامة وأثر كل منها ، وكانت تقوم بهذه التجارب على أجسام المجرمين لكي تقف على خواص كل منها وأثره ، ومقدار الآلام التي يشعر بها من تخالجه حشرة الموت بسببه ، وكانت ترمى من وراء ذلك إلى معرفة أى هذه المواد بطيء الأثر ، وأياها سريع ومقدار الألم الذي يصحب كل واحدة منها . ولم تتردد في إزهاق أرواح الناس كيما تصل إلى طريقة سهلة للتخلص من حياتها . وكانت هذه المحاولة خليقة بأن تصدر عن ملكة امتازت بعقل نشيط ، وذلك حاذق لا يقف بصاحبه عند حد ، أطمعها في العظمة والسلطان في الحياة ، ثم زين لها التغلب على الموت قبل الممات بعد أن حمّ القضاء وصار القشل قاب قوسين أو أدنى . وفي تجاربها التي أجرتها على الإنسان والحيوان ، قيل إنها توصلت إلى أن السم السريع العمل يتسبب عنه أشد الآلام والأوجاع ، بينما السموم ذات العمل البطيء ، يصحبها ألم وضعف . ثم توسعت في دراسة أنواع السموم وخاصة أثر سم الحية . ويروى أنها وصلت إلى النتيجة الآتية وهي أن لدغة الثعبان لا يصحبها ألم أو انفعال ، بل يتبعها نوع من التصلب في العضلات ، ثم يعقب ذلك اضمحلال سريع في الجسم ، وارتخاء تام في العضلات يصحبه الموت .

وفي وسط هذه الاستعدادات لملاقة الموت ، وخلال ذلك الجو الحالك الظلمة الذي كان ينذر بقرب النهاية ، ويملاً أرجاء السراي الملكية ، تبدوا لنا محاولة أنطونيوس الدفاع عن البلاد في « پارايتونيوم » ، على الحدود الغربية . لمصر ، ولكن محاولة أنطونيوس هذه لن تغني عن الواقع فتيلاً . وهي على العكس من ذلك مستعجل بالقضاء النهائي على أملة الأخير . وبذلك تنديد

ثقتة في نفسه وفي رجاله ، ويخر صريعاً جزءاً ما قدمت يداه . وكان بريق
الامل والثقة في النفس التي تجددت عنده باعثاً له على الظن بأن النصر سيكون
لأشك حليفه بفضل شجاعة بعض أنباعه المخلصين ، وبتأثير نفوذه الشخصي
الذي كان له عليهم ، وهذا جعله يعتقد بأنه بمجرد ظهوره أمام جند الأعداء ،
ومُجلتهم حاربوا من قبل تحت لوائه ، وأخلصوا في الماضي له ، سوف يهرعون
إليه مسرعين ، ويقدمون له ولاءهم وإخلاصهم ، فيحاربون في صفه كما فعلوا
من قبل في الحرب الأهلية في إيطاليا . ولكن الحوادث برهنت على أنه كان
خاطئاً في مزاعمه هذه ، فما أن ظهر أمام ميناء « پارايتونيوم » ، التي كان قد
استولى عليها جند العدو ، وأصبح يهدد حدود مصر الغربية حتى تحقق أن
الزمان قد تغير . وأن سحره وبيانه وشخصيته التي أتت بالاعاجيب في سابق
الزمان ، لم تعد ذات أثر في نفوس الجند ، فإنه لما وصل إلى حوائط حصن
« پارايتونيوم » ، وطلب إلى حامية ذلك الحصن أن تعود إلى حظيرة قائدهم
السابق أمر جالتوس الذي كان متولياً القيادة على الجيش في هذه المنطقة ، أن
ينفخ في الأبواق حتى لا يسمع الجند صوت أنطونيوس ، وهكذا ضاع
أمل أنطونيوس الأخير وألحقت به جند العدو خسائر فادحة لم يقو على
احتمالها ، وصدهجتها ، وعجز أسطوله أن يستولى على ميناء « پارايتونيوم » ،
فأتى تحطيم أسطوله وإحراق بعض سفنه ، وإغراق البعض الآخر في الميناء
ضغناً على إبالة ، ولأذن هذه الهزيمة المزدوجة بالفرار إلى الإسكندرية
حيث بقي ينتظر وصول الجيوش الرومانية المنتصرة ، وهي تزحف وتندفق
إلى مصر من الشرق ، وقد دانت لها كل البلاد ، وكتب لها النصر آنى ذهبت .
وكان حضور الأعداء سبباً في استيلاء اليأس التام على أنطونيوس وكليوباترة ،
وكان هذا اليأس يدفعهما للتفكير أحياناً في خطط جنونية ، وكان آخر
الامر سبباً في تفكك تلك الرابطة المقدسة التي كانت بينهما ، والتي كانت
السبب في كل هذه الكوارث والفواجع التي صبت فوق رأسيهما . وكانت
كليوباترة هي البادئة في العمل على فك هذه الرابطة الزوجية ، والتحرر من هذه

العقدة ، كما كانت في الماضي هي العامل الأكبر في تقوية هذه العلاقة ، وتنميتها إلى أقصى حدٍ . بدأت العلاقة بينهما إذاً تدخل في دور حاسم ، حتى قطع الموت العقدة بحد السيف . وكانت أمام كليوباترة في هذه المرحلة مسألتان دقيقتان إلى أقصى حدٍ ، وهما كيف تستطيع أن تقترب من أكتافيوس وتسوي خلافها معه حتى تحافظ على عرشها ، ثم ما هو الدور الذي يمكن لأنطونيوس أن يمثله في هذا الموقف الجديد .

والليرة الرابعة منذ زيارة سكستس إمبي للإسكندرية عام ٤٨ ق . م . قبل موقعة فارصاليا التي تقرر فيها مصير النزاع بين يوليوس قيصر وماجنوس إمبي ، كان مستقبل كليوباترة ومصيرها كملسكة لمصر يتوقفان على مقدم قائد روماني إلى مدينة الإسكندرية . ولكن الروماني في هذه المرة كان هو أكتافيوس ، ولقد كانت تعلم تمام العلم أن الظروف في هذه المرة كانت مغيرة تماماً لسابقتها ، وأن موقفها إذ ذاك كان مغايراً لموقفها بالأمس ، وأن القرائن لا تبشر بالتوفيق . وأتت لها أن تطمع الآن في الصلح مع أكتافيوس وهو الروماني الذي لم تدخر وسعاً ولم تأل جهداً في تحريك قوى السماء والأرض للعمل على هدمه وفنائه ، ولكنها الأمانى الخادعة أحييت في نفسها بعض الرجاء في المستقبل . تلك كانت مهزلة القدر ، وكَم له من مهازل — كليوباترة التي ارتكبت في نظر روما أعظم الجرائم وأفظعها ، واقتطعت من الدولة الرومانية أملاكها ، وسلبت أئمن دررها تحاول في ذلك الوقت الصلح مع روما المنتصرة ، صاحبة الحول والطول وسيدة العالم ، ثم تطمع أكثر من ذلك في كسب ولاء أكتافيوس الذي أعلن الحرب عليها بنفسه ، والذي لم ينس لها أنها سلبت أخته زوجها ، وأنه بتمريضها ورغبتها طردت أخته . أكتافيا ، من بيت زوجها أنطونيوس على ضفاف النهر — تلك كانت سخرية القدر ، أطمعت كليوباترة في النصر إلى النهاية . تقدم إليها أكتافيوس ، والحقد عليها يأكل قلبه ، والكرهية لها تجيش بصدره ، يضم لها كل سوء ويطمع في التشكيل والبطش بها لأنها

العدو اللدود ، ولكن كليوباترة مع ما قدمته من إساءات له ولاخته كانت تعلل النفس بريق الأمل في حلمه وعطفه وعفوه عنها .

والآن نعود إلى أنطونيوس لنرى كيف تأزمت حالته ، وتخرج موقفه ، وأصبح وجوده حجر عثرة في سبيل كليوباترة ، التي رأت أنه لا يجب أن تتأخر عن تقديمه قربانا تُضحيه في سبيل طمعها في الاتفاق مع أكتافيوس ، وكان القدر يسخر الأمور ضده ، فلم يجد مفرأ من أن تهمله ، ولا تحسب له حساباً كما عاملها من قبل عندما تزوج من « أكتافيا » وأهل شأنها ، ولكن بينما كان يرفض اقتراح هيرود أن ينجى نفسه بتضحيتها وقتلها لم تتردد عن أن تضحي به . ولم تظهر له ما أضمرت ، وعلى ذلك صممت على التخلص منه مع أنها اضطرت أن تعيش معه ، وأن تدافع بالاشتراك معه ، وأن تجرى بينهما وبين أكتافيوس سلسلة طويلة من المفاوضات الدبلوماسية عن طريق الرسل ، وكان غرضها الأساسي إذ ذاك أن تلبس للحالة الجديدة لبوسها ، فتتخذ عدواً من صديقها الحالي ، وصديقاً من عدوها بالأمس ، وتنقمص هذا الشكل الجديد كما تنقذ الموقف . وكان هذا الدور الذي لعبته آخر وأصعب دور مثله على مسرح الحياة ، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً في القيام بالشق الثاني ، فلما أظلمت الدنيا في وجهها امتدت يدها إلى جسمها ، وتخلصت من حياتها كما سنرى فيما بعد .

وفي هذه المرحلة بدأت مفاوضات دبلوماسية ذات شأن عظيم ، وخطر كبير عقب عودة أكتافيوس من إيطاليا في نهاية فبراير عام ٣٠ ق.م ، وكانت هذه المفاوضات في الظاهر بين فريقين ، المنتصر الظافر والمهزوم المقهور ، ولكنها في الحقيقة كانت بين ثلاثة : أكتافيوس ، وأنطونيوس ، وكليوباترة ، وكان لكل من هؤلاء الثلاثة خطط ظاهرية وأخرى سرية ، وكانت تتجاذب الثلاثة عوامل خفية ، وتؤثر من وراء ستار في الموقف من حب مدعى ورغبة غير حقيقية في الموت ، وأخيراً عزم

مصطنع على الحياة . ولقد أظهر أكتافوس خلال تلك المفاوضات صلابته مشوبة بصراحة لا تعرف الإلتواء والتردد في أمر واحد وذلك هو إصراره على حرمان أنطونيوس من كل وسيلة للنجاة بنفسه وحياته . وكانت ردوده لأنطونيوس كصمته العميق تظهر تصميمه على طلباته التي كانت تتلخص في تلك العبارة المختصرة ، التي تلخص الموقف أحسن تلخيص « إن موتك أمر محتوم ، إذ قد هداه عقله إلى أن ذلك المتنافس الذي استخدم جند الرومان في الدفاع عن ملكه مصر والذي حاول أن يقضى على روما من أجل أن يؤسس بدلها إمبراطورية شرقية يونانية ، مركزها الإسكندرية ، لا بُدَّ أن يلقى حتفه أولاً ، وبعد أن يتوارى عن الميدان يمكن أن يعاد تأسيس الإمبراطورية الرومانية من جديد . ويكفي للتدليل على خضوع أنطونيوس وكليوباترة التام لا أكتافوس أنها كانا الباديين بفتح باب هذه المفاوضات ، فرجا أنطونيوس ، وألحف في الرجاء أن يسمح له أكتافوس أن يعيش كأحد الناس في أثينا إذا لم يرغب أكتافوس في بقائه في مصر ، بينما طلبت كليوباترة أن تحتفظ بعرش مصر لأبنائها . ولقد أجزلا العطايا والهبات الفاخرة لأكتافوس سحله تأخذه الشفقة عليهما فيجيبهما إلى طلباتهما ؛ وزيادة على هاتين الرسالتين الرسميتين اللتين أرسلهما كل من أنطونيوس وكليوباترة معاً ، قد انفردت كليوباترة بإرسال رسالة سرية لأكتافوس معها اشارات الملك كعلامة لخضوعها ، راجية أن يُعيد لها إليها ثانية أو يمنحها لأبنائها ، وبذا أفهمته أنها على أتم استعداد لتضحية أنطونيوس . وفي الحال دخل معها أكتافوس في مفاوضات سرية . ولقد كان للرسائل التي وصلت من الإسكندرية تأثير تجاوب صداه في ثلاثة أشكال : ففي أول الأمر أجاب على طلب أنطونيوس بالصمت والإعراض التامين ، متجاهلاً وجوده ، ومفترضاً موته ، ثم كتب إلى كليوباترة رسمياً يطلب إليها أن تكلف عن الحرب في الحال ، وأن تسلم مقاليد الحكم ، ومتى فعلت ذلك يمكن حينئذ البحث في مآلها وتقرير مصيرها .

وفي هذا الجواب نرى بريق أمل لكليوباترة إذا قرن بمعاملته لأنطونيوس ،
ولقد أردف هذا برسالة سرية رداً على رسالتها السرية ، يعيد فيها الملكة
بالإبقاء عليها وعلى عرشها على شريطة أن يُعتمد أنطونيوس أوينقي من مصر .
ولكن الردين اللذين وصلا كليوباترة لم يشفيا غليها ، كما أن أنطونيوس لم
يقنع بصمت أكتافيوس وإهماله شأنه ، فتَوَلَّى الإثنان على أن يعبد الكرة ،
كُلُّهُمَا يفوزان هذه المرة بأكثر مما فازا به في المرة السابقة ، فلبجاً أنطونيوس
إلى حيلة جريئة إذ قدم لأكتافيوس آخر قتلة قيصر واسمه بوبليوس
توريليوس (Publius Turullius) كيما يثار أكتافيوس منه لقتل أبيه ،
ولقد أقدم على هذا مع أن توريليوس هذا كان يعيش إلى هذه اللحظة صديقاً
لأنطونيوس في الإسكندرية . ولقد ظن أنطونيوس أنه من المناسب ، بل من
الضروري أن يصارح أكتافيوس بشأن علاقته بكليوباترة ، ومحبتة لها ، فكتب
إليه شارحاً حقيقة الحال وملتسماً لنفسه العذر بأنه وكليوباترة كلاهما قد شغف
حباً بصاحبه حتى صارت بينهما عاطفة أبدية متبادلة لا يمكن اتزاعها إلا بنزع
الروحين . ولكي يبرهن لأكتافيوس على مقدار إخلاصه وتضحيته للملكة أكد
له أنه على أتم استعداد لأن يموت إذا كان في موته هذا خلاص للملكة . ولكن كل
الدلائل تدل على أنه لم يكن خالص النية في استعداده للتضحية ، وأنه لم يكن يقصد
ما يقول فعلاً لأنه دافع عن حياته بشدة ووضَّحَ بها إلى النهاية . ومهما تكن دوافعه
ونواياه فإن الجواب الذي لقيه من أكتافيوس على رسالته كان الصمت التام ، وقتل
صديقه الذي أرسله مصفداً في الأغلال . أما وعود أكتافيوس لكليوباترة
في هذه المرة ، فلم تزد عما قاله من قبل ، وكانت رسالته لها تجمع بين الترغيب
والتهديد ، والوعد والوعيد ، ومع ذلك فلم يلق هذا الإهمال في قلب
أنطونيوس يأساً ، ولم تثبط عزيمته بإعراض أكتافيوس عنه فبدأ يلعب على
الوتر الحساس ، ويستطفه علَّ قلبه يرق بإرسال ابنة أنتيليوس (Antyllus)
إليه وكانت قد خطبت له في عام ٣٧ ق . م . يوليا (Julia) ابنة أكتافيوس
ثم أرسل معه مقداراً كبيراً من المال ، وظن أن ابنة وهذا المال

الكثير سيشفعان عند أكتافوس ، ويكونان سبب خلاصه . وفي الوقت نفسه أرسلت كليوباترة لأكتافوس تبليغه أنها إذا ضيق عليها الخناق لن تجد مناصاً من الانتحار ، وتخريب كل ما تملك من نفائس وكنوز . ولقد كان أكتافوس شديد الرغبة في المحافظة على حياة كليوباترة بقدر حرصه على قتل صاحبه ، والتخلص من منافسه بأى ثمن . وعلى ذلك لم يغير موقفه بالنسبة لأنطونيوس ، فقبل المال ورد الرسل بدون جواب . أما تهديد كليوباترة فلقد كان سبباً في إزعاجه ، لأنه كان يريد أن يملأ بكنوزها ونفائسها خزائن الدولة الخالية ، وأن يدفع منها مرتبات جنده ويحجز لهم العطاء والهبات ، في حين كان يريد أن يحتفظ بها نفسها ليعرضها في احتفائه بالنصر عند عودته إلى روما ، فتكون بشخصها أكبر رمز محسوس على ما كسبه من نصر ، وأبداع آية لانتصاره . ومن أجل ذلك كان الإحتفاظ بحياتها لتحقيق هذه الغاية ، والاستيلاء على كنوزها ونفائسها ، والقضاء على أنطونيوس والتخلص منه بأى ثمن ، شغل أكتافوس الشاغل ، والمحور الذى تدور عليه سياسته في هذا الدور الأخير من النزاع .

ولكى يمنع كليوباترة من أن تسرع بارتكاب ذلك الأمر الخطير ، ولكى يكسب ثقتها ، وعدها فى شيء من الغموض والإبهام أنه فى حالة وفاة أنطونيوس سوف يسمح لها بالاحتفاظ بعرشها . ثم أرسل لها أحد رجاله المخلصين ، وأمره أن يحدث الملكة بكياسة ولباقة ، وأن يؤكد لها بأن أكتافوس قد أحبها ، ووقع فى شرك غرامها ، وأصبح من عشاقها . وقد أمثل أكتافوس بذلك أن يطعمها فيه ، ويحى الرجاء فى قلبها بأنها ستستولى على مشاعره ، كما استولت على أبيه قيصر وزميله أنطونيوس من قبل ، فتعجم عن الإقدام على الموت منتحرة ، وإتلاف جميع نفائسها فيتم له كل ما يريد ويبنى فى التشكيل بها . أما عن غرام أكتافوس بها ، فلم يكن أمراً يستحيل عليها تصديقه ، فأحواله الغرامية كان يجرى ذكرها على الألسنة وتفيض بها المجالس مما جعل الملكة على استعداد لأن تصدق ما جاء فى رسالته ، وفوق ذلك

فإنها كانت تعتمد على مقدرتها في الإغراء والاستمراء ، وثق في قدرتها على تنمية هذه الرغبة في أكتافوس ، حتى تجعله يهيم بها ويصير من عبادها كما فعل أب له من قبل . وكانت في ذلك الوقت تبلغ التاسعة والثلاثين من عمرها ، ولكنها كانت على جانب عظيم من الجاذبية والذكاء مع تقدم سنها . ولقد سُررت ، وأيقنت أنها وجدت مخرجاً من مأزقها ، فأكرمت مشوى رسول أكتافوس ، وكان هذا التكريم لرسول أتى من قبل عدوهما أكتافوس مشيراً للشك في نفس أنطونيوس ، ولكن لم يكن في مقدوره أن يفعل شيئاً وخصوصاً أن أكتافوس كان قد تقدم بجيشه من سوريا حتى وصل إلى الفرما (بيلوزيوم) على مصب الفرع الشرقي للنيل . وكانت حامية المدينة تحت قيادة سيلوكوس (Seleucus) قد أبدت مقاومة ضعيفة للأعداء . وقيل إنها سلمت بناءً على أوامر خفية من كليوباترة نفسها ، وأدى وقوع المدينة في يد العدو إلى انتشار الإشاعات بأن قائد الحامية بالمدينة قد خان بلاده ، وسلمها للعدو بناءً على تعليمات من كليوباترة . وأخذت الإشاعات عن خيانتها تزداد ، ويرجف بها الناس . وإن مسلك كليوباترة هذا — إن صححت الإشاعة التي نسبت إليها الخيانة — ليتفق مع سياستها التي رسمتها لنفسها في هذه المرحلة الأخيرة ، التي كانت تنطوي على عدم تحقيق مطامعها بالقوة ، بل كانت معتمدة الاعتماد كله على عطف أكتافوس ورحمته ، وعلى مقدار نفوذها الشخصي ، ولم يكن يمنعها من إلقاء السلاح بين يدي خصمها ، والجنوح إلى التسليم المطلق سوى خوفها من أنطونيوس الذي كان لا يزال قابضاً على ناصية الأمور ، بأتمر الجيش كله بأمره . وكان الاستيلاء على الفرما ذا أهمية حربية عظيمة ؛ لأنه جعل الطريق مفتوحة إلى الإسكندرية من الشرق . ولقد جاءت الإشاعات إلى الإسكندرية تترى عن خيانة كليوباترة . وقال المؤرخ ديوب أنه لما كان أكتافوس يتقدم نحو الإسكندرية ، نهت كليوباترة رعاياها سراً عن أية مقاومة له . ولقد روج الرومان الموالون لأنطونيوس هذه الإشاعات ، ليوقعوا في روعه صدقها ؛ ولكن الملكة حاولت إدحاض هذه التهم بالإلحاح

على أنطونيوس في أن يعاقب من كان سبب هذه الهزيمة ، وهو حاكم الفرما بقتل أسرته التي كانت بالإسكندرية ، حتى تزيل كل تهمة من شأنها أن توحى بأنها كانت على اتفاق معه على الفشل والتخاذل ، والتمكين للأعداء . وهكذا حاولت إسكات صوت الرومان دون أن تقدم برهاناً قطعياً على براءتها . ولكي تكسب أكتافوس إلى جانبها كان لا بد لها من أن تستعين على تنفيذ مآربها بالكتبان الشديد ، خشية أن يعلم أنطونيوس قستهدف لعدوانه ، وتعرض نفسها لخطر الموت ، ولكنها كانت تعلم أنها إن لم تفعل ذلك فلا أمل لها في رحمة القوى الظافر . وكانت أغراضها ونواياها الحقيقية معروفة في الفرما ، وإن كانت في الإسكندرية تمثل دوراً روائياً مسرحياً . وفي كلتا المدينتين كانت تحاول إنقاذ حياتها ، وتسوية مركزها بقدر ما كانت تسمح به ظروفها السيئة . وبينما كانت حليفة لأكتافوس سرّاً ، كانت في الوقت نفسه لا تزال تقيم مع أنطونيوس في أحد القصور الملكية بالإسكندرية . ولقد اضطرتها ظروفها الصعبة والمواقف الحرجة التي وقفتها أن تستحث الجند على القتال ، بينما كانت في الوقت نفسه تتخذ التدابير لكي تمنعهم من أن يستميتوا فيه ، وكانت تقضي أوقاتها من الصباح إلى المساء تقدر زناد فكرها متلصة طريقاً لإيجاد مخرج لنفسها ، فأثبتت بذلك شدة بأسها وعزمها الحديدي وحدة ذهنها . ولقد ظنت أنها توصلت إلى نتيجة يحسن السكوت عليها ، وهي أن أصبحت حليفة أكتافوس ، ولكنها لم تكن تشك في أن تلك المخالفة كانت مؤسسة على الخداع والمكر ، وأن القدر يخفي لها شراً مستطيراً ، وأن أكتافوس يخفي لها في جعبته ذلاً ومهانة ليس بعدها من مزيد .

بيد أن المقادير كانت تعاكس مشروعاتها من ناحية أخرى ، وذلك لأن أنطونيوس كان قد بدأ يتجدد نشاطه ، ووضع لنفسه خطة عملية هي على النقيض من الخطة التي ترسمتها لنفسها ، فصمم على امثاق الحسام مرة أخرى ، عله يصل بحد السيف إلى ما لم يستطع الوصول إليه بالمفاوضات واللين ، وكان قد تأكد أن عدوه لن يرحمه ، وأن خلاصه لن يكون بغير الدفاع عن نفسه

بشجاعة المستميت . ولما علم بوصول أكتافوس إلى كايوس (أبو قير) ،
 قاد فرسانه وقابل خيالة أكتافوس فدحرم ، وكان هذا النصر آخر انتصار
 أحرزه ، وبريق أمل بعث فيه النشوة والسرور والاختيال والإعجاب ، وجعله
 يزهى به ويتكبر ؛ ولكنه كان لا يزال حتى ذلك الوقت يشعر أن الظفر كل
 الظفر في ابتسام كليوباترة له ورضائها عنه ؛ ولذلك سارع من ساحة القتال
 إلى القصر الملكي في الإسكندرية ، وارتدى بنفسه بين أحضان كليوباترة وكله
 محبة وفرح وسرور . وشجعه النصر الذي أحرزه على التفكير في خطط
 ومشروعات جديدة ، فأمر بمائة السهام أن يصبوا أسهماً إلى معسكر أكتافوس .
 يحمل كل منها وعداً بأن كل جندي يسلم نفسه إلى أنطونيوس يكون جزاؤه
 ألفاً وخمسة دینار . ولقد أفسد أكتافوس عليه تدبيره هذا ، بأن حمل
 بنفسه إلى جنده ، وعد أنطونيوس ، وبين لهم أن في هذا العمل بهاناً حسياً
 على حرج مركزه ، وتأزم حالته ، وعدم خيراً أكثر ، وعطاءً أجزل متى
 تم لهم فتح الإسكندرية . ولما وجد أنطونيوس أن حيلته لم تنفع أراد أن
 يقوى مركزه في أعين جنده ، فطلب إلى أكتافوس أن ينازله القتال وحده
 فأجابه أن سبل الموت مفتحة بين أيديه ، وأن له أن يختار من بينها غير المبارزة
 طريقاً ، ثم ختم رسالته بقوله إن طريقاً واحدة يتعذر عليه سلوكها ، إذ
 قد أحكم سد مسالكها وهي الطريق إلى الحياة — وإن هذا الحوار الأخير
 بين القائدين هو ختام لسلسلة الاتهامات التي كان يكيلها كل منهما للآخر ،
 في رسائله وخطبه ، وكان كل منهما يعرف أن الغلبة للأقوى ، وأن الموت
 المؤكد للهزوم المدحور ، ولكن أنطونيوس كان لا يزال متعلقاً بأهداب
 الحياة فأخذ يستعد للبوقة الفاصلة التي لم يطل فيها أمد القتال ، وذلك لأن
 جند أنطونيوس هجروا جانبه ، إما يأساً من أن ينالوا نصراً وهم في جانبه ،
 وإما تنفيذاً لأوامر كليوباترة السرية بعدم القتال وإلقاء السلاح ، ولذلك
 فرت الجموع الغفيرة من المشاة والفرسان إلى صف أكتافوس ، ولم يبق
 لأنطونيوس سوى الأسطول الذي أخذ يتأهب به كيما يلقي آخر سهم في جعبته ،

ولكن كليوباترة سلبته هذه الفرصة الأخيرة فأفسدت عليه بحارة الأسطول، وأغرتهم بالانضمام إلى جانب أكتافيوس. ولا بد أن ذلك الدور الذي لعبته الملكة في خيانة الجيش كان سرّاً قد هتك حجابيه ، وفشا أمره ، وذاع بين الجموع خبره ، ففسد الشك إلى نفس أنطونيوس ، غير أنه أغمض عينيه عن الحقيقة ، واستولت عليه عواطفه واندفع وراء أهوائه . وهنا تترك خيال القارئ يتصور تلك اللحظة الرهيبة التي تمثلت فيها الحقيقة المؤلمة سافرة أمام عيذه ، والتي أدرك فيها تماماً أنه لم يعد في استطاعته أن يقاوم ، وأن القضاء المحتوم قد حان أوانه . فانسحب إلى أحد القصور الملكية حيث انزوى وحيداً منبوذاً من جنده وأحبابه ، لا حول له ولا طول ، ينظر تلك الساعة التي يدخل فيها منافسه الإسكندرية فتحاً مظفراً .

إنحمار أنطونيوس

كان أنطونيوس يبلغ من العمر إذ ذاك ثلاثة وخمسين عاماً ، لم يخالجه أدنى شك في أن قضاءه المحتوم قد حان ، ولم يبق بينه وبين أكتافيوس حائل سوى مدينة غير حصينة ، وقد اكتظت شوارعها بأناس من جميع الأجناس ، فمنهم المصريون واليهود واليونان ، وجاليات من الآسيويين والإفريقيين ، وكلهم ترتعد فرائصهم من هول الحكم الروماني المرتقب . ولكن أنطونيوس حتى في تلك اللحظة الرهيبة كان لا يفكر في غير كليوباترة ، ولا يزال محافظاً على العهد القديم ، ناسياً نفسه ، باقياً على حبها ، فأخذ يندب حظها المنكود . على أن الملكة التي كانت موضع كل ذلك الإخلاص والمحبة لم تكن تفكر فيه أو تقيم له وزناً في وضع خططها ، بل كانت ترى أن الفرصة قد حانت وتتطلب منها الإسراع في العمل على قتل أنطونيوس كيما تحصل ، ثمناً لذلك ، على رضا أكتافيوس ، فلجأت إلى الحب الذي يمكنه لها ، تستخدم منه سلاحاً قاتلاً يأتي على أنطونيوس .

ولكى تنفذ خطتها التى رسمتها لجأت إلى قبر ابتنته على شكل معبد هو «الماوسليوم» (Mausoleum) وأخبأت فيه كنوزها ونفائسها ، واتخذته موئلاً الأخير اعتصم به ضد هجمات العدو ولو إلى حين قصير ، وفيه تستطيع أن تتخلص من حياتها متى أدركت وأيقنت بفشل كل الوسائل لنجاتها . ويؤخذ مما كتبه المؤرخ بلوتارخوس أنها خشيت غضب أنطونيوس ، وبعثت إليه من هناك مَنْ يقول له إنها فرت إلى قبرها ، وإنها انتحرت لكي تنجو من إنتقام أكتافوس . وكانت واثقة أن أنطونيوس الذى لم يكن ليستطيع ، وهو فى أوج عظمته وفى أسعد أوقات حياته أن يعيش بدونها ، سيصعق عند سماع خبر انتحارها ، فيذهب صوابه ، ويكون خبر موتها الضربة القاصمة ، وبذلك يموت وتطوى صحيفته. وموته يبعث الأمل فى نجاتها - هكذا فعلت كليوباترة ففرت إلى قبرها ، ولم تصطحب معها سوى وصيفتها الأمينتين إيريس (Eiris) وخارميان (Charmian) وخصيها الذى كان يلزمها ، ثم أحكمت وراءها باب القبر الذى تحصنت فيه . ولقد تحقق ظنها ، إذ كان خبر انتحارها المزعوم كالسهم أصاب فؤاده أو كالصاعقة أذهبت له ورشاده ؛ ولم يتركه الحير المشثوم إلا مشدوها جريحاً كلياً ، فلقد وضح له الطريق التى يحق لمثله أن يسلكها فى مثل هذه الأحوال .

وكان شبح الموت منذ موقعة أكتيوم يتمثل له ، وفكرة الإنتحار تجيش بصدرة وتداعبه بين حين وآخر ، ولكن كان يعوزه العزم والإقدام . بيد أن خبر موت حبيبته قوى عزمه على الموت واقتفاء أثرها والحدو حذوها فأمر أحد خدمه وعبيده المسمى إيروس (Eros) أن يطلعنه بخنجره فعز على الخادم الأمين أن يهوى بخنجره على صدر سيده ، وهوى به على صدره فخر صريعاً ، ضارباً بذلك مثلاً أعلى فى الشجاعة والوفاء والإخلاص : وكان منظره حافزاً لأنطونيوس فامتدت يده إلى خنجره ، وهوى به على نفسه فخر صريعاً على الأرض ، ولكن الضربة لم تكن قاضية لساعتها ، والجرح

لم يكن بليغاً إلى درجة الموت العاجل ، فأخذ يتقلب ويضرج في دمه متوجعاً متوسلاً إلى مَنْ حوله أن يحجزوا عليه ويخلصوه من عذابه ، وعندئذ بلغ مسمع كليوباترة خبر انتحار أنطونيوس ، ولكن سرعان ما ذاع الخبر بأنه لا يزال على قيد الحياة ، وكانت رغبته الأخيرة أن يرى كليوباترة ، ولقد تحققت تلك الرغبة إذ جاءه ديوميديس (Diomedes) كاتم سر الملكة ، وأخبره بأن الملكة تود أن تراه ، ولقد مدَّ القدر في حياته حتى حمل إليها في مقبرتها وهو مدرج بدمائه . وهنا قد يعجب الإنسان لماذا حققت الملكة رغبة أنطونيوس الأخيرة ، فسمحت بحمله إليها وهي السبب في انتحاره والمديرة له . وقد يصح القول في الجواب عن ذلك بأنها رغبت الاستحواذ على جنته ، حتى لا يدعى أحد لنفسه شرف قتله . أما ما حدث بينها داخل تلك المقبرة فلم يتسرب إل الخارج منه إلا ما رغبته كليوباترة وغادمتاها في أن يدعته . وقد وصف المؤرخ بلوتارخوس وداع العاشقين وصفاً مؤثراً ، إذ ناجته بقولها إنه سيدها وزوجها . وهو الآخر ظل يواسيها طول ما بقي بين ذراعيها وأخذ يحثها على ائتمان بروكليوس (Proculeius) فقط وهو من أتباع أكتافيوس عندما تبدأ مفاوضاتها معه ، وقد جاء في بلوتارخوس أنه طلب منها وهو يلفظ النفس الأخير ألا تذهب نفسها حشرات على مصيره ونهايته ، بل يجب أن تذكر الماضي من سعادته ، وأنه كان سعيداً حتى في ختامه المحتوم ، إذ لم يهزمه وهو الروماني الشريف إلا روماني شريف مثله . وإنه لمن العسير أن نصدق ما يقوله البعض من أن اليأس قد بلغ منها مبلغاً عظيماً جعلها تمزق صدرها حزناً وكداً ، وأن أنطونيوس ناداها بأحب الأسماء قبل أن يموت ، وأنه أعلن لها أنه سعيد لموته بين ذراعيها . وقد يقال إن مثل هذه العواطف في موقف كهذا بعيدة الاحتمال ، وإنه ليس من الطبيعي صدورها في مثل هذه الظروف ، ولكن لا يمكن الجزم بما جرى بينهما ساعة اللقاء ، وعندما حان حينها للافتراق الأبدي . وإن أقصى ما يمكننا أن نصدق أنه لقي الموت بين أذرع كليوباترة حيث تستعجم وشرب كأس ملاذه حتى الثمالة .

وكان موته حادثاً خطيراً قام له الناس وقعدوا في جميع أرجاء الدولة الرومانية ، ولكن العالم تنفس الصعداء لموت ذلك الرجل الذي خَضَبَ أرض الشرق والغرب بدماء الأبرياء من أجل طموحه ومطامعه السياسية ، ثم رغباته وشهواته ، ولقد أسرع أحد حراس أنطونيوس حاملاً ذلك النبأ العظيم إلى أكتافوس في معسكره ومعه سيف أنطونيوس المخضّب بالدماء ليشهدده على صدق نبئه . وما كاد أنطونيوس يلفظ النفس الأخير حتى أرسلت كليوباترة رسولا من قبيلها إلى أكتافوس ليزف إليه هذه البشرى ، وبوصول ذلك الرسول من الملكة تأكد لدى أكتافوس موت ذلك القائد العظيم ، ولكنه بدل أن يتلقى الخبر بالسرور والفرح تلقاه بالحزن والكآبة ، إذ تصور زميله القديم في الجهاد وقائد روما المظفر في ماضى حياته قد صار جثة هامدة ، فعكف في خبائه يبكيه ، ولم يمنع تنازع المطامع بينهما وتضارب مشائهما من أن يسح الدمع عليه مدراراً . وقد تذكر أكتافوس تلك الدموع التي ذرفها أبوه يوليوس قيصر من قبل ، وفي أرض مصر بالذات منذ ثمانية عشر عاماً عندما جاءه النعى بموت پمپي ، ورآه يجتدلاً على شاطئ الفرماء ، فلم يشأ أكتافوس أن يكون أقل من أبيه وفاءً وإحساساً في موقف يشبه موقفه ، إذ أن موت أنطونيوس كموت پمپي كان نتيجة تدبير أيدي مصرية ، فالأول من صنع كليوباترة ، والثاني كان نتيجة تدبير بطليموس ، أخيها وزوجها الأول . وكلاهما لم يتسل الثواب المنتظر جزاء ما قدمت يداه .

وبعد أن بكى أنطونيوس ، بدأ أكتافوس يشعر بضرورة كسب رأى العام إلى جانبه . وفي وسط هذا الجو المضطرب وتحت أبعاد آلات الحرب والقتال ، وبينما كانت الإسكندرية والملكة ومن حولها يهلعون من هول ما ستمنخض عنه الظروف ، وترتعد فرائصهم من شدة خوفهم من بطش ذلك القوى القاهر ، كان لدى أكتافوس متسع من الوقت (٩٢ - كليوباترة)

يجمع فيه أصدقاءه والمقربين منه ليثبت لهم بما دار بينه وبين أنطونيوس من الرسائل أنه كان على أتم استعداد لحسن التفاهم ، وأنه حاول جهد استطاعته أن يصل إلى حل مرضٍ مع أنطونيوس الذي يُحْمَلُّهُ هو وحده مسؤولية فشله في الوصول إلى نتيجة مرضية وتسوية ما بينهما من خلاف بروح ملؤها الرغبة الصادقة في حسم النزاع من غير أن يضطر إلى قتل نفسه ، واختتم أقواله برثاء أنطونيوس والتعبير عن شديد أسفه لوقوع تلك الفاجعة .

أما موقف الملكة بعد موت أنطونيوس فلقد كان حرجاً شديداً الحرج ، ضيقاً شديداً الضيق إذ كانت تعلم أن حسابها سيكون عسيراً ، وأن عقابها سيكون قاسياً غاية القسوة ، مع أنها بذلت أقصى جهدها في سبيل استرضاء أكتافيوس فقدمت له خدمة جليلة بتدبير مقتل أنطونيوس - وكانت سياسة أكتافيوس بعد ذلك ترمى إلى الاحتفاظ بشخصها ، ثم بكنوزها الثمينة وهما أمران لا تقوى جيوشه وعساكره على تحقيقهما ؛ ولذلك صمم على الاستمرار في خطة الخديعة والمكر وبذل الوعود الخلابه حتى يستحوذ عليهما ، وتصبح في قبضة يده ، فأرسل لها رسولين من قبيله وهما صديقه الحميم بروكليوس (Proculeius) وخادمه الأمين إپافروديتوس (Epaphroditus) كيما يفاوضاها ، وزودهما بالتعليمات الدقيقة عن الطريقة التي يجب أن يسلكاها ، والوعود الغامضة التي يمكنها بذلها ، ولكن كليوباترة رفضت أن تسمح لهما بالدخول إلى قبرها الحصين ، إذ أنها كانت تعلم أنها تستطيع أن تملئ شروطها ما دامت مستحوذة على كنزها ، ولكنها أخذت تفاوض بروكليوس من كوة أو ثقب يباب المعبد الحصين . وإنه ليس من الممكن معرفة شروطها التي عرضتها إذ ذاك على سبيل التحقيق ، ولكن يمكن الظن بأنها كانت تتلخص في الاحتفاظ بعرشها لنفسها أو لابنائها من أنطونيوس . ومن المؤكد أنها كانت قد صرفت النظر في ذلك الوقت عن الأمل في أن يجلس ابنها من قيصر المسمى قيصرون على عرش مصر ، إذ أنه عند ما

تبين لها أن الأمر قد صار بيد أكتافوس وآل إليه مصير البلاد، أيقنت أن قيصرين سيكون أول من ينتقم منهم أكتافوس فأرسلته مع مريه رودون (Rhodon) إلى إثيوبيا أو بلاد النوبة ليحاول منها الفرار إلى بلاد الهند . على أننا مهما نعمل الفكر ونطلق العنان للخيال ، فإننا لن نستطيع تفهم سر الحوادث التي تعاقبت إثر انتحار أنطونيوس ، وسيق الشئ الكثير منها مكنوناً في طي الكتمان . وقد يسائل الإنسان نفسه عن الفائدة الحقيقية التي كانت تعلقها كليوباترة على وعود أكتافوس الغرامية ، مع أن هذه الوعود يمكن نقضها بسهولة ، ومع أن لدى أكتافوس ألف وسيلة ووسيلة للتخلص منها ومن جميع الأشخاص غير المرغوب فيهم ، مهما يذل لهم من وعود وعهود . ولربما كانت كليوباترة مصممة على مقابلة أكتافوس نفسه والحصول منه على تأكيد شخصي لتلك الوعود والآمال التي أبداها عن طريق بروكليوس ورسله المخلصين . وكانت التعليمات التي تلقاها هؤلاء الرسل تقضي ألا يجعلوا الرب يتسرب إليها في احتفاظها بعرضها ، وألا يحول بخاطرهما أن أكتافوس يحافظ على حياتها من أجل عرضها في روما عند احتفاله بنصره ، وأوصاهم بأن يؤكدوا لها إخلاصه بدون أن يورطوه بعد أو ذمة ، وأن يحاولوا إقناعها بالتسليم من تلقاء نفسها ، ولكنهم وجدوا الموقف أشد حرجاً مما ظن أكتافوس ، فسارعوا بإخباره ليتدبر الأمر بحكمته ، فأرسل لها كورنيليوس جالوس (Cornelius Gallus) وهو الذي أصبح فيما بعد أول حاكم روماني على مصر بعد موت كليوباترة . وكانت له دراية ومعرفة خاصة بالشئون المصرية وأساليب السياسة فيها ، فنفذ التعليمات التي تلقاها من سيده ، وهي أن يطيل حوارهم ومفاوضاتهم مع الملكة ، وكان ذلك بواسطة ثقب في باب المقبرة الحصينة المعتصمة بها ، وفي الوقت نفسه تسوّر بروكليوس المقبرة بصحبة بعض الجنود من الجانب الآخر . ولقد علمت كليوباترة بصعود بروكليوس ومن معه إلى معقلها الحصين ، ولكن بعد فوات الوقت ، وبينما هم يقتربون منها ، مدت يدها إلى خنجر كانت

قد أخبأته في طيات رداثها، وحاولت أن تطعن به نفسها، فسارع بروكليوس إليها وحال دون تحقيق رغبتها، وخطص حياتها الثمينة لأكتافقيوس، فاستحق بذلك ثناء قائده لأنه احتفظ له بالملكة وكنزها من عبث العابثين. ولقد حاول أكتافقيوس تهدئة روعها وسمح لها بالبقاء في قبرها وأمر بإفروديتوس أن يعاملها بالاحترام الذي يليق بالملكة، وأن ينقذ لها كل رغباتها، وألا يعصى لها أمراً. ولكنه كُلف في الوقت نفسه بمراقبتها أشد مراقبة خشية أن تتخلص من حياتها بالاتجار، وسمح لها بتحنيط جثة أنطونيوس وبالقيام بكل ما يلزم من معدات لدفنه والإحتفال به إحتفالاً يليق بمثل من عظماء الرجال، بيد أنه مع كل تلك التجلة والاحترام والسهر على تنفيذ رغباتها كانت تشعر بالموت يقترب منها رويداً رويداً، يخيم عليها بظلماته ويهبط عليها بكلكله.

أما مدينة الإسكندرية فقد كانت ترقب تطور الحوادث بعين ملؤها الخوف والهلوع، لا تدري ماذا ينوي القائد المنتصر صنعه في مدينة عزلاء، لا مدافع عنها، ولكن لما وجد أكتافقيوس أنه السيد الذي لا منازع له في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية أراد أن ينهي الحرب، وأن يبدأ عهداً جديداً يسود فيه السلم والطمأنينة. ولم يجد من الضروري أن يقسو ويشدد ويبطش بالأهلين، ويخضب بدمائهم شوارع العاصمة المصرية، واكتفى باحتلال الإسكندرية بجيشه كعلامة لنصره، وكان دخوله المدينة إيذاناً للعالم أجمع أن جميع الممالك التي تحيط بالبحر المتوسط قد اعترفت بسلطان الدولة الرومانية، وأن البحر المتوسط نفسه قد أصبح بحيرة رومانية. ولكن الخوف كان قد تملك الإسكندرية، وملاً أرجاءها كما حدث أيام بوليوس قيصر في صدر عصر كليوباترة وقت احتلاله المدينة عقب انتهاء الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية. وللرة الثانية في حقبة قصيرة هي عهد هذه الملكة، سار الجند الرومان في شوارع المدينة، وعلا صوت أقدامهم وعجيجهم في أنحائها وأبائها وقبواتها؛ وقصورها الغناء ومعابدها الفخمة ومبانيها العالية، وقد ازدحمت بالناس.

من جميع الأجناس إذ خرجوا على بكرة أبيهم ليقدموا ولاءهم للقائد المنتصر .
والقد تأثر أكتافوس بعظمة المدينة وجمالها فلم يتكرر لها في المعاملة ،
ويحكمها بيد حديدية ، بل ترفق وخفف الوطء ، وأركب بجانبه وهو داخل
المدينة معلمه الفيلسوف أريوس (Arius) الذي كان من أهل الإسكندرية .
وذلك ليشعر أهلها برأفته ، وليقدم برهاناً حسيّاً على شديد احترامه وتبجيله
للفلسفة ، ثم توجه بموكبه للملاعب الرياضي — الثقافي والمعروف بالجمنازيوم
(Gymnasium) حيث وقف أنطونيوس منذ أربع سنين من قبل يقطع
أمالك الدولة الرومانية في آسيا وأفريقيا ، ويهبها لكليوباترة وأبنائها ؛
ولكى يمجو ذكرى الحرب وويلاتها أعلن نيته في استعمال الرأفة والرحمة ،
تفر له جميع الحاضرين راكعين ساجدين . وكان خطابه باللغة اليونانية التي يحسن
المستمعون فهمها ، ودفعه على اتخاذ هذا السبيل عظمة الإسكندرية التي كانت
أم المدائن والأمصارع في ذلك العصر ، واحترامه لمؤسسها الذي كان قدوة لوالده
يوليوس قيصر ، وإكرامه لشأن مريه ومعلمه أريوس ورغبته في كسب محبة
الاهلين له . ولكن مع عموم عطفه ورققه لم يعف عن بعض أفراد كان
يرى التخلص منهم ضرورة لا مناص منها ولا يصح إغفالها . وأهم من حرص
أكتافوس على قتله قيصرون وأنتيلوس وكليوباترة ، فقد أرسل أكتافوس
جنده للحاق بالاول وهو في طريقه إلى إثيوبيا فأغروا معلمه فوزين له أن
أكتافوس سوف يعترف به ملكاً على مصر . ولذلك أقنعه بالعودة
إلى الإسكندرية ، وفي طريقه إليها أمسك به كمين كان قد تربص له وقتله .
وكان هذا الحادث بعد انتحار كليوباترة . أما أنتيلوس فكانت كراهية
أكتافوس له شديدة ، وهذا يرجع إلى والدته « فلقيا » أكثر منه إلى أبيه
أنطونيوس ، ولكننا لا نستطيع أن نتكهن بالدافع الحقيقي الذي كان الباعث
على قتله . وبذلك تخلص أكتافوس من إسمين كرهين على نفسه .

انتحار كليوباترة

أما كليوباترة نفسها فقد كانت تشعر مع الآلهة والعظمة التي كانت لا تزال تحيط بها، أن نهايتها قد حانت، وأن تيار الحوادث يعلو من حولها شيئاً فشيئاً، ويجرف في طريقه مَنْ كانوا موضع سخط أكتافيوس، وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى يتلغ ذلك التيار القوى شخصها. وإن مسلك الملكة التي غررت بأنطونيوس، ودفعته إلى الموت دفعاً، والتي حاولت قبل وقوعها في يد العدو، التفاهم مع رُسله في أثناء بحصنها في مقبرتها، ليدلنا على أنها كانت ترغب في الحياة، وأنها كانت تطمح في الاحتفاظ بعرشها في مصر لنفسها، أو لأبنائها. ولكن بعد وقوعها أسيرة في يد العدو لإنهار بناء آمالها من أساسه، وأصبح هشيماً تذروه الرياح، وأيقنت حينئذ بما يجتبه لها القدر وهى العليمة بأساليب السياسة وتصاريفها، تُعرّ ذليل الأمل، وتذل عزيز اليوم، فألقى لها بالرحمة وكيف يرحمها أكتافيوس؟ حقاً ربما سنج لها خاطر أوسع في نفسها بريق الأمل بين حين وآخر، مرتككة في ذلك على قدرتها على كسبه إلى جانبها بفضل ما أوتيت من قوة الجاذبية الشخصية والنفوذ العظيم، والمقدرة على أسر الرجال، ولكنها لا بد كانت في سريرة نفسها تعلم علم اليقين أن الفشل ينتظرها، وأن مصيرها المحتوم هو أن تتردى في هوة سحيقة من اليأس، وأن الموت الوشيك لا بد آتٍ عما قريب. وكانت الملكة تُردد على لسانها لأخصائها في ذلك الحين الجملة الآتية: «لن يستطيع أحد أبداً أن يعرضنى في موكب نصر». وهذه الجملة تدل على أنها كانت تفضل الموت العاجل على أن يمثل بها هذا التمثيل المبهين. ولكن القدر كان يكيل لها بنفس الكيسل التي كالت به لأختها أرسينوى (Arsinoë) التي سيق بها في شوارع روما مكبلة في السلاسل والأغلال تحت أعين كليوباترة نفسها في الاحتفال بانتصار يوليوس قيصر، ثم أمرت بها فقُتِلت - كل تلك الفظائع تمثلت أمام ناظرها، وتذكرت ما أعدته لها تصارييف الحداث. ولكن

الملك مع ارتكابها هذا الجرم مع أخها تستحق إعجابنا الشديد ؛ لأنها رفضت أن تستسلم للقدّر، وصممت على ألا تمسك أحداً من أن يعرضها في موكب رسمي من مواكب النصر . وكانت روما التي امتدت قوتها وسطوتها ترى . في كليوباترة عدوتها اللدودة . التي أعلنت عزمها على الجلوس في الكابيتول (Capitolium) في روما والحكم بين الناس ، والتي غررت بقصر ، وأطمعته في إقامة ملكية هيلينستية من العالم الروماني ، ثم غررت من بعده بأنطونيوس ، البطل المغوار فكسبت الأول إلى جانبها ، وكانت سبب نكبة الثاني . وإنه لمن الصعب أن نتصور مقدار الكراهية الشديدة وروح الانتقام والسخرية وفحش القول الذي كان لاشك يكيله الشعب الروماني للملكة ، ويتردد صده في شوارع روما لو قدر لها أن تساق في طرقاتها ترسف في السلاسل والأغلال - كل تلك الاحتمالات لابد أن تكون قد جالت بخاطرهما ، وجعلتها تصمم على التخلص من حياتها فتوسلت إلى أكتافوس أن يقتلها ، ولكنه لم يجيبها إلى ما طلبت ، فأعجبت الفكر كيما تنتحر رغم تلك التحولات والرقابة الشديدة التي كانت تحيط بها لمنعها من الوصول إلى مأربها . وصممت على أن تلقى آخر سهم في جعبتها بأن تعيد تمثيل دور لعيبته من قبل وصادفت فيه نجاحاً عظيماً ، فخيّل إليها أن التوفيق قد يلازمها إلى النهاية ولذلك طلبت مقابلة أكتافوس ، وتمت هذه المقابلة بين الاثنين في معقلها الملكي ، وقد علنا بنأ هذه المقابلة الوحيدة بينهما من پلوتارخوس وديو ، ولكن لم نعلم من التفاصيل الحقيقية لتلك المقابلة بين الاثنين إلا النزر اليسير . ويقول پلوتارخوس ، والعهدة في روايته على طيب كليوباترة المسمى أوليپوس ، إن أعز رغبة لديها كانت في أن تلقى الموت ، وإنها آثرت الامتناع عن الأكل حتى تموت جوعاً ، ولكن أكتافوس هدهدا إذا عمدت إلى تحقيق ذلك بأن ينزل بأنبائها ضرراً بليغاً ، وبشكل بهم . وهناك روايتان مختلفتان بشأن زيارة أكتافوس لها في معقلها الذي اعتصمت به ، إحداهما جاءت على لسان پلوتارخوس مستمدة من أوليپوس ، والأخرى

ذكرها « ديو » الذى كان يعبر فيها يسرد عن الوصف الرسمى لتلك الزيارة .
 فقدمها لنا فى صورة الفاتنة الباردة التى لم تكن لتُعجزها الحيلة ولا الدهاء ،
 والتى لم تكن تعرف حقاً للضمير ، فحاولت فى بساطة وسذاجة أن تستعطف
 أكتافىوس إلى جانبها ، وتستميله إليها بتقيل صور يوليوس قيصر
 وخطاباته ، ثم تقدمت إليه بعروض ، صحبتها بكلمات عذبة معسولة ونظرات
 فاتنة تأخذ بالآلِباب . ولما أعرض عنها ونأى بجانبه وأجابها بجفاء دون أن
 يذكر شيئاً عن مملكتها ، ودون أن يُشَبس بينت شفة عن ذلك الحب المزعوم ،
 قال « ديو » إنها يُست منه ، وطلبت إليه أن يسمح لها بأن تموت ، وأن
 تدفن فى نفس القبر الذى يضم رفات أنطونيوس ، ويقول « ديو » إنها أيدت
 طلبها هذا بأن تركت بعد موتها كتاباً ضمته هذا الطلب . وعندئذ طُيَّبَ
 أكتافىوس خاطرها بالترفق فى حديثه معها حتى لا تقطع الأمل ، لأنه كان
 ينوى أن ترافقه إلى روما لتسير فى موكب نصره فتضفى عليه من الروعة
 والبهاء ما كان يطمح فيه ، وسمح لها أن تذهب فى صُحبة وصيفتها لزيارة قبر
 أنطونيوس حيث أخذت تستمطر الرحمت من السماء عليه وتتوسل إلى
 روحه أن تنقذها من محنتها وتخلصها من عار السير فى موكب النصر الرومانى
 فى روما ، وأن تسمح لها بمشاركته قبره . ويُعد ختام صلواتها أروع مثال
 لضربه بلوطا رخوس فى التعبير عن مبلغ الآسى واللوعة أو هو أنات صادقة
 جرت على لسانها ، ما كان لأتراها وبنات جنسها ، لامن قبلها ولا من بعدها ،
 أن يأتين بمثلها ، فكانت مخلصه عندما نادته بقولها « ليس بين أتراحي » ،
 وما أكثرها ، ما هو أمرٌ وأقى من تلك اللحظات القصيرة التى قضيتها بعد
 أن افتقدتك .

ومهما يكن من أمر هذه المقابلة بين أكتافىوس وكليوباترة ، فقد كانت
 مقابلة بين قاهر ومقهور ، بل بين حاكم الرومان وملكة مصر . وأما مدى
 آمالها والحقيقة بشأن رغبتها فى إيقاع أكتافىوس فى شرك غرامها ، أو
 إيقاظ عوامل الشفقة فى قلبه ليسمح لها بالبقاء بمصر وتصنعها اليأس للوقوف

على شعوره الحقيقي نحوها . - كل تلك أمور ستبقى سرّاً مكتوناً حملته معها إلى قبرها . ولقد كان موقفها وتوسلاتها وتضرعاتها وكل الوسائل التي تسلحت بها لغزاً، صعبَ حله حتى على أكتافوس نفسه . وقد قيل بعد ذلك إنها وهى فى الأربعين من عمرها ، حاولت أن تنجح لثالث مرة فى إيقاع حاكم العالم الرومانى فى شرك حبها ، ولكن وسائل إغرائها لم تنجح هذه المرة أمام جمود أكتافوس . وفى أغلب الظن إن هذه القصة افتراء عليها، إذ قد بدأ الناس بعد انتحارها يشيعون عنها كل ما تجود به خيالاتهم من أراجيف ليصوروها بغيراً للبلوك . وعلى أية حال فلقد كانت نتيجة تلك المقابلة بينها وبين أكتافوس أنها وثقت تماماً بأن أكتافوس كان يرمى إلى عرضها كأسيرة على الشعب الرومانى خلف مركبه الحربى، بما جعلها تصمم على الانتحار . ولكن لكى تنفذ مشروعها هذا كان من الضروري أن تضلل أعداءها . فخدعت أكتافوس حتى أصبح يعتقد أنها تخلت عن فكرة التخلّص من الحياة ، وأنها وافقت على الذهاب معه إلى روما . ومن هنا كان السر فى السماح لها بأن تقدم آخر قربان على قبر أنطونيوس قبل رحيلها من مصر ، وكان تصرفها هذا سبباً فى تخفيف الرقابة التى كان يقوم بها إيافروديتوس وأعوانه عليها ، وبعد أن أذرفت الدمع المhton على أنطونيوس على نحو ما أوضحنا وقامت برثائه رثاءً بليغاً على قبره وودعته الوداع الأخير، عادت من هذه الزيارة إلى قصرها ، وبعد قليل سمح الرقباء عليها بوصول سلة تين إليها كانت خبأت بها ثعباناً أو حية تسعى . وعندئذ أعطت إيافروديتوس خطاباً مهوراً بخاتمها ، وطلبت إليه أن يسلمه إلى أكتافوس فى الحال . وقد رجته فى ذلك الخطاب أن يدفنها مع أنطونيوس فى قبره . ووُجدت المملسكة بعد ذلك بمدة وجيزة جثة هامدة بملابسها الملكية - ولكن طريقة موتها كانت سرّاً غامضاً حتى لمعاصريها ولأول من استكشف جثتها ، وما زالت للآن موضع الحُدس والتخمين من الجميع . ومن العجيب أيضاً أن المؤرخين الأقدمين المعاصرين يقولون بصراحة إنه لم يقف أحدٌ على الطريقة

التي ماتت بها كليوباترة . وقد وصلت إلينا حكايات مختلفة عن موتها . والرواية التي لاقت قبولاً في روما بعد ذلك بعدة أسابيع هي أن كليوباترة وخادمتها قد لدغن ثعبان . ولكن الكتّاب ليسوا متفقين ، على شيء في أمر موتها حتى أن الذين صدقوا أن موتها كان بلذعة ثعبان لم يتفقوا على موضع اللدغ . وقد تكون هذه الرواية بشكها الرسمي مأخوذة في جملتها وتفصيلها من كتاب نشره بعد موتها طبيبها الخاص أوليمبوس (Olympus) عن أيامها الأخيرة ، ولكن لا يمكن للمرء أن يتأكد من صحة ما نشره أوليمبوس هذا ، وهل كان هذا لغرض روائي ولتسليّة الشعب الروماني ، أم كان يرمى به إلى إظهار الحقيقة . وعلى ذلك فإن موتها سيبقى على الدوام سرّاً غامضاً على كل من بروم التاريخ من مصادره الحقيقية . وهكذا لجأ كل من أنطونيوس وكليوباترة إلى الموت بعد أن خابت آمالهما ، وفشلت خططهما فمات الرجل الذي أثار الشرق ضد الغرب تحقيقاً لأطماعه ورغباته بعد فشل سياسته ، ولحقته كليوباترة بعد أن أظلمت الدنيا ، وضاعت في ناظرها حتى صارت أضيق من كفة الحابل ، وتأكدت أن لا حياة ولا هتامة لها بعد فراق أنطونيوس . وبموتها أصبح العالم الروماني بما فيه مصر في قبضة القائد المظفر أكتافيوس أغسطس ، مؤسس الإمبراطورية الرومانية .

وإن العالم بأسره ليعلم ما كان من أمر تلك الحيات التي أمرت بإحضارها في قفص من التين الطاذج ، وموت هذه الملكة بتأثير لدغات الحية ، وموت وصيفتها بعد أن بعثت لاكتافيوس برسالة ترجوه فيها أن يأذن بدفنها مع أنطونيوس في قبر واحد ، وأنها بعد تناول العشاء صرفت الجميع عنها فيما عدا وصيفتها إيريس وخارميان ، فلما قرأ أكتافيوس كتابها ، عجل بإرسال رساله كيما يستجلوا حقيقة الأمر ، وعندما دخلوا عليها رأوا كليوباترة وقد لفظت أنفاسها الأخيرة ، راقدة في رواء المسلك وبهاته على مخدع من عسجد ، ومن تحت أقدامها إيريس وقد أسلمت الروح ، أما خارميان فكانت لا تزال تعاني سكرات الموت ، وما فتئت 'تحسبكم' بأناملها وضع تاج سيدتها على جبينها .

وعندما إبتدراها أحد الرسل غاضباً بقوله « أيليق هذا - أى خارميان ؟ - أجابته على الفور « حسنأ فَعَلت وأيمن الحق ، وإن هذا الخليق بسليلة ملوك أما جد ، ثم هوت لتوها بجوار مضجع سيدتها .

وقد تواترت الأقوال بأن أكتافوس أمر بقتلها، وأن رواية لذعة الحية ما هي إلا من بنات أفكار الرومان ، ابتدعوها لإخفاء جريمة هذا الإثم ؛ ولكن ليس من المحتمل فيما يبدو أن يكون أكتافوس قد رغب في قتلها قبل أن يحتفى بموكب نصره ، وتسير هي فيه لتكون آية وعبرة للناس . وبحسب ما جاء في « ديو » يظهر أنه بذل قصارى جهده ليحول دون تحقيق رغبتها ، والعمل على إنقاذ حياتها بعد أن حضر وراها مضطجعة في فراشها ، فلما عجز عن الوفاء بغرضه « أخذ في إظهار الإعجاب بها ، والأسف عليها ، ولكنه شر بوجه خاص بمزيد من الألم والغضاضة لأنه حرم من الاستحواذ عليها حية لتكون أعظم درة في تاج نصره ، ثم مضى « ديو » في حديثه عنها فلخص أحوالها وصور أخلاقها فيما يلي « إنها ما كانت لتشبع أبداً في البحث وراء الحب ، وما كان طمعها في الحصول على الثروة ليعرف حداً . إنها كانت طموحة للغاية ، شغوفة بالشهرة ، صلفه متعجرفة ، محبة للشموخ بأنفها في قحة ؛ ولقد استحوذت على عرش مصر واستأثرت به بفضل غرام رجل هام بها، وكانت تأمل بانتهاجها نفس السبيل أن تصبح ملكة على عرش روما ، ولكنها مُنيت بالفشل في ذلك وهكذا أضاعت مُلك مصر . إنها استطاعت أن تستحوذ تحت سلطانها على اثنين من أبطال روما وعظمائها في ذلك العصر ولكنها تعثرت بسبب نالهم وأودت بحياتها بظلفها ،^(١) . ويتناول المؤرخ الفرنسى بوشيه- ليسكرك موضوع تهجم الكتاب الرومان على كليوباترة وتعدهم القذف في حقها ، وصب جام غضبهم عليها فيقول « إن هذا إلا حديث معاد وموضوع مكرر ، طالما عرض له الكتاب الحديثون بالتنفيذ ،^(٢) . ومن بين هؤلاء .

(١) كاسيوس ديو ، ٥١ ، ١٥

(٢) بوشيه ليكارك ، تاريخ الالاجيديين ، جزء ثان ص ٣٣٦ ، هامش رقم ١

الدكتور و. و. تارن في كتابه عن « الحضارة الهيلينية » ، إذ يقول : إن برياقا وهاجا قد أُلقي على النزاع الأخير من حكم تلك الأسرة (البطلمية) بفضل اسم كليوباترة . وقد سُطر الكثير عنها ولكن قدرًا قليلًا مما كُتب يعطينا فكرة صادقة عن تلك الإمراة ، التي استطاعت على الرغم مما اقترفته من جرائم وآثام وما يعورها من قصور ونقص ، أن تبلغ درجة من العظمة ، حَدَّت بروما أن نهاها وتخشأها ، وكانت في جسارتها ومطامعها من طراز ما تجل من روح الإسكندر . وإنها لإمراة تصدت لها النبوءة فأشارت بأنها بعد أن تتمكن من القضاء على روما ، سوف تعتمد إلى الأخذ بيدها وبده عصر ذهبي يتعين في مستله وضع حد للنزاع والصراع الطويل بين أوروبا وآسيا ، وتسوية أوجه الخُلف بينهما وسواد حكم ترفرف عليه ألوية العدالة والمحبة ؛ وكانت مرامها تهدف إلى أن تكون سيدة العالم الروماني وإمبراطوريته الشاملة . ولو قُدِّر لقيصر أن يمتد به الأجل لتحقيق لها في أغلب الظن ما أرادت ، ولكنه توارى عن الأضمار ، ولحق به الموت فاضطرت إلى أن ترتد فتسكى على أنطونيوس باعتباره خير من وجدت ، واستطاعت أن تكسبه آخر الأمر إلى جانبها وتتخذ أداة في تنفيذ برنامجها المنطوي على جرأة وجسارة والمتضمن محاولة غزو روما بواسطة جند من الرومان . ولكن هذا المشروع لم يخرج إلا بعد فوات الأوان ، فكان العصيان والتمرد بين رجال أسطوله في أكتيوم سنة ٣١ ق م ، هو القاضي على الحلم الذي ساورها في قيام تلك الإمبراطورية . وبانتحارها في السنة التالية انتهت في الواقع آخر سلالة مقدونية تربعت في دست الحكم واحتل أغسطس عرش البطالة ، ^(١)

وقد دال العالم الأمريكي « ولسم إن » و « سترمان » ، في مقال له منشور في أعمال المؤتمر العالمي الخامس لعلم أوراق البردي ، على أن كليوباترة كانت ملكة مصرية صميمة في نظر المصريين ، وأنها خلدت في الأدب الباقي من

عصرها ، ومن العصر التالى على أنها مصرية ، ويستند فى ذلك على ما جاء فى أقوال بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، الفصل ٢٥ ، من أن كليوباترة كانت « المصرية » . وإن المحاولة المسرحية الأخيرة من جانب كليوباترة فى إقامة دولة عظيمة ذات سلطان واسع عن طريق التحالف مع الحزب الرومانى الموالى لأنطونيوس ، كان العماد الاسامى فيها إعتقادها بأن ولاء الشعب المصرى وإخلاصه لقضية الأسرة البطلمية ومليكه البلاد كان أمراً مسلماً به . وإن ذلك الحلم الرائع الذى دأب خيال كليوباترة فى الوصول إلى سلطان الحكم على إمبراطورية مترامية الأطراف ربما كان عديم الجدوى ، وينطوى على محاولة طائشة ومغامرة فاشلة ، لو لم تكن واثقة من تأييد المصريين من رعاياها وولائهم وإخلاصهم لها ^(١) . وقال العالم سير هارولد إدريس بل فى كتابه عن « الهيلينية فى مصر » ، إن اثنين أذلا روما وجعلوا أنفها فى التراب . وهذان هما هانيبال ، القائد الفينيقي ، وكليوباترة ، الملكة المصرية ^(٢) .

وما كانت التهمة التى لصقت بكليوباترة ، وهى أنها كانت ترغب فى إشباع شهواتها بالامر العسير فى دفعه عنها وتقنيد القول الذى كثير أماً أطلقه بعض المؤرخين من أنها كانت امرأة بغى ، فليس هناك من الحقائق ما يبرر هذه التهمة فى حياتها الخاصة ، إذ أنها أخلصت فى علاقتها بكل من القائدين الرومانيين : يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس ، وكانت تأمل فى أن تصير زوجة لأول ، وأصبحت بالفعل زوجة للثانى . وهى وإن كانت صليفة قاسية القلب ، محبة للجاه والسلطان ، ولا تتورع أحياناً عن ارتكاب أعمال لا يبررها الضمير الإنسانى ، فإنها على أى حال لم تشبه الشوائب والردائل التى اتصف بها ملوك البطالة من أمثال بطليموس الرابع فيلوپاتور وغيره ، من الإدمان على شرب

(١) وليسم لين وسترمان ، « البطالة وما بذلوه من جهد فى تحسين أحوال رعاياهم » مقال منشور فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم أوراق البردى النعقد فى سنة ١٩٣٧ ونشر فى بروكسل سنة ١٩٣٨ ص ٥٧٧ .

(٢) هارولد إدريس بل . « الهيلينية فى مصر » الفصل الثانى « عصر البطالة » ، ترجمة زكى على .

الخبر. والإنهمالك في المذات والشهوات الجامحة. وفي الحق إن مَسَلْها فيه تطابق
لأمثلة كثيرة غيرها من نساء هذه الأسرة الطلبية ، في أنها لم يكن لها غرام
خاص بالدس والكيد من أجل المغامرات في شئون الحب ، وإنما كرسَتْ
جهودها في العمل على الإستحواذ على الحكم والسلطان السيامي .

وينعى عليها المؤرخ « ماهافي » (Mahaffy) أن مسلكتها في أكتيوم كان
يَسِمُ عن الخيانة، فولت الأدبار تاركة أنطونيوس في موقف لا يُحسد عليه^(١).
ومضى في قوله إنها في أكتيوم قدَّرت وحسبت بغاية الدقة جميع فرص
الكسب والخسارة ثم الأقدار التي كانت أمام القائدين المتنافسين ، وكانت
تأمل في النهاية أن تستطیع بفضل مقدرتها على الإغراء ، استواء عظيم روماني
آخر وكسبه إلى جانبها . ولكن آراء « ماهافي » في هذا الشأن ، لا يُعتد بها ،
ولا بُدَّ أنه وصل إليها نتيجة قراءة مستفيضة في القصص الشجوى ، غير
مستقرىء للحوادث ودون اعتماد على تجارب الحياة الواقعة . ولعل في مقال
الدكتور و. تارن (W. Tarn) عن موقعة أكتيوم وهو المنشور في مجلة
الدراسات الرومانية^(٢) ، ما يفي وينهض لتفنيد آراء « ماهافي » . وفي رأي
تارن أن « أنطونيوس لم تكن لديه في هذه المعركة خطة واحدة ، وإنما
أُتيحت له حرية الاختيار بين أحد أمرين ، فإما أن يكسب النصر لو استطاع ،
وإذا ما تعذر ذلك فإن خطته كانت تنطوي على أن يُيسَّم وجهه بشر مصر » .
وإن كانت كايوباترة قد أمرت بأن تصطف مراكبها في الخلف كيما تكون
في حماية من القتال ، ووقفت هي على رأس ذلك الأسطول المصري ، فلم
يكن ذلك لأن الشجاعة كانت تعوزها أو لأنها كانت تخشى عواقب الإلتحام
في تلك المعركة ، ففي شبابها قادت جيشاً ضد أخيها في شرقي الدلتا وركبت
سفينة ، تسلمت بها من الفرما إلى الإسكندرية في مستقبل حياتها في ظروف
محفوفة بالمخاطر والأهوال . على أنها في الظروف التي أحاطت بها في أكتيوم

Mahaffy, *Empire of the Ptolemies* p. 445 (١)

W. Tarn, *Journal of Roman Studies*, XXI, 1931, p. 175 (٢)

كانت ترى أن إنقاذ الكنوز التي لديها ، وكانت تحملها معها في سفنها ، أمرًا على أعظم جانب من الأهمية ، كما كانت تقدر أن عودتها سالمة إلى أولادها وملكها يأتي في المقام الأول ، وله من الأهمية ما يفوق تعريض حياتها للخطر في معركة ميثوس منها . وعلى ذلك فأمر الحرب كان مُرتباً ومتفقاً عليه مع أنطونيوس ، مع ما كان يستتبع ذلك من غصاضة . وقضت شهامة أنطونيوس أن يعمل على تجنب كليوباترة مواطن الخطر ، وذلك بجعلها تقف في موضع آمن . ولو كُتِبَ له النجاح في حركته وخطته ضد أجريبا ، فإن كليوباترة كانت تبادر بالتقدم ببراً كبحا للقيام بدورها كاملاً غير متقوص ، بما عُرف عنها من شجاعة وإقدام . ولكن لا هي ولا أنطونيوس كان راغباً في تعريض حياته للخطر من غير طائل ، فأبناؤهما كانوا في مصر ينتظرون أو بئهما .

وهناك من المؤرخين الحديثين من أنبروا لإظهارها في صورة بطلة حظيت بعطف الناس ، وملكة فتية ، دقيقة التقاطيع تحمل بين يديها طفلاً الرضيع وقد ارتسمت على بحياه دلائل الصحة ، وامرأة وحيدة مجروحة كريمة ، قسا عليها الدهر ، كانت تعمل جاهدة طوال حياتها من أجل تحقيق مطمع وطني باهر^(١) . إنها قضت الجانب الأكبر من حياتها مع أنطونيوس ، فجاء كله صَحْبٌ ملىء بالآطوار الغريبة وغير متسق مع حياة الجندي الروماني الشجاع المقدم ، الذي كانت تفرض عليه وطنيته لبلاده أن يقضى الوقت في محاربة الفرس والبارثيين والميديين والعمل على تأمين حدود الإمبراطورية الرومانية في الشرق . على أنه لو كان قد أدى واجبه كجندي ، لضاعت علينا صفحة مجيدة من صحف التاريخ الحافلة بالوثائق ، بما سطره القلب البشري ، والروح الأخاذة ، ولأفلتت منا إحدى الروايات التراجمية الخالدة ، أنبرى لتسطيرها نقر من الكتاب كانوا يفهمون روح كليوباترة الوثابة وشخصيتها النارية . لقد داهنت أكتافوس واستطاعت أن تغلق من يديه وفوت

(١) أنظر المؤرخ « ويجول » (Weigall) في كتابه عن « حياة كليوباترة » .

عليه فرصة ذهبية كان يروم اقتناصها ليتخذ منها أداة يحتجى بشخصها في موكب نصر يقيمه في شوارع روما ، على النحو الذى جرى عليه العرف الرومانى ، وبذلك حرمة من أن يسلبها شهرتها الخالدة ، ولو أنه استولى على زمردها وجواهرها وكنوزها كما يدفع منها رواتب جنده ويبنى بديونه فى إيطاليا .

وبما لا ريب فيه أنها فاقت أى مقدونى آخر ، فيما عدا الإسكندر الأكبر ، فى عظمتها الباهرة وذكائها الخارق وأطماعها الواسعة . وقد استطاعت أن تؤثر بما أوتيت من قدرة سحرية ومقدرة وكفاية ، على كل رجال زمانها وأبناء عصرها . وهى وإن لم تكن أنموذجاً خالصاً للفضيلة ، فإنها لم تكن وحشاً كاسراً ألقته به المقادير (fatale monstrum) كما صورها الشاعر هوراس فى إحدى أناشيده^(١) . ولم تصطنع الحب ونصب الأحايل ، كما أنها لم تكن مثال الزوجة الطيبة القلب الوداعة ، ولم تكن وطنية رائدة الإخلاص فى وطنيتها . وإنما كانت ملكة بطلمية ، جمعت من خصال بنى جنسها قسطاً غير متعادل من الفضائل والذائل على السواء ؛ فهى البسامة فى عظمتها وأهبتها ، المونعة المشرقة فى منبت قديم هو البيت الملكى المقدونى فى مصر ، وكان إذ ذاك آيلاً الإيهيار والسقوط . وهى طوال حياتها كانت أبعد ما تكون عن أن توصف بالإمرأة الخاملة .

وفى نطاق سياستها الداخلية وأسلوبها فى الحكم ، وعنايتها بأحوال البلاد الداخلية ، كشف لنا مؤرخ جغرافى هو استرابون ، النقاب عن قصور ظاهر من جانبها فى هذه النواحي^(٢) . فقال إنه فى حكم كليوباترة كانت إدارة البلاد مختلة بسبب الترف والمجون الذى كان عليه ملوك البطلمية المتعاقبون وما أصاب ثروة البلاد الطبيعية من تلف وضياع ، وقد أنحى إسترابون

(١) هوراس Odes B. I, XXXVII, 21—22 ، إذ أنشد يقول : « fatale monstrum quae generosius perire quaerens » إن كليوباترة ليست بشراً سراً وإنما هى وحش كاسر ، بعث بها الأقدار لتعيت فى الأرض فساداً وتفسد القدر والرعب فى أرجائه .

(٢) إسترابون ، الكتاب السابع عشر من جغرافيته ، ٧٩٧ — ٧٩٨

باللائمة على كليوباترة وخصّها بشيء من اللوم . ذلك أن عنايتها بالإشراف على مطالب الجيش والأسطول صرفتها عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية وإصلاح الجهاز الإدارى المتداعى ، كما كانت غيبتها عن مصر ومُقامها في روما مدة بلغت نحو سنتين من ٤٦ ق . م حتى ربيع ٤٤ ق . م ثم ترددها على الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان لاستقبال أنطونيوس وتقديم العون له في شتى المناسبات - كان كل ذلك مدعاة لأن تصاب الإدارة المصرية ببعض الخلل ، فأهمل تطهير القنوات المصرية ، وتراكم الطمى فيها ونجم عن ذلك نقص في مياه الفيضان وتعذر وصولها إلى الحقول والمزارع ، مما أدى إلى حدوث مجاعة في البلاد في عام ٤٤ - ٤٣ ق . م ^(١) . وهناك من البيئته ما يكشف عن وقوع اضطراب في أحوال البلاد ، منها نصّب أو لوحة من طيبة عرفت بلوحة تورين مؤرخة في عهد الملكة كليوباترة ، الإلهة المحبة لايها (Philopator) وبطليموس وهو أيضاً قيصرين ، الإله المحب لاييه وأمه ^(٢) . وقد أقام هذا النصّب كهنة آمون رع في طيبة بالاشتراك مع شيوخ هذه المدينة وبقية سكانها تكريماً لكاليماخوس ، الذى عُني بأمر المدينة في أوقات المحنة الشديدة التى ألمّت بها وخلصتها من المجاعة ، متحملاً العبء وحده بإخلاص وبذلك استحق منحه لقب مُخلص المدينة . وفي وثيقة أخرى أصدرت كليوباترة بالاشتراك مع ابنها بطليموس قيصرين ، أمراً ملكياً في عام ٤١ ق . م ، يقضى بأن السكندريين الذين كانوا يعملون في الريف ، مشتغلين بحراث الأرض وزراعتها ، لا يفرض عليهم من الضرائب سوى ما كان مقرراً عليهم من ضرائب عادية مستحقة على الأراضى المنزرعة غلالاً وكروماً . وكان هذا القرار الملكى استجابة لطلب تقدمت به بعثة من السكندريين ممثّلت بين يدي كليوباترة . وفيما عدا هذا المرسوم ، لا توجد أدلة قاطعة على أنها كانت معنية بشئون البلاد الداخلية وساهرة على أحوال رعيّتها .

Appian, Bellum Civile, IV, p. 61; Pliny, Natural History, (١)
V, 58; Josephus, Apion II, 60.

Turin Stele, O G I, 194 (٢)

(م ١٠ - كليوباترة)

ولما فشلت سياستها الخارجية وخابت آمالها توارت عن الأبصار على
النحو المسرحي الروائي الذي أقام الأرض وأقعدتها، بعد أن تأكدت أن
الدنيا أظلمت وضائق في ناظرها . وبموتها أصبحت مصر في قبضة أكتافوس،
ودخلت البلاد في حظيرة العالم الروماني فأعاد تنظيم أحوال البلاد وعم
سلام مخيم على ربوعها ، جنت مصر من جرائه رخاءاً وخيراً وفيراً في صدر
العصر الروماني .

الخاتمة

وهكذا قضى الأمر بأن 'تطوى صحيفة كليوباترة بعد فترة طويلة من حكم 'تربي على العشرين عاماً ، حافلة بالاحداث الجسام ، وملينة بالازمات (حقبة . وفيما عدا أزمته الكبرى التي انتهت بانتحارها ، فإن الأمر الذي نأمل العجب أن كل أزمة من هذه الازمات كادت بمفردها تزلزل كيائها نضى على سلطانها . ومع ذلك فإنها استطاعت أن تخرج من كل واحدة مظفرة ، قوية الجانب ، بفضل ما أوتيته من فطنة وكياسة ، وما توافر لها مواهب جمة . وكانت بحسبها المرفه وكفايتها النادرة قادرة على التغلب ، ما يعترضها من صعاب وتحويل الخصوم إلى أعوان ، بل إنها كانت تخذ من بعض هؤلاء أدوات التحقيق مآربها ومرامعها . فكانوا ينبرون لدمتها في تقان وإخلاص منقطع النظير . وليس من قبيل الصدف أن يجي "يخ حكمها مليتاً بالاحداث الجسام والازمات للتلاحقته ، ومعاصراً لحدثات عالمية ، ما لبثت مصر أن وجدت أنه قد زج بها في معامعها : إما أن مصير البلاد نفسه كان متوقفاً على النتيجة التي يمكن أن يحسم بها ما كان شب من خلاف بين قادة الرومان ، وما يسفر عنه حل الازمات بين رجال لحكم الثلاثي من أوضاع تؤثر في مستقبل مصر ، وإما لأن كليوباترة كانت لأمعة في خير مرجو تسعى إلى تحقيقه من وراء ما كانت تنصبه من شباك وتورط فيه من مغامرات ، كانت 'تلقى فيها بدلها في شيء كثير من الحيلة الحذر . وفي القليل النادر كانت كليوباترة تساق لبعض هذه الازمات بحكم الها من صلات دون أن يكون لها فيها بطريق مباشر ناقة ولا جمل .

ولعل السر في أغلب ما كان يعترض سبيلها من أزمات هو أن ابنها يصرون كان بمثابة همزة الوصل بينها وبين روما ، ويمثل حلقة الاتصال بين مصر وبين ما كان يجري على مسرح السياسة العالمية . إنها اتخذت من

قيصرون هذا في أول الأمر تكأة للوصول إلى بغيتها وأغراضها البعيدة المرمى . ومن هنا كانت أغلب غاياتها وأهدافها تقع خارج الحدود المصرية ، فكبتت نفسها من المشاق ما هو فوق طاقتها كيما تنال مجداً مؤثلاً وسؤداً ورفعة ، وتؤسس مملكة عريضة تمت إلى قيصر وإلى حق ابنها منه في إرث أبيه ، فكأنما هذا الابن هو الدافع والعامل الأول على إيقاظ تلك الآمال العريضة التي بنتها في خيالها وتصورتها في آفاق واسعة ، لم تر بأساً من تحقيقها ، إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً . وعلى ذلك كان هذا الابن عبئاً على كاهلها ، لأنها اتخذته محور تفكيرها الدائم ووجدت ألا مناص من أن تسعى إلى تصحيح وضع هذا الابن وإثبات بنوته وثبتت مركزه على هذا الأساس . وهي في هذا السبيل لم تكن تتورع عن شيء ، فأدى هذا إلى تورطها وركوبها متن الشطط . ثم مضت بعد ذلك في طريقها لا تلوى على شيء ، غير آبهة بما كان يحجره عليها أكتافقيوس أو غيره من عمالقة الرومان وساستهم الذين كانوا يخضون الملكية في شتى صورها ويحقدون على الملكة كليوباترة بالذات . ولعلها نسيت أو تناسلت أن أكتافقيوس هو ربيب قيصر بحكم ما جاء في وصية الدكتاتور العظيم ، وأنه بهذا الوصف كان ينظر شذراً إلى كل ما يقام في مصر من ادعاء بصدد بنوة قيصرون وما يثار من أحقية هذا الابن في إرث قيصر ، بل إن أكتافقيوس كان يعتبر هذا الابن مُسبباً في جبين أبيه قيصر ، وكلما تبادت كليوباترة في إبراز هذه الحقيقة ونفخت في هذا البوق وعمدت إلى اصطناع الأعوان والابطال الذين يضربون على هذا الوتر الحساس ، وينتصرون سرّاً وعلانية لدعوى كليوباترة وما تبسطه من أحقية تدعيها لابنها من قيصر بعد أن اشتد ساعده ونما وكبر ، تكدرت العلاقات بينها وبين أكتافقيوس . وازدادت العداوة بغضاً وسوءاً حتى ضاع الأمل في عمل أي مهادنة أو مصالحة ، فكل طرف من الطرفين كانت مصالحه على النقيض من الآخر . وقد أصبحت كليوباترة آخر الأمر العدو اللدود لا أكتافقيوس الذي أعلنها عدوة للرومان (hostis) وخصها بشن حرب

شعواء عليها ، لا بوصفها ملكة على مصر فحسب ، وإنما لأنها أمٌ لذلك المنافس الطبيعي لأكتافوس في إرث قيصر . وعندئذ لم تأل الملكة جهداً في سبيل الدفاع عن حق ابنها ، متفانية في ذلك ، وعاملة على كسب الحلفاء من بين صفوف الرومان أنفسهم لنصرة قضيتها . وكان على رأس هؤلاء جميعاً البطل المغوار أنطونيوس الذي كان له حتى النهاية في نفوس نفر كبير من الرومان ، منزلة مرموقة ومركز ممتاز . ولما استحسنت حلقات الأزيمة ، وتكشفت نوايا الطرفين بطريقة سافرة ، لم يعد بُدُّ من حسم الخلاف في ساحة القتال بخوض معركة برية أو بحرية أو كليهما معاً . وقد بانَّت أمارات كل هذا بشكل واضح جلي عندما ألقى أنطونيوس القفاز في وجه خصمه بتطبيق أخته أكتافيا وإقصائها عن بيت الزوجية في روما ، وإعلانه الزواج من غريمها كليوباترة ، واعترافه بأبنائه منها ، وانتصاره لقيصرون والعمل على تثبيت وتدعيم مركز هؤلاء جميعاً ، وعلى رأسهم كليوباترة بتوزيع الهبات التي اقتطعها من أملاك الرومان في آسيا والشام ، وأسبغها على زمرة من هؤلاء الأبناء . وعندئذ اتسعت هوة الخلاف ، وضاع الأمل في رتق الحرق وأصبح لا مفر من امتشاق الحسام لفض هذا النزاع .

وقد يحلو للمؤرخ أن يبحث وينقب في خلفية هذه الصورة العامة ، أملاً في تعرف الأسباب والمسببات وكشف الأستار عن معالم هذا الخلاف المحتدم الذي قسَّم العالم القديم إلى شقين : قُوى الشرق تجاه قُوى الغرب ، وقد ألَبَّت كليوباترة الشرق الهيلينستي ضد الغرب الروماني ، واستعدت بلدانه ، وأقامت الأرض وأقعدتها من أجل قضيتها وقضية ابنها الأكبر . وقد يكون هدف المؤرخ وبُغيته من وراء ذلك بذل محاولة تهدف إلى تلبس المعاذير . والتصدى للدفاع عن الملكة ، فيصوغ من حولها إطاراً من المعاذير (apologia) ليدفع عنها أوجه الاتهام ، ويكون بمثابة إنصاف لقضيتها التي طلعت بها على العالم . وقد يتاح لهذا المؤرخ أن يسير شوطاً بعيداً في البحث عن أسانيد تاريخية أو إشارات أدبية جاءت عابرة في كتب السير وقصص الشعراء والكتّاب ،

وجلّسهم من الرومان واليونان . ومما يدعو للغرابة أنه ليس من بين هؤلاء مصدر مصرى واحد، يمكن أن يُعتمد به في هذا الصدد . فلم يَجِدْ الزمان بشيء من هذا ليقص علينا وجهة النظر المصرية البحتة في هذا الصراع ، ونستطيع أن نتلمس من ثناياه أوجه الدفاع عن الطرف الثانى ، وهو المصرى ، وكان لسوء الحظ هو الطرف المغلوب . وذلك فيما عدا عبارات تقليدية بما ينقش في مناسبات التكريم والتكريس على حوائط المعابد والمقابر والبوابات ، وما يصور على العملة التي كانت الملكة تسكها بين حين وآخر لتسجيل أحداث أو بدء حقبة جديدة في حكمها، وكانت تضمّن صوراً لها ولأبنائها مع ذكر عبارات مقتضبة وبعض التواريخ للتوقيت ، ثم ما كان يصدر عنها من أوامر ملكية (prostagmata) صماء ، صيغت كلها في قوالب وصور مألوفة . وكانت هذه وتلك تتناول أخص شئون الحكم ، وليس لها علاقة بتكثيل القوى الداخلية في البلاد ولا بتنظيم شئون الدفاع . فلم تردّها أدنى إشارة ، ولو خفية ، إلى ما كان يقلق بال الملكة ، ويقض مضجعها طوال هذه السنين ، مع أن الملكة لم تكن بأى حال ، خالية البال أو هادئة الفكر . وهى في واقع الأمر كانت قد نَعَّصَتْها الأحداث وأرقت ليلاتها ، فكان خصومها عديدين ، وهم تارة من رجال البلاط المصرى الذين حرضوا إخوتها وأخواتها على التنكر لها والبطش بها ، وتارة أخرى كانوا من عظماء الرومان وأدبائهم من أمثال شيشرون الخطيب وعدد عديد من أعضاء السناتو الرومانى الذين ما فتئوا يسخرون منها وينددون بأساليبها ويكشفون عن مآربها ويفضحون نواياها .

وفوق هذا كله لم يكن الزمان نفسه كريماً بها ، بل قسا عليها أكثر من مرة . ويوم أن سلبها يوليوس قيصر في الرابع عشر (Ides) من شهر مارس سنة ٤٤ ق . م ، أظلمت الدنيا في وجهها إلى حين ، إذ توارى هذا الدكتاتور فجأة ، وهو في عنفوان قوته وأوج عظّمته ، وكانت تطمع في أن يُحقّق لها بعض مآربها . ولكن القدر اختطفه منها بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من اتخاذ الخطوات الحاسمة لتصحيح وضعها ووضع ابنها منه ، وهو على أهبة

الخروج لتنفيذ برنامج العسكرى ، وفي طياته كان يزمع تحقيق ما اتوى عليه مع الملكة ، ولكنه أخذ هذا السر الدفين معه إلى قبره . وقد فجحت فيه كليوباترة ، إذ رآته بين عشية وضحاها ، ينخر صريعاً في أحد دهاليز مجلس الشيوخ الرومانى . وكانت تقيم إذ ذاك على مقربة من مكان مصرعه وتنزل بقصره على ضفاف نهر التيسير فى روما ، فوق خبر هذه المفاجعة الآلية عليها كالصاعقة وكاد يزلزل كيائها ويحطم قواها . ولكنها لم تياس ولم يهن منها العظم ، وإنما صهرتها تلك الأحداث الجسام ، بعد أن كادت تودى بها . وبعد مصرع قيصر ساد الصخب فى روما وانتاب الرومان حالة من الإضطراب والاسى لحول المفاجعة الآلية . وكشف ماركوس أنطونيوس ، وكان متولياً وظيفة سيد الفرسان (magister equitum) وهى ثانى وظيفة بعد الدكتاتور ، النقاب عن هذه الحالة فى خطبته التأيينية ، فأفصح عن المشاعر التى تملك الشعب الرومانى وأن النفوس كانت تغلى غليان المرجل وتتأجج فيها النيران . وأخشى ما كان يخشاه المؤيدون لقيصر والموالون للملكة هو أن يتحول هذا الغضب نحو كليوباترة ، فينفجر بركانه فى وجهها ، ويلحق بها الأذى فى هذا الجو المكفر . ولذلك روى أن تعجل الملكة بالفرار من روما خفية ، وتعود إلى الإسكندرية لتعيش بمنأى عن هذه الأحداث الصاخبة . فهل طال مقامها فى أمان وسكينة ؟ كلا ، إنها كانت ترقب الأحداث العالمية بعين حذرة ، وتنتظر ما يمكن أن تتمخض عنه تصرفات الحداث . ولا يستطيع أحد أن يقول إن التطورات التى كانت تجرى فى العالم الرومانى ، والقتال الناشب فى بلاد اليونان بين طرفى النزاع : الحزب الجمهورى والقسلة من ناحية ، والآخرين بالتأثر من هذا الحزب الجمهورى من ناحية أخرى - كل ذلك لا يعنيا فى شىء أو أنه بعيد عن عقر دارها . كان صالح إبنها قيصر ، وهو لم يتخط بعد سن الطفولة ، إذ كان يبلغ نحو أربع سنين ، متوقفاً على مصير تلك الحرب الناشبة . ولم يقتصر الأمر على مستقبل هذا الابن وحده ، بل إن استقلال مصر نفسه وتحقيق البرنامج الذى كانت

تلتويها الملكة - كل هذا كان متوقفاً على الكفاح الذى خاض غماره طرفا النزاع من الرومان فى فيليبيا، بيلاد اليونان سنة ٤٣ ق . م . وهكذا قضت الملكة نحو عام فى الإكندرية عقب فرارها من روما فى حالة شديدة من القلق والاضطراب . إنها كانت تخشى أن تقدم رجلاً أو توخر أخرى ، فتسبىء إلى أحد الجانبين ، وبذا يضيع حقها وتفقد المكاسب التى كانت تعزل النفس بالأمل فى تحقيقها . وقد أتيح لها بفطنتها وكياستها أن تلبس سيبلها ، فتخرج من هذه الأزمة منتصرة . فقد نقيت فى جعبتها فوجدت المبررات التى تشفع لها وتفسر موقف حيادها المريب ، الذى اعتبر على أقل تقدير أنه كان يتسم بالجمود وتعوذه المروءة وعدم الوفاء . ولكن اعتزازها بنفسها وبكفائتها وثقتها فى عدالة مطلبها - ساعد كل هذا على خروجها من أزمتها هذه قوية الجانب ، تسلم لها المستقبل مرة أخرى ، وتتطلع إلى تحقيق أحلامها . فكان أنطونيوس نفسه وهو بطل معركة فيليبيا ، الناصر الأمين لها والعون المدخر لمستقبلها فى العشر السنين التالية ، والبطل الذى أمّنت جانبها وتبنى قضيتها علانية وفى تحدٍ للعالم الرومانى ، وكان نعيم المدافع والحليف ثم فى آخر المطاف نعيم الزوج الوفى والحبيب المتفانى .

وعلى هذا النحو جاء تاريخ هذه الملكة مترعاً بالأحداث المتزاخمة ، حاوياً للغث والسمين منها ، ومفعماً بالعظات والأخطاء . وفيه من الجدّية الشيء الكثير ، كما أن فيه كذلك من المساهر والمظاهر البراقة والخلابة ما جعل المؤرخ يتيه فى بدهاء من القصص التاريخى والرواى الذى قد يأخذ بالآلالب ، ولكنه لا يقنى ولا يسمن من جوع . وسيتبقى تاريخ الملكة كليبوباترة على مرّ الزمان متعة القارىء ، وفيه من الخلدجات والمشاعر ما يستهوى الكتاب والمؤرخين على السواء . ولن يكف هؤلاء عن أن يلقى كل واحد منهم بدلوه ، علّه يصيب كبد الحقيقة ، أو يكشف عن الجوانب الخفية من حياة كليبوباترة بتسليط أضواء جديدة عليها . ولن يمل القارىء مطالعة هذه



أكتافيرس أغسطس

الصفحات الخالدة ، ليشيع نهمه ويستجلى هذه المشاعر الإنسانية في أجل وأجل صورها .

أغسطس وتصويره لموضوع ضم مصر

وبعد أن انقضت سنوات عديدة على وفاة كليوباترة، أخذت الأصداء الخافتة تسمع عن مصر وأحوالها ضمن السجلات الرسمية؛ وكان منها ما دّونه أنه أكبر شخصية في عصره، ذلك هو أكتافيوس أغسطس الذي تناول في وثيقته الأتقيرية (Monumentum Ancyranum) موضوعات متفرقة ، أحاط فيها إحاطة شاملة بمعالم السياسة التي انتهجها ، وضمها بسجل حياته . وقد لخص فيها أهم أعماله المجيدة في أوقات السلم والحرب على السواء (Res Gestae divi Augusti) وعرض لحروبه المختلفة التي خاضها إما بنفسه أو بواسطة قواده ومندوبيه (legati) . وكان من بين هذه الحروب بالطبع حربه ضد كليوباترة . وذكر قواعده في البر والبحر وبيان الشعوب والأجناس التي أخضعها ، والقرصان الذين أمّن البحر من شرورهم وآثامهم ، وعدّد المنشآت العمرانية التي شيدها والمعابد المختلفة التي كرمها لثنى الآلهة في روما وفي خارجها ، ثم الألعاب الرومانية والتقليدية (Ludi Romani et Ludi Saeculares) التي أقامها . كما سرد المناسبات المختلفة التي أغدق فيها على جنده وعلى عامة الرومان المنح والعطايا التي أجزلها لهم ، بعضها من إرث أبيه ، وبعضها من جيبه الخاص . وقد أسهب في ذكر الألقاب والوظائف المدنية والعسكرية والدينية التي أسبغت عليه من مجلس الشيوخ الروماني أو مجالس العامة ، منذ مطلع شبابه وهو لا يزال يافعاً في التاسعة عشرة إلى مماته سنة ١٤ م . وكان بعض هذه الألقاب والوظائف من قبيل التكريم البحت ، والبعض منها من واقع سلك الوظائف الرومانية . فأسبغ عليه الرومان لقب أب الوطن (Pater Patriae) ووكّلوا إليه رعاية الأخلاق العامة والعمل على أن يمحّث الفساد ويعيد العادات السليمة التي حافظ عليها الآباء وتوارثها الرومان . وفي ثنايا كل هذا لم يغفل مصر وما أحرزه من انتصارات على ملكتها

كليوباترة ، بل كانت إشارته إلى ذلك بارعة وعابرة . وعندما عرض لحفلات النصر التي أقامها في روما ، والمناسبات في كل حالة ، ذكر أنها في مرتين كانت من النوع الذي يسير فيه القائد المظفر منطياً صهوة جواده (bis ovans) وفي ثلاث مرات كانت من النوع الذي يجلس فيه القائد على كرسي من العاج (curulis) . وهاك نص العبارة اللاتينية التي وردت في الفصل الرابع من هذه الوثيقة الأنقيرية : Bis ovans triumphavi , tris egi curulis triumphos . وفي طيات هذه العبارة المقتضبة معان كثيرة وإشارات عديدة تلقفها الكاتب الروماني سويتونيوس ، وتناولها بالشرح والتفصيل عندما عرض لحياة أغسطس (الفصل ٢٢) ، فأفصح عن المناسبات في كل حالة : ففي المرتين الأولتين ، دخل أغسطس روما عقب معركة فيليبيا واحتفى بنصره هذا سنة ٤٠ ق.م ، ثم احتفى مرة أخرى سنة ٣٦ ق م بانتصاره في الحرب الصقلية على سكستوس ببي وفلول جيشه ، وقضائه على القرصان . أما في المرات الثلاث التي كان احتفاله بالنصر فيها وهو جالس على كرسي من العاج ، فكانت أولها في مناسبة انتصاره في حربه في دالماشيا (الليريوم) وفي المرتين الأخيرين كان يحتفل بنصره على كليوباترة في أكتيوم ثم في الإسكندرية . وما هو جدير بالملاحظة أن أكتافوس أغفل ذكر اسم كليوباترة هنا متعمداً ، وكان لهذا الإغفال مغزاه . على أن المؤرخ ليفي كشف لنا الستار عن هذا الغموض المتعمد ، فالبح في صراحة في كتابه المختصر (Epitome 33) إلى ذكر كل هذه التفاصيل على النحو الآتي : Tres triumphos egit, unum ex Illyrico, alterum ex Actiaca victoria, tertium de Cleopatra . وبذلك أغنانا هذا الكاتب عن الحاجة إلى التأويل والتفسير ، فذكر صراحة أن الاحتفال بالنصر الأول كان بفضل ما كسبه في الليريوم وأنه في الثاني والثالث كان بفضل ما كسبه في أكتيوم والإسكندرية على كليوباترة . وهكذا لم نحظ من قلم أكتافوس أغسطس إلا بإشارة عابرة مقتضبة إلى احتفاله بالنصر لتخليد ذكرى ضم مصر لسلطان الشعب الروماني ، فلم يفصح عن شيء ، وإنما آثر

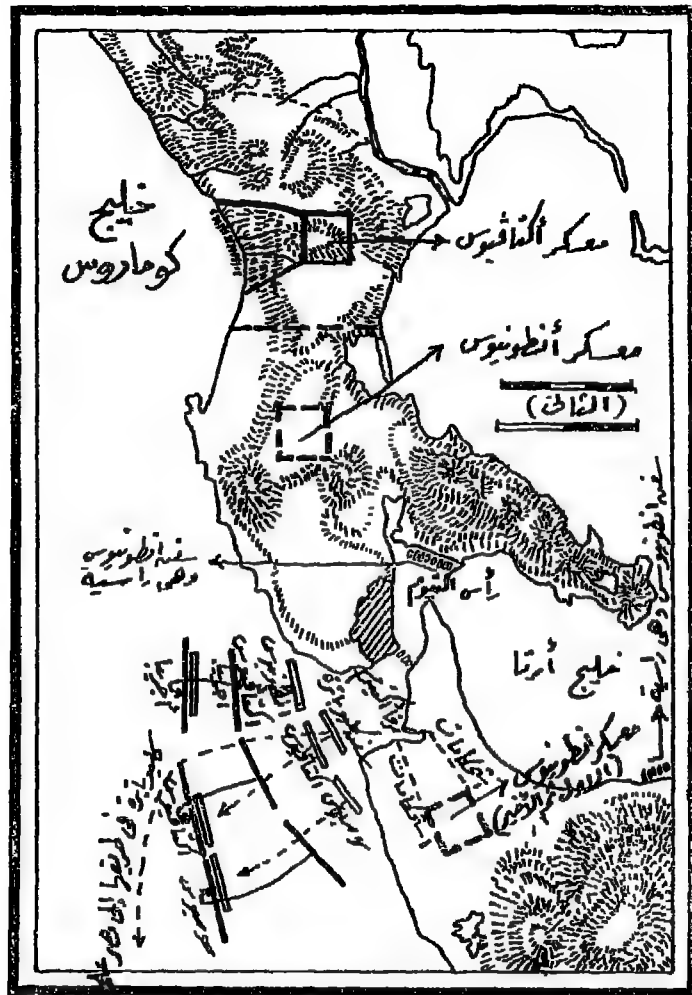
أن يجمع ذلك ضمن انتصاراته الأخرى . وإمعانا في الاقتضاب وعدم الرغبة في الإفصاح، على النحو الذى درج عليه أكتافوس إزاء كليوباترة وأبنائها، جاء في الفصل الرابع من الوثيقة الأنقرية (سطر ٢٧ - ٢٨) أنه في انتصاراته التى احتفل بها ، كان يسير فى الموكب أمام عربته ملوك وأبناء ملوك بلغ عددهم تسعاً . وقد عرفنا من مصادر أخرى أن پولميون وهيرودس وأنطيوخوس كانوا من بين هؤلاء . وذكر لنا ديون (Dio, 51, 21) أن ابناً وبناتاً لكليوباترة كانا كذلك من بين هؤلاء التسعة .

ومع كل التفاصيل المسببة والوظائف العديدة التى تولاهما أكتافوس أو الإشارات إلى الشعوب والأجناس التى أخضعها أو ارتبط معها بروابط الحلف والصدقة، فإنه لم يشر ولو مرة واحدة فى وثيقته الأنقرية هذه إلى كليوباترة وأبنائها صراحة وبالأسم ، مع أن خصومته لها كانت عنيدة ، وحر به التى أعلنها عليها خصيصاً كادت تهز كيانه وتعصف به . ولكنه أثر ألا يذكر كليوباترة بالإسم، ويقصر على الإشارة إلى ذلك الحادث الجلل وهو ضم مصر لسلطان الرومان بعبارة موجزة ، جاءت عابرة فى سياق سرده للحوادث. فقال بجملة المأثورة : (*Aegyptum imperio populi Romani adieci*) ومعناها ضمت مصر لسلطان الشعب الرومانى ^(١) . وفى عبارته هذه من الإغفال والتعمية ما جعل المؤرخين يتخبطون فى تعرف ما تضمنه من المعانى والأهداف . فقد ستر أكتافوس وراء هذه العبارة أكثر من حقيقة يلحظها المؤرخ المدقق ، وهى أن أكتافوس أغسطس عندما دبح هذا السجل التاريخى وأراد أن يودع فى طياته جميع أسرار ومشاغره ، لم يكن صريحاً كل الصراحة ، ولم يقصد أن يتوخى، فيما يكتب وما يصور من مشاعر ويكشف من أمور ، ذكر الحقائق دون مواربة . إنه لم يكن ناسياً لمجرى الحوادث ، على الرغم من تلك الفترة الطويلة التى مرت على أحداث أكتيوم وما تلاها ، وكانت قد انقضت عند موته سنة ١٤ م ، فترة تقدر بنحو أربعة وأربعين

عاماً منذ قيام الإمبراطورية . وهذه الفترة — على طولها — ما كانت لنفسه أحداث الأعوام الثلاثة المضطربة التي سبقت أكتيوم من ٢٣ حتى ٣١ ق. م. ثم عام ٣٠ ق. م بالذات وفيه وقعت موقعة نيكوبوليس بظاهر الإسكندرية وفيه توارت كليوباترة عن الأنظار إلى الأبد . وإنما هو الأسلوب البارع وطابع الرجل السياسي الحصيف الذي أثر أن يسيطر على الأحداث ، فلا يقيم وزناً ولا شأنًا لما عساه أن يثير هذا الماضي البغيض إلى نفسه ، فيعيد بذلك إلى الأذهان موضوعاً حساساً طالما أفض مضجعه ، وشاء ألا يذكّر الناس بكليوباترة وابنها قيصر و ما كان لقيصر من علاقة بكلية . إنه بلا ريب كان ينبغي إسدال الستار السميكة على كل هذا . ومن هنا جاء الاقتضاب . ولعل هذا هو السر في إشارته البارعة إلى حادث ضم مصر بعبارة مقتضبة كل الاقتضاب . وبأيت الأمر اقتصر على الاقتضاب وحده ، بل إنه تجنى على الواقع من ناحيتين ، فهو لم يضم مصر حقاً إلى سلطان الشعب الروماني ولم يجعل منها ولاية حقه على نسق غيرها من الولايات الرومانية (*provinciae*) ، وإنما جعلها ولاية من طراز فريد وأحاطها بسياج خاص واتخذ منها ضيعة خاصة له أو ما يشبه الضيعة ، ووضع من الضمانات ما يكفل له دوام حكمها والمحافظة عليها ، فاستن لها من قواعد الحكم (*arcana imperii*) ما جنبها الأخطار وأبعد عنها ذوى المآرب والأطماع . وقد قصر اختيار الحكام والولاة عليها (*praefecti*) على طبقة طيبة هي طبقة الفرسان الرومان (*equites*) وحرّم على طبقة الشيوخ النابهين وأعضاء البيت المالكة في روما أن تطأ أقدامهم أرض مصر أو يهبطوا إليها بقصد زيارتها ، دون أن يحصلوا على إذن خاص منه بذلك ، خشية على تلك الدرة البتيمة في تاج إمبراطوريته . من أن يكدر صفوها أحد أو يتخذ من موقعها الإستراتيجي القذو هي مفتاح البر والبحر (*claustra terrae et maris*) على حد قول المؤرخ تا كيتوس ،^(١) أداة يهدد منها الإمبراطورية أو يستأثر بها حاكم من الولاة . فكان حصيفاً ،

بعيد النظر فيما اتخذته من ضمانات ، حرص خلفاؤه الأولون على اتباعها .. ثم هو يتجنى مرة أخرى ، عندما يؤثر عدم الإفصاح عن شيء وهو يتحدث عن ضم مصر ، فأغفل حقائق كثيرة في هذه النبذ والخلاصات (breviarium) . وكان أولى به أن يسرد أهم التفاصيل التي أدت إلى هذا الضم ، ليشبعهم الباحث ويوفى للأجيال التالية حقها من المعرفة . ذلك أن تفاصيل حادث ضم مصر لسلطان الشعب الروماني لها أهميتها البالغة ، لأن مصير الإمبراطورية قاطبة ، بل ومستقبل العالم الروماني برمته كان متوقفاً على نتيجة ذلك القتال الذي دار في أكتيوم . فكان أخرى به أن يذكر أسباب القتال في شيء من الصراحة ، ويفسر للأجيال التالية وجهة النظر الرومانية وهي الوجهة الرسمية في هذا الشأن ، فيعرض للأسباب التي من أجلها شن الحرب على كليوباترة وحدها في إصرار وعناد وحض العالم الغربي كله على أن يصب جام غضبه على الملكة كليوباترة بالذات . ولعل السر في كل ذلك علم اليقين بأن هذا هو السبيل الذي يتعين عليه أن يسلكه ، ووثوقاً منه بأن هذا سيجر معه بالتبعية حليفها الأول أنطونيوس وهويت القصيد . وكان حرياً به كذلك أن يكشف عما ترامي إلى سمعه وعلمه من أسباب فرار كليوباترة من المعركة في أكتيوم . فيفيض إلينا بملخص ما تواترت به الإشاعات في ذلك الحين ، ويوفر بذلك علينا ما عسانا نقع فيه من تخبط في دياجير الخدس والتخمين .

تلك صفحات من مأساة كليوباترة ، عرضنا لها بشيء من الشرح والتفصيل . وهذا هو موقف العالم من هذه الملكة المصرية التي قسا عليها الدهر ، فأثخنها بالطعنات والجراح حتى خربت كلمته . وهي الآن أحوج ما تكون إلى كلمة عدل وإنصاف .



موقعه أكتيوم
(سنة ٣١ ق.م)

فهرس الاسماء والاعلام

آريوس (فيلسوف سكندري) ١٣٣
 آسبانيا (بلاد) ١٦، ٢١، ٥١، ٩٥
 ٩٨، ١١٢
 استرابون (مؤرخ وجغرافي) ١٤٤
 الإسكندر الأكبر ٦٨، ٣٤، ١٤٤، ١٤٠
 الإسكندر هيليوس (ابن كليوباترة) ٥٩
 ٦٤، ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٧٧، ٧٨
 ١١١
 الإسكندرية ٧/٣، ١٠، ١٦، ١٩
 ٢٢/٢٤، ٢٨، ٢٩، ٤٣/٤٦
 ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٥٩، ٦٢/
 ٦٧، ٦٩، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٩٠
 ٩٢، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١١٨
 ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٩
 ١٣٢، ١٣٣، ١٤٢، ١٥١، ١٥٢
 ١٥٤، ١٥٦
 آسيا (بلاد) ١٤، ٣٥، ٤٠، ٤٨، ٥٣
 ٦٥، ١٣٣، ١٤٠، ١٤٩
 آسيا الصغرى (بلاد) ١٤، ١٦، ٣٠
 ٣٣/٣٧، ٤٠، ٤٤، ٤٩، ٥١
 ٨٧، ١٠٠، ١١٤، ١٤٥
 أشقودرة ٥١
 الإغريق (بلاد) ٩٩، ١٠٠
 أفروديتي ١٨
 إفريقيا (بلاد) ١٦، ٩٥، ١١٠، ١٣٣
 لفسوس (مدينة) ٢٩، ٣٥، ٣٧/٣٩
 ٤٣، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٤، ٨٦/
 ٨٨

(١)

أبافروديتوس (أحد أعوان أكتافوس)
 ١٣٧، ١٣٠
 أبولودوروس ١٠
 أبيان (مؤرخ) ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٥٢
 إبيروس «بلاد اليونان» ١١٤، ١٠٠، ٥٠
 إبيكوس ١٧، ٢٠
 أينا ٥٢، ٩٣، ١١٢، ١١٣، ١٢٠
 إينايوس ٤١، ٤٤
 أجرييا ١٠٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٣
 أخيلاس (متولي قيادة القوات المسلحة المصرية)
 ١٣، ١٥
 أرتاكستا (بلد) ٦٤
 أرتاواسديس (ملك أرمينيا) ٦٤، ٦٧
 ٨٣، ١١١
 أرتيمس (إلهة مدينة لفسوس) ٤٣، ٣٥
 أرسطوبولس ٥٦
 أرسينوي (أخت كليوباترة الصغرى) ١٢
 ١٣، ١٥، ٢٠، ٢٢، ٢٨، ٤٣
 ٤٦، ١٣٤
 أرسينوي الثانية (أخت وزوجة بطليموس
 الثاني — فيلادلفوس) ٤٦
 أرمينيا (بلاد) ٢٩، ٥٨، ٦٠، ٦٢
 ٦٤/٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٧، ٧٨
 ٨٣
 أروديس (ملك فارس) ٤٩

لمروس (خادم أنطونيوس) ١٢٧
 إيريس (وصيفة كليوباترة) ١٢٧ ، ١٣٨
 إيريس ١٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١١٥
 إيطاليا (بلاد) ٢٤ ، ٣٣ ، ٥٠ / ٥٣ ،
 ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٣
 ٨٥ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
 ١٤٤

(ب)

پاريتونيوم (مرسى مطروح الآن) ١١٠
 ١١٦ ، ١١٧
 پارثيا (بلاد) ٦٥ ، ٦٨
 باكوس (إله القرح) ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ،
 ٧٤
 پترونيوس ٤٥
 برقة (بلاد) ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٤
 برنارد شو (كاتب روائى) ١ ، ٢
 برنديزى ٥١ ، ٩٩ ، ١٠٠
 برنيقة (ابنة ماجاس وزوجة بطليموس الثالث)
 ٤٦
 برليقة (بنت بطليموس أوليتيس) ٦٤٤٤
 برنيقة (ابنة بطليموس فيلادلفوس وأخت
 بطليموس الثالث وزوجة أنطيوخوس
 الثانى) ٤٦
 بروتس ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦
 بروكليوس (من أتباع أكتافىوس) ١٢٨ ،
 ١٣٠ / ١٣٢
 بطراء (سلم) (بلد) ١١٢
 بطليموس الأول ٦٧
 بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ١٢ ، ١٦ ،
 ٤٦ ، ٥٦ ، ٥٩

أكارنانيا (ولاية بيلاد اليونان) ١٠٠
 أكتافيا (أخت أكتافىوس وزوجة
 أنطونيوس) ٣٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
 ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٩ ،
 ٨٧ / ٨٩ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٤٩
 أكتافىوس أغسطس ٦ ، ١٦ ، ١٧ ،
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ / ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ،
 ٤٨ ، ٥٣ / ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ،
 ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ / ٧٣ ، ٧٥ ،
 ٧٧ ، ٨٠ / ٨٢ ، ٩١ / ٩٣ ، ٩٦ ،
 ٩٨ / ١٠٢ ، ١٠٤ / ١١٠ ، ١١٢ ،
 ١١٦ ، ١١٨ / ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ،
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥
 أكتيوم (موقعة) ٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٨٠ ،
 ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
 ١٠٧ / ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ،
 ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٤ / ١٥٧ ،
 ١٦٢
 ألبانيا (ساحل دالماشيا) ٦٢ ، ٧٦
 أمبراشيا (خليج) ١٠٠
 آمون رع (كهنة) ١٤٥
 أمينتاس ١٠٤
 أنطيلوس (بن أنطونيوس من فلقياء) ١١٥
 ١٢١ ، ١٣٣
 أنطاكية (مدينة) ٥٥ ، ٥٧
 أنطيوخوس ١٥٥
 أقرة (مدينة) ٩٤
 أولوس بابنيوس (حاكم الشام) ٣ ، ٤ ،
 ٣٠ ، ٣١
 أولمبيوس (طبيب كليوباترة) ١٣٥ ، ١٣٨
 أولمبياس (والدة الإسكندر الأكبر) ٤٧
 لميثوميا (بلاد) ١٣١ ، ١٣٣

تارن (و. و.) ١٤٠، ١٤٢
 تارتوم (بلد) ٥٢، ٥٣، ٨٠، ٩٩
 تاكتوس (مؤرخ) ١٠٦
 تايناريوم (رأس) ١١٠
 تراقيا (ولاية) ١٠٢
 تروادة (بلد) ٢٤
 تورين (لوحة) ١٤٥
 التير (نهر) ١٨، ١٩، ١١٨، ١٥١
 تيتيوس ٨٩، ٩٠، ٩١
 تيمون الآثني ١١٢
 تيمونيوم (منزل أفلونيوس بالميناء الشرقية.
 بالاسكندرية) ١١٢، ١١٤

(ث)

ثيودوتس (رائد الملك بطليموس الثالث عشر).
 ١٥، ٨

(ج)

جاردا هاوسن ٥٦، ٥٧
 جالاشيا (ولاية) ٣٧
 جانيميديس (خصي كليوباترة) ١٢، ١٣
 الجبنازيارك (رئيس الندوة الثقافية —
 الرياضية) ٧٤
 الجنازيوم (الندوة الثقافية — الرياضية) ٦٧،
 ١٣٣
 جوبا (ملك ماوريتانيا) ٢٢
 جويتر (كبير آلهة الرومان) ٦٦، ٦٧
 جيميوس ٩٣

(ح)

حورس (ابن إيزيس) ١٨

(خ)

خارميان (وصيفة كليوباترة) ١٢٧، ١٣٨
 ١٣٩

(د)

دالاشيا (الليزيوم) ٥١، ١٥٤
 دولابلا ٤٢

(م ١١ — كليوباترة)

بطليموس الثالث ٤٧، ٥٦
 بطليموس الرابع (فيلوباتور) ٤٤، ٤٥،
 ١٤١، ١٤٥

بطليموس الثاني عشر (أوليتيس) والد
 كليوباترة ٤/٢، ٨، ٩، ١١/١٥
 ٢٢، ٦٩

بطليموس الثالث عشر (أخ وزوج كليوباترة)
 ٨، ٥، ١٢/١٥، ١٢٩

بطليموس الرابع عشر ١٩، ٤٣
 بطليموس الصغير (ابن كليوباترة) ٦٨، ٦٩
 البلسم (حقول) ٥٥
 البلقان (بلاد) ١٠٢

فلوتارخوس (كاتب يوناني) ١، ٩، ١٠
 ١٧، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠
 ٤٤/٤٦، ٥٢، ٥٤/٥٦، ٥٩

٦٢، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٩

١٠٦، ١١٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٨

١٣٥، ١٣٦، ١٤١

البليونيز (شبه جزيرة) ١١٠

بوليوس توريديوس ١٢١

بوليوس كانديوس ٨٦

بوتيتوس (خصي تولى الإدارة العامة والشئون
 المالية — مرنى الملك بطليموس الثالث

عشر ورائده) ٨، ١٢، ١٥

بوجود (ملك ماوريتانيا — مراکش) ٢١
 بوشيه ليكلارك (مؤرخ فرنسي) ٥٦،

٧٠، ٧٨، ٩٢، ١٣٩

بوليون ١٥٥

ميثينا (ولاية) ٣٧

بيروسيا (بلد) ٥٠، ٥١

(ت)

تارموس (طرسوس) ٥، ٦، ٢٩
 ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٨، ٤٩

٥٥

(ز)

زوحا (بلد) ٥٨ ، ٥٩

زيلا (بلد بنطش) ١٦

(س)

ساكسا ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠

ساموس (جزيرة) ٨

المرابيوم (معبد سيرايس) ٦٦ ، ٦٧

سردنيا (جزيرة) ٥١ ، ٩٥

سقراط الرودي ٤١

سكستوس پي ٤٣ ، ٤٩ ، ٩٦ ، ٨٣

٩٦ ، ١٠١ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٥٤

سوريا (بلاد) ٨ ، ١٤ ، ١٧ ، ٣٠ ، ٣١

٤٤ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١١٢

١١٤ ، ١٢٣

سوريا الحالية (كويلى سوريا أو فلسطين)

٣٧ ، ٥٥ ، ٦٨

سوسيچنيس (عالم سكندري) ٢٤

سوسيوس ٨٤ ، ٨٥

سوفوكليس (شاعر) ٣٦

سويتونيوس ٨٢ ، ١٥٤

سيرايس (إله) ٦٧

سيرينسكا (برقة) ٦٨

سيلاوكوس ١٢٣

سيليشيا أو قليقية (ولاية بآسيا الصغرى)

٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٥

٦٨ .

سيناء (شبه جزيرة) ١١٢

(ش)

الشام (بلاد) ٣ ، ٥ ، ١٤ ، ١٦ ، ٣١

٣٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥

٥٨ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٤٥

١٤٩ .

شكسير (شاعر انجليزى) ١ ، ٤١

شعر ٥٦

دوميشيوس اهنوباريوس ٤١ ، ٨٤ ، ٨٦

٨٧ ، ١٠١

ديليوس ٣٩ ، ٦٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥

ديوكاسيوس (مؤرخ) ١٠ ، ١٢ ، ٢٠

٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤

٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٦٩

٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٥ ،

٩٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٣ ، ١٣٥

١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٥٥

ديوميديس (كأم سر كليوباترة) ١٢٨

ديونيوسوس الجديد (لقب كان يطلق على

بطليموس اوليتيس) ٣

ديونيوسوس ٦٩ ، ٧٤

(ر)

رايريوس پوستوموس (روماني عين وزير

مالية مصر - ديونكتيس) ٤ ، ٦٩

رستوقترف (عالم) ٩٠ ، ٩١

رودون (مربى فيصرون) ١٣١

روفينوس ١٥

روما (بلد) ٢/٥ ، ٢٢/١٥ ، ٢٤ ، ٢٥

٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥

٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٠ ،

٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨١ ،

٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ،

١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٦

الرومان ١ ، ٣/٥ ، ٧ ، ٨ ، ١١/١٥ ،

١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ،

٣٣ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،

٥٥ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ،

٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦

فينوس (إلهة الجمال) ٤٠
فينوس جينتركس (جدة العشرة البولية)
٢٣، ١٨
فيفيقيا (بلاد) ٤٣، ٥٠، ٥٥، ٥٦،
٦٨.

(ق)

قبرص (جزيرة) ٣، ١٢، ١٨، ٥٥،
٦٨

قيصرون أو قيصر الصغير ابن كايوبايرة من
قيصر (بطليموس قيصر الحب لأبيه
وأمه) ١٧/١٩، ٢٢، ٣٩، ٤٨،
٤٩، ٥٤، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٢،
٧٣، ٧٥، ٨٣، ٨٩، ١١٥،
١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٤٥،
١٤٧/١٤٩، ١٥١، ١٥٦

(ك)

كبادوشيا (ولاية) ٣٧
الكاييتول (تل بروما وعليه معبد الكاييتول)
٦٦، ٦٧، ٩٢، ١٣٥
كاركوبينو (عالم فرنسي) ١٧
كالبورينا (زوجة بوليوس قيصر) ٢٤
كاليانخوس ١٤٥
كانوبوس أو كانوب (أبو قبر) ٤٦، ١٢٥،
السكانوي (طريق موصل إلى أبي قبر) ٦٦
كانيديوس كراسوس ٣، ٧٧، ٧٨،
١٠٢، ١٠٣، ١٠٨، ١١٤

كروماير ٥٦، ٧٩، ٨٢
كليوبايرة ١، ٢، ٤، ١٢، ١٥/٢٤،
٢٦/٣٠، ٣٥، ٣٧، ٥٨،
٥٩، ٦٢/٨٤، ٨٩/٩٩، ١٠١/
١١١، ١١٣/١١٥، ١١٧/١٢٣،
١٢٥/١٣٦، ١٣٨/١٤٥، ١٤٧/
١٥٧.

كليوبايرة سيليني (الابنة) ٥٩، ٦٨،
٦٩.

شيفرون (كاتب روماني) ١٧، ١٨، ٢٠،
٢٥، ٣٣، ١٥٠

(ص)

صقلية (جزيرة) ٦١، ٩٥
صور (مدينة) ٥١
صيدا (مدينة) ٥٨

(ط)

طرابلس (ولاية) ٦٩
طيبة (مدينة) ١٤٥

(غ)

الغال (بلاد) ٢٢، ٥١، ٩٥

(ف)

فارس (بلاد) ٣٠، ٥٩
فارنا كيس (ملك) ٠٦، ٢٢
فاروس (جزيرة) ٢٢، ٤٦
الفرات (نهر) ٥٨، ٩٨

الفرن ٢١، ٢٤، ٢٩، ٣٨، ٤٣،
٤٥، ٤٩/٥٢، ٥٧، ٦٠، ٦٢

٦٨، ٦٩، ٧٣، ٧٧

فرساليا (موقعة) ٩، ١١٨
الفرما (بيلازيوم - ميناء في شرق مصر)
٤، ٥٥، ٨٠/١٠، ١٣، ١٤، ١٧٣،
١٢٤، ١٢٩، ١٤٢

فريجيا (ولاية) ٣٧

فريرو (مؤرخ إيطالي) ٣٣، ٥٧، ٧٩
قستا (إلهة عند الرومان) ٨٩/٩١

فلسطين (بلاد) ١١٤

فثيا (زوجة أفلونيوس) ٥٠، ٥١،
١١٥، ١٣٣

فلوروس (كاتب لاتيني) ٧٣

الفورم (سوق بمدينة روما) ٨٩

فونقيوس كاييتو ٥٣، ٥٥

فيليباي (معركة) ٢٩، ٣٢، ٤٤، ٣٥

٥٧، ١٥٢، ١٥٤

فيلبيوس (مؤرخ روماني) ٧٣

(ن)

النبطيون ١١٢
النوبة (بلاد) ١٣١
نيرون (إمبراطور) ٨٠، ٤٥
نيكوبولس (موقعة) ٢٧، ٦٤، ١٠٩،
١٥٦

(هـ)

هارولد إدريس بل* (عالم ومؤرخ إنجليزي)
١٤١

هانتيال (قائد فينيقي) ١٤١
هرتيوس ١٣

هقيوس سنا (أحد قتياء السامة) ٢٤
الهند (بلاد) ١١٢، ١٣١
هوراس (شاعر روماني) ١٤٤
ميروود—ميروودس (ملك فلسطين) ٥٦،
١١٣، ١١٩، ١٥٥

(و)

وليام لن وسترمان (عالم أمريكي) ١٤٠

(ي)

اليرموك ٥٦، ٥٥
يهودا (بلد) ٥٦
يوتابي (ابنة ملك ميديا) ٦٥، ٧٧،
١١١، ٧٨

يوتروبيوس ٧٩

يورجتيوس الأول ١٢

يوسيبوس ٧٩

يوسيفوس (مؤرخ يهودي) ٣٧، ٥٦

يوليا (ابنة قيصر) ١٧

يوليا (ابنة أكتافيوس) ١٢١

يوليوس قيصر ١، ٣، ٦، ٩، ٢٤،
٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٦،
٣٨، ٤٢/٤٢، ٤٢/٤٧، ٤٢/٥٧،
٥٧/٦١، ٦٨، ٦٦، ٧١/٧٣،
٧٥، ٨١، ٨٣، ٨٩، ٩١،
١١٥، ١١٨، ١٢١، ١٢٢،
١٢٩، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٠،
١٤٨، ١٥١، ١٥٦.

كورنيليوس جالوس ١١٠، ١١٧، ١٣١

(ل)

لاينوس ٤٩

لأوديسكا (بلدة في الشام) ٥٦، ٦٣

ليبدوس ٣٢، ٣٥

لوخيلاس (حجى السلسلة بالشاطبي) ٦٦، ٤٤

لوكيوس أنطونيوس ٥٠، ٥١

ليبيا (بلاد) ١١٠

ليفي (مؤرخ لاتيني) ٩، ١٥٤

(م)

ماجنوس يعني ١١٨

مارس (إله الحرب عند الرومان) ٩٦

ماركوس أنطونيوس ١، ٤، ٦، ١٦،
١٨، ٢٦، ٢٦/٩٦، ٩٨، ٩٨/١٣٨، ١٤٠/

١٤٣، ١٤٥، ١٤٩، ١٥١،
١٥٢، ١٥٧.

ماكردي (مؤلفة أمريكية) ٤٧

ماهانق (مؤرخ) ٦٩، ١٤٢

الماوسليوم (قبر على شكل معبد، ١٢٧

مصر ٢/٩، ١٢، ١٦، ٢٠، ٢٢،
٢٥، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٣،

٤٥، ٤٧/٤٩، ٥٣، ٥٤، ٥٦،
٦٢، ٦٨، ٧٠، ٧٦، ٨١، ٨٣/٨٤،

٨٦، ٩٢/٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢،
١٠٤، ١١١، ١١٤، ١١٨، ١٢٠،

١٢١، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤،
١٣٦، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٩،

١٥١، ١٥٣، ١٥٧.

مقدونيا ٣٢، ١٠٢، ١٠٨

ممسون (مؤرخ) ٦١

مفيس (مدينة) ١٤

موانتيوس بلاكسوس ٤٩، ٥٠، ٨٩/٩١

ميثريداثيس البرغاني ١٤

ميثوني ١٠٠

ميديا (ولاية) ٦٠، ٦٣، ٦٨، ٧٧،
٧٨، ١١١

ميسيا (ولاية) ٣٧

ماتربة السلام والستر
قائمة الأديان في الوطن العربي
١٩٣٠ - ١٩٤٠ - ١٩٥٠ - ١٩٦٠ - ١٩٧٠ - ١٩٨٠ - ١٩٩٠ - ٢٠٠٠ - ٢٠١٠ - ٢٠٢٠

ماتربة السلام والستر
قائمة الأديان في الوطن العربي
١٩٣٠ - ١٩٤٠ - ١٩٥٠ - ١٩٦٠ - ١٩٧٠ - ١٩٨٠ - ١٩٩٠ - ٢٠٠٠ - ٢٠١٠ - ٢٠٢٠